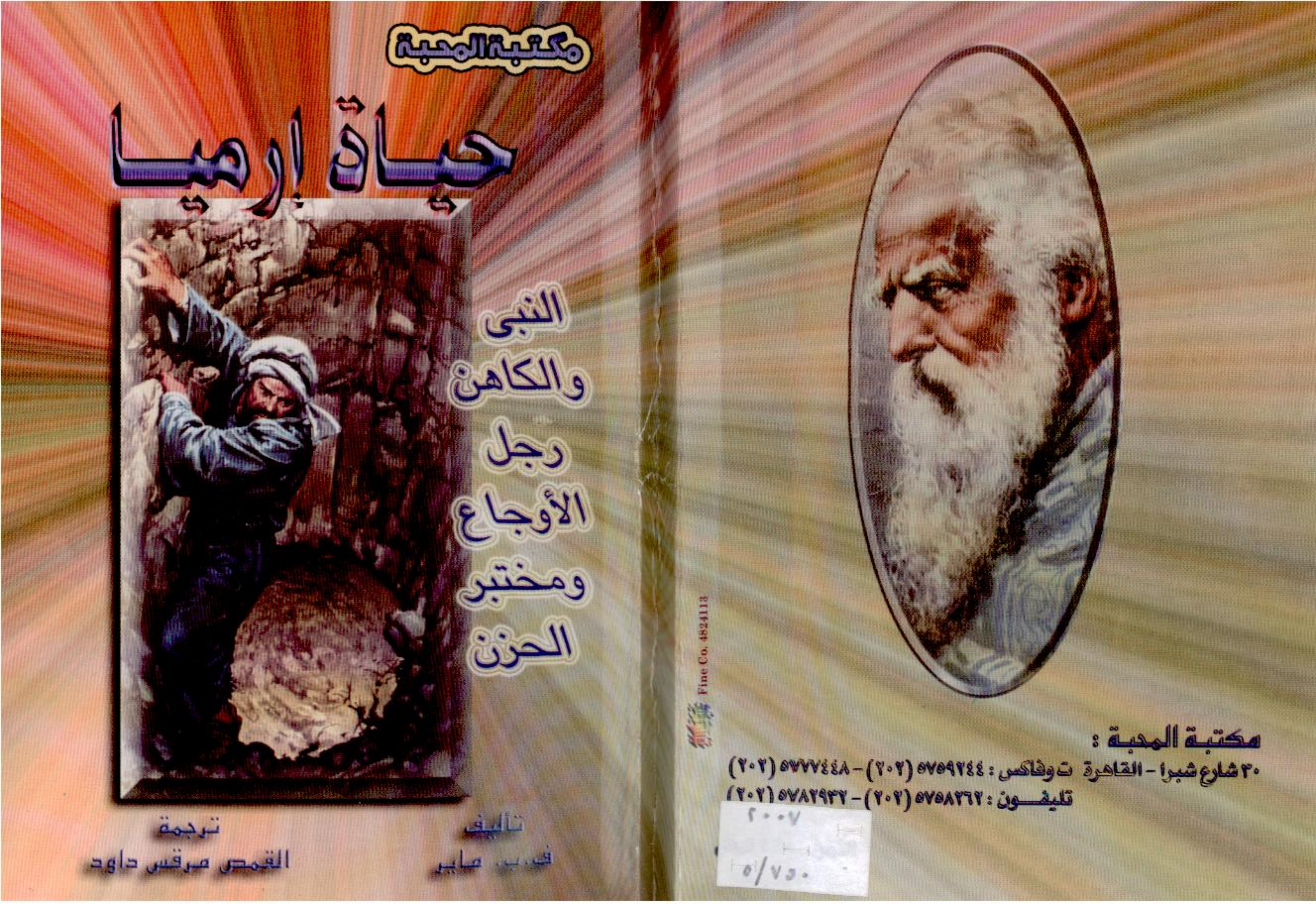

مكتبة المحبة
حياة إرميا
النبى
والكاهن
رجل
الأوجاع
ومختبر
الحزن
تأليف
ف. ب. ماير
ترجمة
القمص مرقس داود
Fine Co. 4824113
مكتبة المحبة :
٣٠ شارع شبرا - القاهرة ت وفاكس : ٥٧٥٩٢٤٤ (٢٠٢) - ٥٧٧٧٤٤٨ (٢٠٢)
تليفون : ٥٧٥٨٢٦٢ (٢٠٢) - ٥٧٨٢٩٣٢ (٢٠٢)

حيــاة إرميــا

الكاهن والنبي

تأليف

ف . ب . ماير

ترجمة

القمص مرقس داود

ملتزم الطبع والنشر

مكتبــة المحبــة

٣٠ شارع شبرا ـ القاهرة ت : ٥٧٥٩٢٤٤ / ٥٧٧٧٤٤٨

مقدمة المعرب

جاء إرميا فى فترة حرجة جدا فى تاريخ اسرائيل. فالمملكة العظيمة التى اسسها داود، والهيكل الذى بناه سليمان فى أورشليم لعبادة الله، والشعب الذى ميزه الله فوق سائر الشعوب بالعهود والمواعيد والعبادة والاشتراع ـ كل ذلك اشرف على النهاية المريعة، لأن الملوك والقادة، والشعب من ورائهم، تركوا الله، وانغمسوا فى عبادة الاوثان، وما لازمها من شرور وبيلة. ولقد اشفق الله على شعبه، وأرسل الانبياء، واحدا بعد الآخر، علهم يرجعون قبل ان يدركهم السخط. ولكنهم اغمضوا عيونهم وثقلوا اسماعهم، وقسوا قلوبهم، فوقعت الواقعة وتبددوا بين الشعوب.

والعالم اليوم يجتاز أزمنة صعبة. فرغم تقدم العلوم وازدهار الفنون ومظاهر الرقى المادى العظيم نرى انحطاطا روحيا محزنا. والناس أبعد ما يكون عن السلام والاستقرار لانه لا سلام قال الهى للاشرار. تركونى أنا الينبوع الحقيقى وحفروا لانفسهم آبارا مشققة لا تضبط ماء.

ان العلاقات بين شعب وشعب يسودها فقدان الثقة والريبة والاثرة والانانية حتى انه فى جيل واحد شهد العالم

حربين مروعتين حصدت فيهما ارواح الملايين من البشر بالحديد والنار. ومع ذلك فلا يبدو ان قادة الامم قد اتعظوا بعد. وفى داخل الشعب الواحد نجد تفكك الروابط العائلية وأواصر المودة. وما أقل الذين يعبدون الله بالروح والحق، وما اكثر الذين يركضون وراء البطر والمنادمات ومحبة الذات وادمان الشهوات والكبرياء والجهالة.

وعلى الكنيسة يقع الواجب الخطير. كما كان صوت ارميا يدوى وسط اسرائيل، منذرا ومحذرا وناصحا ومرشدا هكذا ينبغى اليوم أن يرتفع صوت الكثيرين معلنا حق الله وصلاحه وبره وخلاصه بيسوع المسيح. لقد امتاز ارميا بالغيرة المتأججة والصراحة التامة والشجاعة الأدبية الفائقة واحتمال أقصى صنوف العذاب والامانة حتى الموت. هذه الصفات التى نحن فى أشد الحاجة اليها فى وقتنا الحاضر.

فليت الله يبارك هذه الحلقة فى سلسلة دراسات ابطال الايمان، ويجعل من حياة ارميا حافزا للكثيرين فى الصلاة والجهاد والتمسك بالحق من أجل مجد الله وخير الكنيسة وخلاص النفوس.

ولآلهنا المجد والكرامة الى الأبد. آمين :

١٩ نوفمبر ١٩٤٣ حافظ داود

مقدمة المؤلف

تشعر قلوب المسيحيين دواما بجاذبية خاصة نحو ارميا بسبب وجه الشبه القريب جدا بين حياته وحياة الرب يسوع المسيح. فكل منهما كان "رجل أوجاع ومختبر الحزن"، وكل منهما "الى خاصته جاء، وخاصته لم تقبله"، وكل منهما جاز ظروف الصد، والوحدة، والهجر. وفى حياة ارميا نرى بعض الاختبارات التى لم يشر اليها البشيرون الا اشارة بسيطة فى حياة السيد المسيح.

ليس أمرا يسيرا ان نحاول الوصول الى الترتيب الحقيقى لنبوات ارميا. نحن نجهل علة ترتيبها بهذا الوضع الحالى. والارجح أن الاصحاحات رتبت بحسب موضوعها أكثر من ان تكون قد رتبت بحسب تاريخ حوادثها، أو بعبارة أخرى ان الاصحاحات التى تتحدث عن موضوع واحد رتبت متعاقبة. على اننى فى هذا المؤلف قد حاولت ـ على قدر الاستطاعة ـ اتباع التسلسل التاريخى للحوادث.

... لو اننى قصدت التحدث عن الأيام الاخيرة لمملكة

يهوذا لكتبت باكثر اسهاب، ولكنني تجنبت هذا قاصدا فقط الاشارة الى الرواية العامة على قدر ما يلزم لتوضيح الدور الذى دعى ارميا لتمثيله.

اذا اتيح لى ان أجعل الرأى العام المسيحى اكثر تعرفا بل اكثر اتصالا بشخصية هذا البطل العظيم أكون قد أديت الغرض من تدوين هذا الكتاب.

فان عامة المسيحيين يجهلون كثيرا حياة ارميا وعصره، الأمر الذى يتنافى مع الاحترام الذى كان يؤديه اليهود له دواما. على انه لا يوجد بين الاسماء التى تضئ كالكواكب فى سماء العهد القديم من هو اكثر لمعانا وبهاء منه.

ان فى خدمة ارميا رسالة خاصة لاولئك الذين يجدون أنفسهم ملزمين أن يقفوا وحيدين، الذين يقعون فى الارض ليموتوا (١) الذين يكملون آلام المسيح، والذين عن طريق الموت يقومون ليثمروا فى عالم الابدية الذى يتوقون اليه.

ف.ب.ماير

(١) "ان لم تقع حبة الحنطة فى الارض وتمت فهى تبقى وحدها ولكن ان ماتت تأتى بثمر كثير" يو ١٢ : ٢٤

مقدمة المعرب

للطبعة الثانية

نفدت الطبعة الأولى لهذا الكتاب بنفس السرعة التى بها نفدت باقى حلقات هذه السلسلة المباركة. وطلب منى مرارا اعادة طبعه فكنت أفضل ان اقدم كتابا جديدا عن اعادة طبع كتاب سبق ان رآه القراء أو بعض القراء.

أما وقد كثر الالحاح فلم أر بدا من تلبية النداء بعد ادخال الكثير من التنقيح.

ان حالة الفساد الاخلاقى والانحطاط الروحى التى وصل اليها شعب الله فى عصر ارميا، والتى جعلته يكثر البكاء والنوح، قد لا نكون أكثر فسادا وأشد انحطاطا مما وصل اليه الكثيرون ممن يدعى عليهم اسم المسيح فى هذه الايام التى اصبحنا نرى فيها الشيطان يخترع كل يوم أنواعا جديدة من الفساد والفجور والانحلال الاخلاقى.

وان كان قد حق لارميا ان يبكى وينوح من أجل ما وصل اليه شعبه قديما حتى قال مرة "ياليت رأسى ماء وعينى ينبوع دموع فأبكى نهارا وليلا قتلى بنت شعبى" (ار ٩ : ١)، أفلا يحق لنا ان نبكى نحن أيضا بدل الدمع دما من

اجل ما وصلنا اليه من حالة الفساد والاباحية بين شباننا وشاباتنا، وحالة الفتور فى عبادتنا من أجل حالة التفكك فى العائلات التى هدمت الكثير منها والتى تتزايد كل يوم، ومن أجل مصيبة الانقسام التى حلت بالكثير من هيئاتنا، بل الكثيرين من قادتنا، التى لا يمكن ان تعزى الا لسبب واحد هو الانانية ومحبة الذات، وما يتبعها من الغرور، والكبرياء، والاعتداد بالذات، والسعى وراء المصلحة الشخصية بكل أنواعها؟.

ان كان ارميا "النبى الباكى" قد اكثر من البكاء، وردد المراثى الكثيرة التى نقل الينا الوحى بعضها، فالسبب فى ذلك هو أنه رأى بان كل عبء المسئولية موضوع عليه. فليت الرب يبارك هذا الكتاب لكى يفتح ذهن كل قارئ ليحس بأن المسئولية موضوعة عليه، ويردد ما قاله الرسول فى القديم "ان كنت أبشر فليس لى فخر اذ الضرورة موضوعة على. فويل لى ان كنت لا ابشر (١كو ٩ : ١٦).

بين يديك ربى استودع هذا الكتاب متوسلا أن تتقبله وتستخدمه لمجد اسمك القدوس وخلاص النفوس.

اول يناير ١٩٦٦ **القس مرقس داود**

تواريخ مشهودة

عام ٦٤٠ ق . م دعوة ارميا

" ٦٣٨ " ارتقاء يوشيا الملك

" ٦٠٨ " ارتقاء يهوآحاز الملك

" ٦٠٧ " ارتقاء يهوياقيا الملك

" ٦٠٦ " حصار نبوخذ ناصر لأورشليم للمرة الأولى.

" ٥٩٩ " صدقيا

" ٥٨٩ " سقوط أورشليم

" ٥٨٨ " قتل جدليا

- ١ -

«كانت كلمة الرب الى»

(ارميا ١ : ٤و١١و١٣)

اننا نعرف امورا لا نستطيع التحدث عنها اننا نخلق الى حيث لا نستطيع ان نرسم صورة اننا نبصر مناظر لا تستطيع اليد ان تصورها بسبب سرعة عبورها وشدة ضيائها. اننا نسمع موسيقى شجية غريبة بعيدة لا تستطيع أية آلة موسيقية ان ترددها وكلما حاولنا تقريبها الينا تباعدت عنا (ف.ر هافرجال).

ان كانت أيام داود وسليمان تشبه بالربيع والصيف فى تاريخ مملكة اسرائيل فان العصر الذى نتحدث عنه يبدأ فى أواخر الخريف. ذلك لأن تأثير النهضة الروحية التى قام بها حزقيا واشعياء والتى استطاعت ان تصد تيار التسفل والانحطاط وقتيا، وسرعان مازال وعبر. بل ان الاصلاحات العظيمة التى قام بها يوشيا الملك الصالح والتى أثرت فى الشعب فى مظاهرهم اكثر مما أثرت فى قلوبهم، لم تفلح فى ان تحول القصاص المحتم.

سبيت الأسباط الشمالية الى سهول ما بين النهرين، التى نشأ منها الآباء والأجداد فى فجر التاريخ ولم تتعظ مملكة يهوذا مما حل بأختها اسرائيل، بل سرعان ما انحدرت الى نفس الطريق، لكى يقضى عليها بنفس القصاص. فالملك والحاشية، الرؤساء والشعب، والأنبياء والكهنة، سرت اليهم عدوى الرذائل التى من أجلها طرد الكنعانيون من أرض الموعد منذ عدة أجيال.

حفل كل جبل بغابة كثيفة من الأشجار الخضراء التى مارس الشعب تحت ظلالها الفرائض الوثنية البغيضة وعبادة الطبيعة القبيحة. وامتلأت كل أرجاء البلاد بالهياكل التى شيدت لعبادة البعل وعشتاروث وكل جند السماء، كما امتلأت بالأوثان الداعرة. وكان كهنة هذه العبادات الرجسة يغدون ويروحون فى المدن بملابسهم القاتمة بحالة منافية لتلك التى كان يبدو فيها كهنة الرب بملابسهم الناصعة البياض. وقد علموا الشعب ان يعتبروا الرذيلة جزءا من العبادة وان يغشوا البيوت المكرسة للدعارة. وتفشت كل أنواع الشر دون مقاومة، فالمساكين اغتصبت أموالهم، والأبرياء اتهموا ظلما وعدوانا، والأشرار كمنوا لالقاء القبض على غيرهم.

وازداد الجو فسادا. والارض رجسا، بسبب انتشار السرقة والقتل، والزنى والعبادة الوثنية (ص ٢ :٢٠ و ٢٧ و ٣٤، ٥ : ٧ و ٨ و ٢٦، ٩ : ٢).

على ان هذه الشرور تركزت بنوع أخص فى أورشليم. ففى شوارع هذه المدينة المقدسة تعلم البنون بأن يحتطبوا حطبا، اما الآباء فكانوا يشعلون النيران. والنساء يصنعن كعكا لعشتاروت "ملكة السماء" ويسكبن سكائب لآلهة أخرى.

والهيكل، الحافل بذكريات مقدسة كثيرة صار مركزا لعبادة البعل، وتدنست دوره بالأصنام البغيضة. وصار فناؤه الخارجى مقرا للرجال الأشرار والنساء الداعرات. وكان يبدو كأن ملك سدوم قد احتل بيت ملكى صادق القديم وطرده منه.

وفى وادى ابن هنوم ـ أسفل سور الهيكل ـ كانت تشاهد باستمرار مناظر تذكر بأظلم عهود الوثنية فى قسوتها ووحشيتها. فى هذا الوادى توجد "توفة" (ومعناها طبل) التى اقتبس اسمها من الطبول التى كانت تدق لتغلب أصواتها

على صراخ الاطفال الذين كان يقذف بهم فى النيران. ويا له من تناقض غريب. فقد كان القساة القلوب، الذين يتمسكون بالشكليات. يصرخون قائلين "هيكل الرب" وفى أسفل الهيكل كانت تمثل هذه المناظر الشيطانية. ليتها كانت تلك هى الأيام الاخيرة فى تاريخ العالم حين اقترنت العبادة الحقيقية بالتصريح الرسمى بالرذيلة وعبادة الشيطان.

وفى مدينة شريرة عاتبة كهذه، أشبه ما تكون بسدوم، كان ينبغى أن يسمع صوت الله، ينبغى أن ينذر ديان كل الارض أولئك الاشرار بقضاء معين لا يمكن أن ينجوا منه الا بالتوبة العاجلة. ينبغى للراعى الصالح أن يفتش عن الخراف الضالة. كان الاعتقاد بعدم وجود مثل هذه الخطايا التى عطلت القصد من اختياره لاسرائيل وتهذيبه الطويل لهم، وهددت بالقضاء عليهم كشعب.

وان كان لابد لله من أن يتكلم فينبغى ان يكون على شفاه انسان كرس له تكريسا كاملا، لأنه ان رن صوته مباشرة فى أذنى انسان خاطئ فانه اما ان يشله بسبب الخوف والفزع، أو يبدو غامضا كأصوات الرعد. لذلك تمشى الروح القدس فى العالم فى كل العصور باحثا عن الشفاه المستعدة

للنفوس المختارة ليتحدث بها الى شعبه. وهو اليوم يبحث عن مثل هذه النفوس. فالبشر لا يزالون حلقة الاتصال بينه وبين البشر. والروح القدس يردد الينا القول الذى وجهه الى حزقيال "يا ابن آدم اسمع الكلمة من فمى وانذرهم من قبلى" (حز ٣ : ١٧).

وفى دعوة ارميا نستطيع ان نتبين نوع الانسان الذى يختاره الله كواسطة لنقل كلامه. واذ يتبين لنا ذلك فاننا نعجب أشد العجب، حين يتضح لنا ان الكنز السماوى يودع فى مجرد اوان خزفية بسيطة. لم يقع الاختيار لتقل كلمة الرب الى ذلك الجيل الفاسد على فم شخص فى مدينة أورشليم العظيمة. بل فى قرية عناثوث الحقيرة، وهى تبعد نحو ثلاثة أميال عن أورشليم شمالا، ولا على فم احد الشيوخ، بل على فم شاب يافع، ولا على فم أحد الأشراف والأمراء، بل على فم أحد أبناء كاهن مجهول، ولا على فم احد الأبطال كأيليا، او الفصحاء كأشعياء، او المتعمقين فى الروحانيات كحزقيال، بل على فم شخص كان جبانا ومترددا، شاعرا بالضعف، يتوق الى العطف والمعونة والمحبة التى لم يجدها قط.

لا يمكن أن تكون مجرد النظرة السطحية كافية لاكتشاف الصفات الخاصة التى دعت لوقوع الاختيار الالهى على ارميا.

ولكن لا غرابة فى ذلك. فان الاوانى التى اختيرت لاتمام المقاصد الالهية فى كل العصور التى لم تكن كما لو ترك الاختيار للانسان. اذ ان الله قد اختار دواما "جهال العالم ليخزى الحكماء، واختار الله ضعفاء العالم ليخزى الأقوياء واختار الله أدنياء العالم، والمزدرى وغير الموجود ليبطل الموجود، لكى لا يفتخر كل ذى جسد أمامه" (١كو ١ : ٢٨ و ٢٩) قد تكون عشيرتك هى الذلى فى منسى وأنت الأصغر فى بيت أبيك (قض ٦ : ١٥) ولست الا مجرد رغيف خبز شعير (قض ٧ : ١٣) ومع ذلك فان كنت فى يد الله صنع بك خلاصا عجيبا.

على أنه كانت هنالك عوامل كثيرة تدعو أن يغض الله الطرف عن ارميا :

١ ـ كان شابا يافعا : لا ندرى على وجه التحقيق مقدار حداثة سنة، ولكنه على أى حال كان صغيرا بازاء الدعوة

الالهية، فرفضها قائلا "آه ياسيد الرب أنى لا أعرف أن أتكلم لأنى ولد". لا شك فى أنه كولد كان ينعم بمميزات خاصة. فانه خرج من عشيرة كهنوتية، ولعل أباه حلقيا كان هو رئيس الكهنة الذى اكتشف ـ أثناء تأدية الخدمة بالهيكل ـ الدرج الذى اتضح أنه صورة من سفر الشريعة، والذى أدى الى ذلك الاصلاح العظيم الذى قام به يوشيا. وعمه شلوم كان زوج خلدة النبية. التى كانت لا تزال محتفظة بشعلة الايمان حتى فى تلك الايام الحالكة الظلام. والأرجح أن شافان وباروخ وحنمئيل كانوا رفقاء صباه وكونوا بعد ذلك جماعة متحدة صغيرة أنعشت أقدس تقاليد الحياة الوطنية. ومع ذلك فقد كان ارميا لا يزال ولدا.

ان الله طالما اختار الاحداث للمراكز الخطيرة. اختار صموئيل وتيموثاوس، يوسف وداود، دانيال ويوحنا المعمدان. فى كل تاريخ الكنيسة تأمل الشبان مليا فى هذه الحقيقة، وقوى فيهم الرجاء واثقين أنه ان كانت حداثة السن لن تعطل ارميا عن الخدمة فانها كذلك لن تعطلهم.

على ان الأمر الوحيد الذى ينبغى ان تتأكد منه هو ان الله قد دعاك حقيقة للخدمة. وهذا يمكن التأكيد منه بعد

تأمل دقيق جدا. فان النفس أولا تحس بشعور قوى داخلى وهذا لا يتوفر غالبا الا فى أقدس الساعات، على أنه ليس بعيدا فطالما فاض فى النفس بقوته.

والعلامة الاخرى هى ان النفس تجد سلسلة من الحوادث قد رتبتها العناية الالهية تتبين بها ان كل الابواب قد أغلقت الا الباب الذى يؤدى الى الخدمة.

وهنالك علامة ثالثة هى توفر الاستعداد الطبيعى، اتحاد الرأى بين الاصدقاء والمشيرين، توالى صوت الروح القدس بواسطة الكلمة.

(٢) وكان بطبيعته جبانا ومرهف الاحساس. كان بطبيعته رقيق الاحساس جدا كأنه قد صيغ فى قالب خاص لا يؤهله للنضال ضد مخاطر وصعوبات جيله. انه يذكرنا باحدى قواقع البحار التى تعودت أن تعيش داخل أصدافها ولكنها القى بها فجأة بين الصخور المدببة بعد أن نزعت عنها هذه الأهداف. كانت شكواه المرة التى انسابت من بين شفتيه فيما بعد هى أن أمه قد ولدته فى عالم ملئ بالنزاع والخصام (ص ١٥ : ١٠). ولقد كان فى وعد الرب له بأن يجعله "مدينة حصينة، وعمود حديد وأسوار نحاس على كل الارض" اشارة الى طبيعته الجبانة.

كثيرون هم الذين لهم هذه الطبيعة. لهم عواطف النساء

واعصاب الغزال. يفضلون النسيم العليل على العواطف القوية التى هى المحك لقوة احتمال الانسان. يكفيهم ان يركضوا مع المشاة، دون أن تكون لهم رغبة فى مباراة الخيل. يحبون أرض السلام التى يسكنون فيها أمنين، ولا يجسرون على اجتياز كبرياء الأردن (ص ١٢ : ٥).

ورغم كل ذلك فان أمثال هؤلاء يستطيعون ـ كأرميا ـ ان يمثلوا دور البطولة على مسرح العالم لو أنهم سمحوا لله ان يبدل ضعفهم الطبيعى بقوته الحديدية. ان قوته لا تكمل الا فى الضعف. ولعديم القوة يكثر شدة.

سعيدة هى تلك النفس التى وهى تحس بعجزها التام تستطيع ان ترفع أبصارها الى الاعالى وتقول مع ارميا "يارب عزى وحصنى وملجأى فى يوم الضيق" (ار ١٦ : ١٩) أو مع ميخا الذى قال قبل ذلك بوقت طويل "أنا ملآن قوة روح الرب وحقا وباسا لأخبر يعقوب بذنبه واسرائيل بخطيته" (مى ٣ : ٨).

(٣) وأحجم عن النير الذى دعى لتحمله. كان يفضل ان تكون رسالته رسالة الرحمة، رحمة الله التى لاحد لها،

رحمته فى عطفها واشفاقها ورقتها. فى الاصحاحات الاولى، حيث يحث الشعب على العودة الى الله، نجد عذوبة فى صوته ورقة فى كلماته، الأمر الذى يبين اتجاه قلبه. وحينما نتأمل فى اشاراته للمناظر الطبيعية نتبين ان أعذبها يشير الى محبة الله للخطاة التائبين. فانه يتحدث عن رحمة الله "كينبوع المياه الحية" بعكس المياه الآسنة التى تحتويها الآبار المشققة (ص٢ : ١٣) او كأمواج المحيط يحجزها شاطئ الرمال الناعمة، انها كمحبة الزوج المتدفقة التى لن تستطيع ان تنسى يوم خطبة زوجته أثناء عدم أمانتها ص ٢ : ٢.

اما ان تعهد اليه رسالة الدينونة، ويعلن يوم البلية، ويواجه كل واحد من أهله وأقربائه، الانبياء والكهنة، بخطيته التى تدنس بها، الامر الذى سبب غضبهم عليه، فهذه هى المهمة التى ما كان يود اختيارها مطلقا "اما أنا فلم أعتزل عن ان أكون راعيا وراءك، ولا اشتهيت يوم البلية، انت عرفت" (ص ١٧ : ١٦).

(٤) **وكان واثقا من عجزه عن الكلام**. كان لسان حاله يصرخ مع موسى "أيها السيد لست أنا صاحب كلام منذ أمس ولا اول من أمس ولا من حين كلمت عبدك بل

انا ثقيل الفم واللسان"، أو مع اشعياء "ويل لى انى هلكت لانى انسان نجس الشفتين وأنا ساكن بين شعب نجس الشفتين لان عينى قد رأتا الملك رب الجنود"، او مع الرسول بولس يؤكد كلامى وكرازتى لم يكونا بكلام الحكمة الانسانية المقنع" بل ببرهان. الروح والقوة" ١كو ٢ : ٤.

"فقلت آه يا سيد الرب لانى لا أعرف ان أتكلم لانى ولد". (ص ١ : ٦).

ان أقوى المتكلمين فى الشئون الروحية هم فى أغلب الاحيان أقل الاشخاص فصاحة. لانه ان توفرت الفصاحة أى القوة التى تؤثر على عقول الآخرين، كان هنالك خطر شديد اذ يتكل الخادم عليها، ويعزو كل النتائج لقوتها السحرية. الله لا يمكن ان يعطى مجده لآخر (اش ٤٢ : ٨)، ولا يشرك الانسان فى سبحه، ولا يسمح بأن يعرض خدامه لتجربة الوثوق فى حكمتهم أو الاتكال على قدرتهم ينبغى ان تكون كل الاشياء منه، وبه، وله، لكى يكون له المجد الى الابد.

اذن فلا تيأس بسبب ما يبدو فى حياتك من نقائص.

فانها لن تحول دون أن تسمع صوت الله. بالرغم من وجودها فان كلمة الرب لابد ان تأتيك، ليس لاجل خاطرك فقط بل أيضا لاجل الذين يرسلك الله اليهم وكل ما يطلبه الله منك هو تكريس حياتك لخدمته تكريسا كاملا، والاستعداد للقيام بأية مهمة يرسلك اليها. ان توفر ذلك لديك أعطيت كل شئ آخر. فانه يسكن خوفك "لا تخف"، ويؤكد لك رفقته "أنا معك لأنقذك" (ص ١ : ٨) ويعدك بما تحتاج اليه "لا تخف من وجوههم لانى أنا معك لانقذك يقول الرب. ومد الرب يده ولمس فمى وقال الرب لى "ها قد جعلت كلامى فى فمك" (ع٨ و ٩).

لا ندرى على وجه التحقيق كيف كانت كلمة الرب الى ارميا هل بصوت مسموع كما كان الحال مع صموئيل؟ أو فى مخدع نفسه الداخلى؟ على أنها حينما أتته عرفها. وحينما تاتينا نحن أيضا نعرفها.

من لنا بأذن مطهرة وقلب مخلص مطيع!!

* * *

- ٢ -

«صـــورتـــك»

(ار١ : ٥) (١)

لم أولد موهوبا ولا بطلا بل كنت اتجنب

كل ما يميزنى عن سائر البشر

كنت أتمنى ان أعيش كما يعيشون

وان أموت كما يموتون

زائغا بين صفوفهم

لكى اتفادى الدعوة العليا التى اتتنى

(براوننج)

لله خطة مرسومة لكل واحد من أولاده من تحت أقدام الصليب، حيث ولدنا الولادة الجديدة، الى حافة النهر حيث نلقى السلاح، يوجد طريق أعده لكى نسلك فيه. وكل طرقه، الوعرة والسهلة، كل صعود فوق مرتفع الجبال،

(١) "قبلما صورتك فى البطن عرفتك. وقبلما خرجت من الرحم قدستك. جعلتك نبيا للشعوب".

ونزول الى وادى ظل الموت ـ هذه كلها قد رسمتها حكمته المنقطعة النظير، ومحبته التى لن تخطئ قط. لقد أعد أمامنا الطريق، وليس علينا الا ان نسلك فيه.

ومن الناحية الأخرى فان الله يعدنا للطريق الذى اختاره لنا " نحن عمله، مخلوقين لأعمال صالحه قد سبق الله فأعدها لكى نسلك فيها" (أف ٢ : ١٠) لا يوجد اى طارئ فى الطريق لم يعد له الله فى طبيعتنا ما يكفى لمواجهته، ولا توجد أية موهبة فى طبيعتنا دون أن تؤدى مهمتها الجديرة بها ان آجلا أو عاجلا. من بدء الخليقة كانت لله خطة لحياة ارميا أعده لها. ومنذ تكوينه فى البطن امتدت يد البارئ من السماء لتصوغ تلك العجينة المرنة فى القالب الذى يحقق الغرض الاسمى الذى كان امامه. لاحظ العلاقة بين التعبيرين «**قدستك** .. **جعلتك** (عينتك) نبيا للشعوب" ثم «**صورتك**» ان دائما يصور (أو يصوغ) كل من يقدسهم أو يعينهم لأى عمل عظيم.

سل نفسك : ما هو عملك فى العالم؟ ما هو عملك الذى ولدت لأجله، الذى عينت له، الذى كان فى فكر الله حينما صورك؟ أما ان الله له قصد معين فى حياتك فهذا مما

لا شك فيه. أطلب منه ان يسمح لك بادراكه. ولا تشك مطلقا فى أنك قد وهبت كل المؤهلات الخاصة التى يتطلبها ذلك القصد الالهى. فان الله قد صورك لأجل هذه الغاية واختزن فيك كل ما سبق أن رآه لازما لقيامك بالخدمة كل أيام حياتك.

وأنت بدورك ينبغى ان تبذل كل ما فى وسعك لاستخدام الوزنتين اللتين أعطيتا لك أحسن استخدام، ولانمائهما الى أقصى حد. وحينما ترى جارك قد أعطى خمس وزنات فلا تحسده. فأن هذه الثلاث وزنات الاضافية ليست لازمة للمهمة التى قصدك الله أن تتمها. ويكفيك ان تحقق القصد الالهى الذى من أجله خلقت، وأفتديت، ودعيت للخدمة مهما كان نوعها. لا تسمح للغيرة أو الحسد او الطمع بأن تتسلل الى قلبك، بل اقنع بما سمح لك الله به، واحرص على الدوام بأن تتمم خدمتك على أحسن وجه.

١ ـ القصد الالهى

"عرفتك . قدستك . جعلتك نبيا". فى ذلك الجيل الشرير احتاج محب النفوس الاعظم الى من يتحدث على فمه، فصدر الامر الالهى بتحديد ظروف ميلاد ارميا وأخلاقة

وحياته. لا نستطيع أن ندرك كيف يمكن ان يتفق هذا مع حرية ارادة النبى الشاب وحرية اختياره. نحن لا نستطيع ان نرى الا عصوى التابوت العظيم، أما التابوت نفسه فلا نستطيع رؤيته، طالما كان ضباب الزمن يحجبه، وطالما كانت ابصارنا البشرية ضعيفة البصر، ومحدودة النظر. يحاول البعض تفسير هذا اللغز بافتراض سبق المعرفة، مقتبسين هذه الآية "الذين سبق فعرفهم سبق فعينهم". على ان هذه لا تزيد اللغز الا أبهاما.

من الحكمة أن يدرك المرء ـ ان أمكن ـ فى حداثة السن اتجاه القصد الالهى. وهنالك أربعة اعتبارات تعيننا فى هذه الناحية :ـ

(أولا) اتجاه ميولنا الطبيعية واستعداداتنا لان هذه ان مسها روح الله تصبح وزنات أو مواهب.

(ثانيا) الدافع القوى فى قلوبنا، او عمل الروح القدس فينا ان نريد وان نعمل من أجل المسرة.

(ثالثا) ماذا تعلمنا اياه كلمة الله.

(رابعا) ماذا تقتضيه الظروف المحيطة ومطالب الحياة.

اذا ما اتحدث هذه كلها وتركزت فى نقطة واحدة فلا سبيل الى الشك فى القصد الالهى والخطة الالهية. هكذا كشف الله لصموئيل وارميا، وشاول الطرسوسى، المستقبل الذى عينهم له. وكم هو جميل جدا حينما تكون الرؤيا السماوية هى التى توجه كل مجرى الحياة، وتصوغ طبيعتها منذ الحداثة الى سن الرجولة الكامل...

ولكن فى الحالات التى لا يكشف فيها عن القصد الالهى بوضوح والتى فيها يقتضى الأمر حتما ان تقضى الحياة خطوة فخطوة، والتى فيها تتجمع القطع الرخامية اللازمة للأرضية الرائعة الجمال، وتكدس فوق بعضها دون ان نتبين شكلها الذى سوف تبدو فيه، فينبغى ان نؤمن أيضا بأن لله قصدا فى حياة كل واحد منا، وأننا متى كنا أمناء لمثلنا العليا فاننا يقينا نتمم الانموذج الالهى من حياتنا، وسوف يسمح لنا يوما ما ان نراه مكشوفا، ونتبين جماله الرائع. لعل أسمى هدف لاى واحد منا هو ان يحقق تلك الكلمات التى وجهها الله لارميا "الى كل من أرسلك اليه تذهب وتتكلم بكل ما آمرك به".

ان أسرار البركة والحياة المنتجة المثمرة هى ان نركض لاتمام رسالة الله، ان نكون كالملائكة المتزايدين قوة، والذين

يتممون أوامره، ويصغون الى صوت كلمته، ان نكون كالأولاد الذين على أهبة الاستعداد لاتمام أية رسالة يكلفون بها، ان ندرك بأن رسالته قد أعطيت لنا يقينا، ان نستمر فى اشغال المركز الذى وضعتنا فيه العناية الالهية، ونظل أمناء فيه لله حتى يأمرنا بغيره.

٢ ـ العوامل التى أثرت فى حياته

من الضرورى جدا أن ندرس تلك العوامل التى أثرت فى حياة ارميا وكونت صفاته. كان ضمن تلك العوامل صفات وطباع أمه، ووظيفة أبيه الكهنوتية، والجمال المنقطع النظير الذى اتشحت به مدينة مولده عناثوث، الواقعة على الطريق الرئيسى على بعد ثلاثة أميال شمال أورشليم، والتى تحيط بها جبال بنيامين الشهيرة، وتطل على مياه البحر الميت الزرقاء، وعلى سفح جبال موآب الارجوانية.

ثم كان قرب اقامته من المدينة المقدسة، الامر الذى جعل فى ميسوره وهو غلام ان يحضر جميع المواسم المقدسة ويتلقى أسمى التعاليم.

ثم كانت فرصة الاختلاط بالعائلات الطيبة (كعائلة شافان وعائلة معسيا) التى، ولو كانت قد انقرض رؤساؤها،

الا ان أبناءهم حفظوا ديانة آبائهم، واستبقوا آثار أسعد الايام وأقدسها من مزامير وتاريخ وثقافة.

كان عمه شلوم زوجا للنبية الشهيرة التقية خلدة، وكان ابنهما حنمئيل، وكذا باروخ حفيد معسيا من أصدق أصدقاء ارميا، ولعل تلك الصداقة بدأت منذ الحداثة.

وكان هنالك عامل آخر هو وجود ناحوم وصفنيا اللذين كانا كنجمين متلألئين فى ذلك الظلام الحالك، واللذين كان ارميا يتأهب للانضمام اليهما.

لقد كان قلبه حساسا جدا لكل المؤثرات التى كانت تعمل فيه منذ فجر حياته. كان حديثه مليئا بالاشارات الى الرموز الطبيعية، وعادات أهل البلاد، والحياة البشرية اليومية، ولكتابات العهد القديم السابقة. خذ مثلا عظته الاولى التى يشير فيها الى رواية الخروج، والى نصائح سفر التثنية، والى زئير الاسد الصغير، والى عادات أتان الفرأ (٢ : ٢٤) والى الجمل يسلك طريقه، والى الاعرابى فى البرية، الى غدير المياه، والى حفر الآبار. ان نفسه الحساسة المرهفة استوعبت كل العوامل المؤثرة التى فى مظاهر الحياة المختلفة المحيطة به، ثم قدمها الينا فى أقواله. كانت هنالك عدة مؤثرات تعمل

فى عقله، عدة زهور تجمع روائحها العطرية وتكدسها فى قلبه، عدة أوتار تردد موسيقى أحاديثه العذبة.

بنفس هذه الطريقة يعمل الله دواما فى تكييف حياتنا وصوغها. كلما دعيت لتجوز اختبارا أليما غير عادى فعز نفسك بهذا الفكر ان الله بهذا الضيق الذى تجوزه يعدك لغرض سام لم يعلن لك بعد، ولكنه يستلزم هذه الآلام التى سمح بها الله لهذه الغاية، وحينما تراجع حياتك الماضية سوف تدرك كيف ان كل شئ قد سمح به الله ليعدك لاتمام خدمة للآخرين ما كان يمكن أن نتممها على الوجه الأكمل لو أنك اعفيت من الدموع والمتاعب والضيقات ولو يوما واحدا. ان الله يرتب كل دقائق الحياة بحسب الخطة الموضوعة أمامه. وهذه الخطة هى التى تفسر لنا الكثير من المتاعب التى تبدو أمامنا غريبة، فتشجع، وتقو، وثق. ان كان الله يسمح لك بالضيق فلابد أن يعوضك عنه. اذ هو أمين لا يمكن ان ينسى.

فى المناظر الختامية لحياة يوسف نجد تشبيها رائعا يوضح لنا هذه الحقيقة. فانه اذ كان يتحدث عن الجب وعن الآلام التى أدى اليها الجب يقول "أنتم قصدتم لى شرا والله قصد

به خيرا" (تك ٥٠ : ٢٠). لأنه اذ وقف على رابية السنين استطاع أن يقرأ قصد الله فى تلك التصرفات الغريبة الأليمة، ولو أنه كان قد طلب اليه ان يدلى برأيه عن قصد الله فى المحن والآلام التى اجتازها فى الأيام الغابرة، والتى كانت تختبئ وراء ظلمة السنين القادمة لأجاب على الفور : لقد كان يصورنى المستقبل الذى ينتظرنى، يعدنى لما اعده لى. يدربنى ويثقفنى للمركز الذى ينتظرنى، ولم يكن ممكنا الاستغناء عن أى حادث فردى فى كل تلك السنوات المتعبة الماضية الا بتضحية خطيرة فى موقفى الحالى.

٣ ـ ثم كان هنالك اعداد خاص للخدمة وتأكيد خاص.

"ومد الرب يده ولمس فمى وقال الرب لى ها قد جعلت كلامى فى فمك". هكذا أيضا لمست السرافيم شفتى اشعياء منذ بضع سنوات. وذلك يذكرنا بوعد الرب يسوع المسيح بأن الروح القدس يضع الكلمات المناسبة فى أفواه تلاميذه اذا دعو للوقوف أمام محاكم الأعداء. ان الكلام هو موهبة الله الخاصة. هو موهبة الكنيسة يوم الخمسين، ان الدليل دواما على امتلاء الانسان بالروح القدس هو ان يبتدئ بالكلام كما يعطيه الروح ان ينطق.

والله لن يطلب منا الذهاب الى أية مهمة (ص ١ : ٧) دون ان يخبرنا ماذا نقول. ان كنا نعيش فى شركة كاملة معه فانه يملأ عقولنا وقلوبنا برسالته. ويخصب حياتنا بالكلمات المناسبة التى بها ننقل لاخوتنا هذه الرسالة.

هل يوجد بين قارئ هذه الكلمات من يشكو كموسى من عدم توفر هذه الموهبة الذهبية لديه، ويحس بأن كلماته عقيمة ميتة؟ ليقدم شفتيه لتتكلما لا بكلمات الحكمة البشرية، ولا بالفصاحة العالمية، بل ببرهان الروح القدس والقوة وعندئذ لا يمكن ان يرد طلبه. ان كان مجد الله هو غايتنا الوحيدة فان يد الله لابد ان تمتد لتلمس أفواهنا وتضع كلامه فيها.

ثم أعطى له تأكيدين آخرين (الاول) "الى كل من أرسلك اليه تذهب" وهذا يحدد اتجاه كلمات النبى (الثانى) "لاتخف من وجوههم لأنى أنا معك لانقذك يقول الرب" وهذا التأكيد تم بشكل عجيب كما سنرى عند توضيح هذه الكلمات.

هذه كلمات رائعة يتحدث بها الله الينا أجمعين حينما يرسلنا الى العالم فى أية مهمة أو رسالة قد تكون المهمة

خطيرة النتائج، او فى غاية البساطة قد تكون لسيادة مملكة مترامية الاطراف، أو لأعالة رضيع، قد يدعى المرء لكى يكون زعيما روحيا عظيما او لرعاية بضعة أغنام فى البرية ولكن لندرك بأننا انما قد أرسلنا لكى نتعلم، ولكى نتألم، ولكى نتمم، قد أرسلنا فى مهمة معينة كما أرسل يوسف من خيمة يعقوب. ويا للتعزيات والمشجعات التى نجدها فى كلمات المسيح التى يؤكد فيها بين الآنة والأخرى أنه قد أرسل من الآب لاتمام مهمة معينة، لكى يتألم. ولكى يتمم.

ولنثق بأننا طالما كنا فى الطريق المعد، متممين رسالتنا المعينة، فأن الله معنا. وعندئذ نستطيع ان نتحدى الموت، وتكون حياتنا محصنة بدرع لا تنفذ منه أقوى السهام، ويعظم انتصارنا بالذى أحبنا، وتبتهج قلوبنا بموسيقى صوته العذب، ولو كانت المذمات والمخاوف من كل جانب (ص ٢٠ : ١٠) قد يحاربنا البشر، ولكنهم لم يقدروا علينا، لان رب الجنود معنا، اله يعقوب ملجأنا (ص ١ : ١٩).

٤ ـ وأخيرا تعطف الرب ومنح ابنه أن يرى رؤيا مزدوجة:

فمن الناحية الاولى ان كانت شجرة اللوز قد أزهرت

سريعا فقد أكد له ذلك بان الله لابد أن يسهر على عبده، ويتمم سريعا كل نبواته. ومن الناحية الاخرى كانت القدر المنفوخة المتجهة الى الشمال تدل على انه "من الشمال ينفتح الشر على كل سكان الارض" هكذا يتذبذب رقاص ساعة الحياة دواما. الآن الى النور ثم الى الظلام.

سعيد هو المرء الذى يبقى قلبه ثابتا، واثقا فى الرب، فانه يظل محصنا فى مظلة القدير من مخاصمة الألسن ويسكن فى ستر العلى. قد يحاربه البشر، ولكنهم لا يقدرون عليه، لأنه محاط بعناية القدير، ويرى نفسه آمنا كاسرائيل حينما يتوسط السحاب بينهم وبين فرعون.

وكما تحدث الله الى ارميا هكذا يتحدث الينا نحن أيضا "فيحاربونك ولا يقدرون عليك لأنى أنا معك يقول الرب لانقذك" (ص ١ : ١٩) والى ان تنتهى مهمتنا فى الحياة فلن تدنو ضربة من خيمتنا.

هنالك فترة فى حياة ارميا يبدو انه انحرف فيها عن طريق الطاعة الكاملة (ص ١٥ : ١٩) وتلكأ فى السلوك فى الطريق الذى أعلنه له الله.

لأنه اذ أحيط بالمنازعات والخصومات، ولعن كأنه يقرض فضته بالربا وعير وهدد بالموت، خارت قواه وأشرف على هوة سحيقة. وخشى أن تكون العناية قد تخلت عنه.

نحن لا يمكن أن نكون فى أمان الا عندما نكون متممين مقاصد الله. ولكن حينما عاد الى ولائه التام، وطاعته الكاملة، تجددت له هذه المواعيد الثمينة، ورنت فى أذنه مرة أخرى "ان رجعت أرجعك فتقف أمامى واذا أخرجت الثمين من المرذول فمثل فمى تكون ... وأجعلك لهذا الشعب سور نحاس حصينا فيحاربونك ولا يقدرون عليك لانى معك لأخلصك أنقذك يقول الرب. فأنقذك من يد الاشرار وأفديك من كف العتاة، (ص ١٥ : ١٩ – ٢١).

ربما تكون أيها القارئ الكريم قد تراجعت الى الوراء أمام عاصفة من الاضطهاد او المقاومة. لكن ارجع الى مركزك والى عملك، جدد عهودك، أخرج الثمين من المرذول، فتجد ان البركة الاولى قد فاضت فى نفسك. وان الرب قد أرجعك لتقف امامه وتكون مثل فمه.

هكذا كان الحال مع بطرس يوم الخمسين.

* * *

– ٣ –

«حفر الآبار»

(ار٢ : ١٣) (١)

عبثا تحاول ان تشبع النفس البشرية

بالمسرات العالمية أو الأمور الارضية

فان شبعها وراحتها فى خالق البرية

فى البر والحق والمحبة السماوية

كل محاولة كهذه غير مجدية

كمن يحاول ان يزيد المحيط بقطرة ماء

أو يزيد الابدية بدقائق معدودات

(بولوك)

لعله لم تمض سوى فترة قصيرة جدا بين دعوة ارميا وبدء خدمته المقدسة. حينما يختار روح الله نفسا لكى ينطق

---

(١) "لأن شعبى عمل شرين. تركونى انا ينبوع المياه الحية لينقروا لأنفسهم آبارا آبارا مشققة لا تضبط ماء".

على لسانها فانه يتخذ الوسيلة اللازمة لاتمام ذلك بمنتهى السرعة. ان الصعوبة هى فى وضع أسلاك البرق فى أعماق المحيط ولكنها متى وضعت سرت الرسائل كوميض البرق. هكذا يخبرنا الوحى ان هذا الشاب المتقد غيرة قد "صارت اليه كلمة الرب" (ص ٢ : ١). واذ وصلت اليه سرت فى نفسه هزة عنيفة.

انه لم يبال كثيرا بالصراع العنيف المحتم الذى أنبأه به الله، ولم يحاول أن يدرك مدى الاضطهاد الذى سوف يلقاه. لقد قيل له ان الملوك والرؤساء، الكهنة والشعب، سوف يحاربونه. ولكنه بايمانه الحديث كان تفكيره ـ لأول وهلة ـ فى رفقة الله الذى وعد بأن يجعله "مدينة حصينة، وعمود حديد، وأسوار نحاس على كل الأرض" أكثر من تفكيره فى تلك المتاعب.

تأمل كيف يكشف الله لنا النقاب عن المستقبل بكل رقة. ويقودنا خطوة فخطوة. هنالك فرق بين رجاء الشباب الواسع المدى وبين اختبار الرجولة، فالاصحاحات الأولى من سفر ارميا تختلف كل الاختلاف عن مراثيه، كما يختلف الربيع بنضارته عن الخريف بأوراقة الذابلة.

حينما نتأمل فى أقوال أعمال هذا النبى، الذى كان أقرب الينا نحن عامة البشر، لنتجاوز عن صرخاته الأسيفة ودموعه وصلواته، ونتأمل فى الرب يسوع المسيح، ابن الانسان، الذى انطبعت مقدما روحه الرقيقة فى عبده ارميا، وانعكست فى حياته. ان الله فى كل جيل يعمل عن طريق عبيده لمحاربة الخطية بكل صورها، وساعيا لنشر ملكوته، ملكوت البر والسلام والفرح. فى كلمات ارميا نجد توسلات الله القوية واحتجاجاته الشديدة. فى صلوات ارميا نستمع الى أنات وشفاعات الروح القدس التى لا ينطق بها، فى صراع ارميا وجهاده نتلمس خصومة الله للحم والدم وولاة العالم على ظلمة هذا الدهر. فى مراثى ارميا نشهد حزن الله على عناد البشر كان أمام ارميا (الذى كان كاهنا ونبيا لأورشليم التى بناها داود وسليمان) طريق يسلكه لكى يقدم الينا ـ فى مرآة حياته الغامضة ـ صورة عن صليب وأحزان الكاهن والنبى الحقيقى لأورشليم المفدية..

٢ ـ مسئولية النبى المزدوجة التى تثقلت بها نفسه :

حينما بدأ ارميا خدمته، وغادر عناثوث الى أورشيلم لهذه الغاية (ص ٢ : ٢)، كان يوشيا فى الحادية والعشرين من عمره، وكان قد قضى ثلاث عشرة سنة فى الحكم.

كان الملك قد بدأ تلك الاصلاحات التى وان نجحت فى تأجيل خراب المدينة والأمة، الا أنها لم تنجح فى رد ذلك القصاص. كانت جهوده العنيفة متجهة الى ابادة كل أثر للعبادة الوثنية من بين الشعب "وهدموا أمامه مذابح البعليم وتماثيل الشمس التى عليها من فوق قطعها وكسر السوارى والتماثيل والمسبوكات ودقها ورشها على قبور الذين ذبحوا لها. وأحرق عظام الكهنة على مذابحهم وطهر يهوذا وأورشليم" (٢ أى ٣٤ : ٤ و ٥) ...

لابد انه كان هنالك نعيق شديد جدا بين تلك الغربان التى كانت تعشعش منذ سنوات طويلة فى تلك الاشجار التى قطعت. فان العبادة الوثنية كانت قد ظلت نحو سبعين عاما تسود البلاد بارجاسها ونجاساتها.

وقد كانت التصرفات الماجنة والطقوس المشينة التى أباحت الرذيلة كجزء من الديانة، كانت هذه تتفق مع ذوق الشعب المعكوس. ولا شك فى ان يوشيا فى أوائل حكمه قد قوبل بالسخط الشديد والبغض والحنق من الكهنة ومن الرعية.

فكانت النتيجة (أولا) ان الاصلاح أصبح سطحيا جدا

ولم يؤثر فى الحياة الداخلية. (ثانيا) أن سياسة الاصلاح هذه أدت الى تكوين حزب سياسى اعتزم تقوية علاقات التحالف مع مصر، التى كانت قد جاهدت تحت قيادة ابسمانيك حتى أفلتت من حماية ملك اشور ونالت استقلالها حين ذاك. ازاء هاتين النتيجتين دعى هذا النبى الشاب لكى يبذل جهودا جبارة.

(أولا) انه احتج ضد الخطية السائدة حوله.

كانت فكرة الشعب الوحيدة هى ان يحتفظ بالاعتراف الظاهرى بالرب، باستبقاء خدمات الهيكل طقوسه المخلفة. وتوهموا بأنهم طالما كانوا محتفظين بها بكل دقة فلا داعى لاتهامهم بخطية الارتداد. لقد كانوا يصرون بأنهم لم يتنجسوا (ص ٢ : ٢٣)، وكانوا يرددون دواما هذا القول بشكل ممل "هيكل الرب هيكل الرب هيكل الرب هو" (ص ٧:٤)..

كانت مهمة ارميا أن يبين بأن مجرد المظاهر الدينية الخارجية لا تقتصر على انها عديمة الجدوى بل هى شر عظيم، وتؤدى الى الابتعاد عن الله. فما مثلها الا مثل تورد الوجنتين فى حالة التدرن الرئوى، لأنها تخفى تحتها سوس الفساد ينخر الجسم كله حتى يصل الى القلب. ومثل الزهور

على حافة الهاوية تخفى تحتها الهوة السحيقة. ان الارتكان على مجرد مظاهر العبادة الخارجية يتفق مع أشر انواع العبادة الوثنية لان القلب يتذرع بالتقوى لصد كل سعى لاصلاحه.

هذا يفسر لنا الكلمات الصريحة النارية التى بها يهاجم النبى الشاب الخطية بكل قوة وغيرة. وفى كلماته اللاذعة لا يستثنى الكهنة أو مفسرى الشريعة، ولا الرعاة والأنبياء (ص ٢ : ٨)، ويذكر وادى هنوم بممارساته الكريهة الوحشية دليلا على تماديهم فى الشر (ع٢٣). ويبين كيف ان دماء الاطفال الأبرياء الذين كان يطوح بهم فى النيران قد لوثت ثيابهم (ع٣٤)، وان الاشجار تنطق بما ارتكبوه من نجاسات تحت ظلالها، والصخور تخبر بما لا يستطيعون اخفاءه (٢ : ٢ ، ٣ : ٦). وقد استخدم النبى كل تشبيه واستعارة ممكنة ليبين للشعب خيانتهم لله محبهم وفاديهم (٣ : ٢٠).

(ثانيا) واحتج أيضا ضد الشروع فى عقد محالفة مع مصر :

كانت تقع مملكة كنعان الصغيرة بين الامبراطوريتين المتنافستين المتراميتى الأطراف، اللتين قامتا على ضفاف النيل والفرات، كما تقع سويسرا بين فرنسا والنمسا. لذلك

كانت دواما معرضة لمرور الجيوش الجرارة المغيرة، كالجراد فى كثرتها وفى التهامها لكل شئ، كما كانت معرضة لأغارة أحدى الجارتين.

وكانت سياسة أحد الأحزاب القوية فى البلاط الملكى فى أورشليم على الدوام ان تنشأ محالفة مع مصر او مع أشور. كان الميل نحو أشور ايام حزقيا ومنسى. وفى الوقت الذى نتحدث عنه كان متجها نحو مصر التى تحررت من النير الذى حاول آسر حدون (ملك أشور) فى ثلاث غارات ان يذلها به.

وقد قاوم ارميا هذه المحاولات بكل قوة. لأنه لماذا يرتبط شعبه بنصيب أية أمة وثنية مهما كانت؟ ألم يكن الله ملكهم؟ ألا يكفيهم ان يكون الرب معينهم فى أوقات الشدة؟ يقينا ان سياستهم السليمة كانت ان يقفوا وحدهم، دون التقيد بمحالفات أجنبية، معتمدين فقط على قوة القدير، وخدمة مصالحة، والولاء لناموسه، والتسليم التام لأرادته. "والآن ما لك وطريق مصر لشرب مياه شيجور (أى النيل الاسود او المكدر) وما لك وطريق أور لشرب مياه النهر" (ص٢ : ١٨ و ٣٦ و ٣٧).

اذن فقد كانت هذه هى مهمة ارميا ـ ان يقف وحيدا، وان يحتج ضد خطايا شعبه التى كانت تستتر وراء افتخارهم بعبادة الرب الذى كانوا يعبدونه كحارس لبلادهم مع الالهة الكاذبة الكثيرة وان يقاوم سياسة العرش التى كانت ترمى الى ايجاد علاقات ودية مع القوة التى يبدو انها تستطيع ان تقدم المعونة لبلاده فى الصراع العنيف مع مملكة الشمال التى كانت على وشك الاغارة عليها (ص ١ : ١٥).

وقد قام ارميا بهذه المهمة أمام مقاومات عنيفة جدا. هنا نرى كاهنا يفضح خطايا الكهنة، ونبياً يشهر بأكاذيب الانبياء. لم يكن امرا هينا ان يشهر بابأطيل الانبياء والكهنة ويتهمهم بشفاء جرح بنت شعبه على عثم قائلين "سلام سلام" حيث لا أثر للسلام، لذلك لا نعجب ان وجدنا أقوى الأحزاب فى الدولة قد تآمرت ضده، كما اتفق بيلاطس وهيرودس فيما بعد ضد المسيح.

(٢) التشبيه الذى استخدمه :

هو منظر بين الجبال. فى تلك الغابة الخضراء تتفجر المياه المثلجة من أحد الينابيع، وتسيل الى الوادى كحبل فضى. وانك لتستطيع أن تستمع الى خرير هذه المياه الذى هو أشبه

بالموسيقى، وتتبع أثرها بما يحف بها من روضة خضراء انها دائمة الفيضان بغزارة للطفل الصغير كما للشيخ الهرم، لسكان القرى كما لسكان المدن الكبرى. على ان الشاطئين لا يرتادهما أحد، لا يغترف من المياه الصافية أحد، وأصبح الينبوع مهجورا من الجميع كأنه قد جف.

وعلى مسافة بعيدة من ذلك الوادى الأخضر تستمع الى صوت الفؤوس تعمل فى الارض، وللحال تكتشف ان الناس من كل الاعمار ومن كل الطبقات منشغلين فى حفر آبار لسد حاجياتهم.

ثم تدرك ان العرق يتصبب من جباههم لانهم يكدون بكل قوتهم فى الحفر فى الصخر الصلد من الفجر الى الليل البهيم. لا يريدون الانتفاع بأدوات العصور السالفة، ولا بالآبار التى تركها آباؤهم بعد حفرها الى نصفها. فكل له طريقته وكل له غرضه. انظر الى ذلك الرجل الذى يعمل فى الربيع حينما يكتسى وجه الارض بحلة سندسية خضراء، كما يعمل فى قيظ الصيف حينما تكون فى الصخور كأفران ملتهبة.. واذ يكون الآخرون منشغلين فى قطف العنب او حصاد الحنطة يظل هو ملازما عمله فى زمهرير

الشتاء مهما كلفه من نصب.. وبعد أن يكد فى عمله سنوات قد يدرك غرضه، ويتمم حفر البئر التى عمل فيها طويلا. فيدعو جيرانه ليشهدوا عمله الذى قد أكمل وينتظر هطول الامطار. وللحال تتصبب فيمتلئ قلبه عجبا وزهوا وسرورا من أجل المياه الغزيرة التى استطاع ان يختزنها. ولكنه للأسف يدرك فورا بأن المياه ليس لها أثر. لأنها حالما تنزل البئر تتسرب منها فان فى قاعها ثلمة تتسرب منها المياه فورا أو لعل المسام فى بعض الاحجار وفيرة. وأخيرا يجد ما وجده كل جيرانه، او ما سوف يجدونه ان الآبار لن "تضبط ماء" مهما اتخذ من حيطة.

ياله من خطأ واضح وجهل فاضح ان يترك الينبوع الذى يفيض مجانا بوفرة وغزارة ليروى العطشان، وتحفر الآبار المشققة التى فيها الخيبة والفشل واليأس. على ان هذه كانت هى الحال تماما مع اسرائيل كما يقول النبى. فانهم فعلوا ما لم تفعله أمة أخرى من أقصى الغرب فى كتيم الى أقصى الشرق فى قيدار. لان الأمم الوثنية على الأقل كانت موالية لألهتها، والديانات الكاذبة ملازمة البلاد التى نشأت فيها. كانوا لا يعبدون الا نفس الاصنام ولا يؤدون الا نفس الشعائر، ولا يصلون الا فى نفس الهياكل، هم وكل

الانسال المتعاقبة. أما شعب الرب فقد تركوه "كما تنسى العذراء زينتها أو العروس مناطقها" (ع٣٢) وبالالتجاء للديانات الكاذبة والعبادات الوثنية قد حفروا لأنفسهم آبارا مشققة تسبب لهم الخزى والفشل وقت الحاجة.

وبكل رقة وعذوبة ينكرهم النبى بالماضى، فان غيرة صباهم ومحبة خطبتهم (ع٢) وقداستهم للرب، والنشيد الذى رفعوه لله لدى نجاتهم على شاطئ البحر الأحمر، هذه كلها تتنافى مع الشرور الجسيمة التى قد جلبت اللعنة والعار على البلاد. وعلى شفتى النبى يسمع صوت الله يسألهم عن سبب هذا الارتداد المخزى. ولدى التأمل فى الاصحاح نجده مليئا بالأسئلة، كأن الله يريد ان يبين لهم علة تركهم أباه "ماذا وجد فى آباؤكم من جور حتى ابتعدوا عنى وساروا وراء الباطل وصاروا باطلا... هل صرت برية لاسرائيل او أرض ظلام دامس؟ لماذا قال شعبى قد شردنا لا نجئ اليك بعد" (ع٥ و ٣١)..

ليس شئ أمر على النفس البشرية من الجفاء بعد المحبة، اذ نضطر للجلوس على الشاطئ لنرقب تناقص تيار المحبة قليلا فقليلا عن أعلى حد وصلته. هذا يأخذ البصر من العينين

ويحد من نشاط الرجلين. وهيهات أن تعود الحياة كما كانت من قبل. قد تعود المحبة مرة أخرى، ولكن هذا لن يزيل أثر تلك الحالة الأليمة السالفة، ولن يلاشى الخوف من أن تعود مرة أخرى. هذه تصور لنا الآلام التى أحس بها القدير اذ رأى اسرائيل يترك الهه، الذى أسدى اليه كل ذلك الخير الجزيل، ويتبع الغرباء. كان أليما حقا أن يسمعهم يقولون "للعود أنت أبى وللحجر أنت ولدتنى" (ع ٢٧). لقد كان ارتدادهم عن الله بمثابة ترك المرأة لرجلها واتباعها رجلا آخر (ص ٣ : ١) ...

(٣) تطبيق هذا على أنفسنا :

قد يقرأ هذه الكلمات كثيرون مع حافرى الآبار، كل له نفسه المتعطشة يتوق الى اروائها، كل يستطيع الاتصال بسهولة بالله الذى فيه كل شبع ورى لكل نفس متعطشة. على أن الجميع يحاولون المستحيل اذ يسعون لأشباع النفس بالابار البشرية فى حين انها تتعطش الى الينابيع الالهية اللانهائية.

من هذه الآبار البشرية يوجد بئر **المسرات العالمية**، وهذا تجده مزينا بالثمار اليانعة والزهور الرائعة، ولكنه لا يحفر الى

على حساب الصحة والراحة والسعادة. **وبئر الثروة**، وهذا مرصع باللآلئ النفيسة. **وبئر الصيت والشهرة**، وهذا يحفره الشاب الذى ينتزع نفسه من بين الأهل والاصحاب ويصعد الى أعالى قمم الجبال الموحشة بعيدا عن كل منافسة، بل بعيدا حتى عن رفقة البشر. **وبئر المحبة البشرية** التى مهما كانت جميلة لأنها قبس من نور المحبة الالهية فانها لن تشبع النفس ان كانت تعتمد عليها وحدها. كل هذه الآبار، التى تكلف ثمنا غاليا جدا، سواء من جهة الوقت أو الجهود التى تبذل فى حفرها، لا يمكن الا ان تسبب الخزى والفشل، وتضل صاحبها كالسراب : يعبر عنها ارميا بأنها "آبار مشققة لا تضبط ماء"، وفى وقت الشدة لن تستطيع أن تخلص الذين حفروها ووثقوا فيها.

أيها المسكين، يامن أنهكت قواك فى حفر الآبار، تطلع تحت قدميك تجد ينبوع محبة الله يفيض بغزارة. ينبغى أن ننزل الى مستوى الينبوع ان أردنا ان تصل مياهه الى شفاهنا التى أحرقها جفاف العطش. لقد طوحت فعلا بآلات الحفر التى استخدمها، وتعبت من الجهود التى بذلتها : استمع الى الموسيقى التى تملأ الجو حولك بنغماتها الملائكية وأصواتها الشجية قائلة لك "أرجع الى الله. اعمل الأعمال الاولى.

أترك كل المخالفات والعبادات الوثنية التى فصلتك عن صديقك الأوحد. افتح قلبك لكى يفيض فيك ينبوع المياه الحية الذى ينبع الى حياة أبدية. الروح والعروس يقولان تعال. ومن يسمع فليقل تعال. ومن يعطش فليأت. ومن يرد فليأخذ ماء حياة مجانا.

* * *

ـ ٤ ـ

«العظة الثانية»

(ارميا ص ٣ ـ ٦)

يقينا ان الوقت مقصر

والمهمة شاقة لاحد لها

لانارة النفس المتعبة واعدادها للأمجاد العلوية

ولكن القدير يضمن لك المحبة

بقدر ما يعطى الأعداء من قوة

(كبل)

لا ندرى كيف قوبلت عظة ارميا الأولى، كان مستحيلا أن تستمع أورشليم الى تلك الاحتجاجات القوية من فم هذا النبى الشاب، الذى احتج بكل شدة ضد سياسة قادتها. وتصرفات كهنتها دون أن تدرك بأنه نزل الى ساحة الجهاد بطل جديد، وقوة جديدة. ومنذ تلك اللحظة أحس الجميع أحساسا شديدا بتأثير قدوته الطاهرة، وكلماته النارية، طول مدة جهاده التى دامت أربعة وأربعين عاما. لقد أشرقت شعاعة رجاء أخرى على تلك البلاد الرجسة المتمردة التى

كان جوها محملا بعلامات تدل على قرب انحلالها وخرابها كان هنالك صوت آخر معد ليذيع الله تهديداته وانذاراته بواسطته.

فى عظته الثانية المدونة فى الاصحاحات ٣ ـ ٦، والتى قد احتفظ بها كعينة من كلماته فى ذلك العصر، نجد قوة مضاعفة ورقة متناهية. ورغم ان الكلمات كانت نارية والسيف حاد فان النغمة عذبة ورقيقة. هنا نجد فى ارميا ـ أكثر من غيرة ـ تشابها كبيرا لروح المسيح، اذ نجده يرثى لعمى الشعب وعناده كلما اقتربت من نفسه رؤية الخراب العاجل الذى سوف يحل بهم نتيجة تمردهم على محبة الله. كان ارميا كحمل وديع يساق الى الذبح كما يتحدث هو عن نفسه (ص ١١ : ١٩) ولكنه كان فى نفس الوقت شديد البأس كالأسد من جهة القوة التى استخدمها محاولا بها ان يرد عن بلاده العزيزة ذلك الخراب الذى كان يتجمع فى الأفق لينشب أظفاره فيها ويلتهمها. لو انه اتيح لنفس طاهرة مخلصة أن تنقذ يهوذا بتوسلاتها ودموعها وانذاراتها لفعل ذلك ارميا.

ولكن كيف السبيل الى هذا وقد استفحل الأمر، وأصبح الداء عضالا والسرطان مستعصيا، والشر الذى غرسه منسى

دنس البلاد لأقصى حد، وعلى أى حال فان هذا لم يتبين تماما فى أوائل خدمة ارميا. لهذا نراه، بآمال الشباب، يظن بأنه يستطيع رد المصيبة عن البلاد. ويقينا لقد كان تحذير السفينة من الصخور الجاثمة فى طريقها، وحسن قيادتها. كافيان لتسييرها فى المياه الهادئة الأمينة رغم كل ذلك.

تتميز هذه العظة برؤيته التى رآها مقدما عن غزو الكلدانيين للبلاد، وبتعبيراته التى تفيض شفقة وألما وحزنا، وبتأكيداته لرحمة الله المخلصة.

١ ـ الرؤيا التى رآها النبى مقدما عن اقتراب الخراب

فى بداية خدمة ارميا كانت البلاد تنعم بفترة راحة وهدوء قصيرة كما رأينا، وكانت هذه الفترة بمثابة وميض من النور على سفح جبل فى يوم معبس وملبد بالغيوم. وقد استقبلتها البلاد بالترحيب والسرور، خلافا للعصور الأليمة السالفة. وكان يبدو أنه من المرجح ان تدوم هذه الحالة. اذ كانت امبراطورية أشور العظيمة قد ضعفت بسبب الانقسامات الداخليةو وكانت بابل قد بدأت تصبح خصما قويا لنينوى، وكان الفرس قد بدأوا ينزحون الى منحدرات جبال طوروس الغربية تحت قيادة ملكهم. أما فى مصر فقد

كان أبسماتيك مشغولا جدا فى طرد الجنود الأشوريين، وتعزيز مملكته، وتأسيس أسرته ليتفرغ للاتصال بجارته الصغيرة.

وهكذا استطاع يوشيا أن يتابع اصلاحاته العظيمة فى جو من الهدوء والسلام. اذ لم يكن هنالك أثر لشبح الحرب فى الأفق. فى احد أيام يوشيا الهادئة هذه (ص ٣ : ٦) أزعج النبى الجديد رجال أورشليم ويهوذا بما أعلنه من القصاص المروع الذى رآه من مرصده.

لقد سمع صوت البوق يدعو الفلاحين من الريف المكشوف للدخول الى المدن المسورة، تاركين محاصيلهم تحت رحمة الغزاة، لينجوا بأنفسهم. ولقد رأى الأسد عن بعد يتسلل من عرينه فى الغابة ليهلك الأمم. وسمع صراخ الحراس من مرتفعات دان فى الشمال الى أفرايم، ثم الى أورشليم، حين أعلنوا وصول الغزاة، ورأى خراب الأرض، وتقهقر المدافعين عن المدينة المقدسة بكل سرعة، والتجاء البعض الى الغابات، والآخرين الى شقوق الصخور. نعم ورأى ابنة صهيون تلهث من شدة الألم صارخة "ويل لى" (ص ٤ : ٣١).

لقد كان متأكدا جدا من الرؤيا جميعها التى أعلنت

اليه، حتى اننا نجده يلتفت الى اخوته البنيامينيين الذين فروا هاربين للالتجاء الى العاصمة، آمرا أياهم ان يهربوا الى ما هو أبعد من ذلك جنوبا. رأى الاستعدادات للحصار، وما يتبعه من ويلات. وصف الغزاة كأمة قوية قديمة يعللون بقية اسرائيل كجفنة كما يجمع الحاصدون بقية العنب فى السلال، ويتحدث عنهم بأنهم قساة، بلا رحمة، كذئاب المساء. جعبتهم قبر، وسيفهم رعب وذعر، وصراخهم يصم الآذان، ومركباتهم لا مثيل لها، وفرسانهم لا يقهرون. ومجرد التحدث عن أعمالهم يكفى ان يبعث فى نفس السامع آلاما مبرحة (ص ١ : ١٥، ٤ : ٦، ٧، ١٦، ١٩ و ٦ : ٩، ١٩، ٢١). ولقد كانت كلمات النبى الشاب كالنار للحطب (ص ٥ : ١٤).

يظن البعض ان هذه الكلمات تشير الى غزو السليثيين الذين ـ فى ذلك الوقت ـ أغاروا بجيوشهم التى لا عدد لها على غرب آسيا. ولم يفلت من يدهم سوى مدينتا نينوى وبابل، نظرا لقوتهما وشدة بأسهما. أما سائر البلاد فقد اكتسحت اكتساحا تاما. وكل الذين لم يتمكنوا من النجاة قتلوا بكل وحشية أو حملوا الى السبى، وتحولت المدن والقرى الى أطلال دراسة والى أكوام من الرماد.

على ان هذه الجيوش الزاحفة الوحشية لا تتم كل المعنى المقصود من كلمات ارميا. اذ يظهر أنها لم تدخل فلسطين، بل اجتازت حدودها الشرقية أو الغربية، بالقرب من منطقة نفوذ يوشيا، ودفعت الشعب المرتعد للاختباء فى المدن الكبرى حيث اقتفوا أثر الغزاة.

فالأرجح اذن ان هذه الكلمات الأسيفة تشير الى غزو بابل ليهوذا، الذى كان مزعما ان يحل بعد الثلاثين عاما، والذى حذر منه الشعب، لعلهم يبتعدوا عن نجاساتهم ويرجعوا الى ينبوع المياه الحية..

(٢) تعبيراته الاسيفة التى تفيض شفقة وألما وحزنا :

كان قلب ارميا الرقيق مليئا بالحزن الشديد بسبب الأخبار المحزنة جدا التى دعى لاذاعتها. وفى كل السفر نجد التعبيرات التى تنبئ بهذا الحزن الشديد. فقد كان يعز عليه ان يتأمل فى الخراب العاجل الذى سوف يحل بالمدينة المقدسة، لأنه أحب وطنه حبا خالصا كانت أعز امانى شعبه ممثلة فى تلك الصرخات التى يجدر بنا التأمل فيها قليلا.

استمع اليه وهو يقول "قد بلغ السيف النفس" (ص ٤ : ١٠) ثم يقول أحشائى أحشائى. توجعنى جدران قلبى. يئن

فى قلبى. لا استطيع السكوت" (ص ٤ : ١٩). وبدا له كأن شقق خيامه (وهو يعنى بلاده) قد "خربت فى لحظة" (٤ : ٢٠). ولقد حاول بكل جهده ان لا ينطق برسالة القصاص المريع حتى لم يطق صبرا ولم يستطع الانتظار (ص٦ : ١١) وتحدث الى اورشليم كابنة شعبه، وأمرها بان تتمنطق بمسح، وتتمرغ فى الرماد، وتنوح كما تنوح الأم على وحيدها (ص٦ : ٢٦). وتساءل كيف يعزى نفسه وسط الحزن الشديد لأن قلبه فيه سقيم (ص٨ : ١٨). وتمنى لو أن رأسه كانت ماء وعينيه ينبوع دموع فيبكى نهارا وليلا قتلى بنت شعبه (ص٩ : ١). وتحول وحيدا وسط الجبال باكيا ومنتحبا لأن المراعى جفت، فصار صوت الماشية لا يسمع. وبطل تغريد العصافير (ص ٩ : ١٠). من أجل كل هذا نراه يصرخ "ويل لى من أجل سحقى. ضربتى عديمة الشفاء" (ص ١٠ : ١٩).

لم يكن هنالك مفر من النطق بالقصاص المروع الذى كان مزعما ان يحل بهم. لكن كانت هنالك رنة حزن فى الصوت الذى تنبأ بذلك القصاص، كان أبعد الى نفسه ان يشتهى يوم البلية، وكان يتمنى ان يضحى بحياته بكل سرور

لو استطاع بذلك ان يرد عن البلاد هذا اليوم، كان كأس حياته يفيض بتلك الروح التى دفعت السيد فيما بعد للبكاء حينما رأى المدينة العاصية المقضى عليها بالخراب.

لقد أدرك هذا النوح تمام الادراك الكثيرون ممن كرزوا برسالة التوبة فى كل العصور الكنيسة، فانهم رغم اضطرارهم لانذار الخطاة بالغضب الآتى تجدهم قد امتلأت قلوبهم عطفا واشفاقا عليهم وحنينا لخلاصهم.

أننا نحتاج الى المزيد من هذه الروح. فانه لا يوجد شئ كرعب كالنطق بتهديدات الله ضد الخطية دون اظهار أية علامة للألم والأسف، رغم ان هذه الويلات التى يهدد بها الخطاة ليست ألا من صنع الخطية وطبيعتها ونتيجتها الحتمية. لذا دعينا للتحدث عن الغضب الآتى فينبغى ان لا نلجأ الى هذا الا بعد قضاء ساعات طويلة فى صلوات انفرادية وفى بكاء وأنين طويل. ونحن لا نستطيع ان نحذرهم الا بنسبة شعورنا من نحوهم واشفاقنا عليهم ورثائنا لحالهم ولا نستطيع ان ننطق بالويلات التى صبها على هامة الفريسيين والصدوقيين الا بقدر ادراكنا للعطف والشفقة والرحمة التى تملأ قلب المخلص.

ان غلطتنا هى فى الاتصال بالبشر كجماعة لا كأفراد، او فى استخدام تعبيرات مألوفة فقدت قوتها وروعتها لأنها أصبحت عادية. اننا لم ندرك تمام الادراك قيمة خسارة نفس واحدة، أو قيمة الويلات التى تنصب على هامة شخص واحد ارتد عن الايمان، او معنى الدود الذى لا يموت والنار التى لا تطفأ. ولعل أفضل طريقة لادراك معانى هذه الحقائق الأليمة هى ان نتساءل ماذا يكون الحال لو ان احداها قد صارت من نصيب أقرب الناس الينا؟ وبعدئذ ننتقل من الفرد الى المجموع، ومن خسارة النفس الواحدة نستطيع ان ندرك معنى خسارة العالم.

لنتطلع الى هذه الحقائق من وجهة نظر المخلص، أو من وجهة نظر المحبة الابوية، أو من وجهة نظر النفس ذاتها. وعندما ندرك تمام الادراك مقدار الاهانة التى توجه الى الله، ومقدار الخسائر الجسيمة التى يخسرها المسيح، ومقدار الآلام والويلات التى تنتاب خاطئا واحدا، فعندئذ نستطيع أن نتحدث الى البشر عن الغضب الآتى بدموع غزيرة، بصوت مرتعش وقلب كسير.

ان كرازة كهذه تفلح على الدوام فى اقناع الخطاة للرجوع عن ضلال طريقهم، اذ يجدون فيها حجة لن تقاوم. لا يوجد شئ أشد رعبا من التحدث عن أسرار الحياة والموت، عن السماء وجهنم، عن الذين سوف يقفون عن يمين العرش والذين عن يساره، دون ان يكون القلب مليئا بتلك الشفقة التى لن نحصل عليها الا بالشركة الكاملة مع مخلص العالم.

(٣) تعليمه بكل قوة عن النعمة المخلصة :

قليلون من كتبة الكتاب المقدس هم الذين أدركوا محبة اله أعمق مما ادركه ارميا. وعلى العصاة والخطاة ان يلجأوا دواما الى الاصحاحات الأولى من سفره، ليجدوا التعزية والتأكيد بالغفران الواسع المدى. ويكاد يكون هذا التعبير "العصاة" وقفا على هذا النبى.

١ ـ كانت عقيدة ارميا ان الخطية لن تطفئ محبة الله:

قد تتوسط الخطية بين الرجل وزوجته، فتحطم العلاقات الزوجية وتدفع الزوج ليطلق زوجته التى كان يعتبرها نصفه الثانى. ولكن مهما كانت خطيتنا شنيعة ومهما تكررت وتعددت، ومهما خنا الهنا أشد من خيانة الزوجة لزوجها، او

خيانة الزوج لزوجته، فانها لن تحطم تلك المحبة التى هى من الأزل والى الأبد. قد تكون السحب قاتمة جدا، ولكنها لن تطفئ الشمس. قد تحجب الخطية اعلان محبة الله، ولكنها لن تجعل الله يترك محبته لنا (ارميا ٣ : ١).

٢ ـ ومحبة الله تتبين فى الرحمة الغافرة :

ان كل ما يطلبه هو ان يدرك الانسان أثمه، ويعترف بأنه قد عوج طريقه، ونسى الهه. كان كافيا ان يقبل الخطاة الألفاظ التى اقترحها ارميا للاعتراف "ها قد أتينا اليك لأنك انت الرب الهنا" (ص ٣ : ٢٢) وهو يؤكد بأنه مهما كانت خطاياهم شنيعة فانها لن تذكر فيما بعد (ص ٤ : ١,٥ : ٢٠)...

٣ ـ ومحبة الله لا تعاملنا حسب خطايانا :

انه يمطر علينا خيرات جزيلة حالما نتوب. "ولا يحقد الى الدهر" (مز ١٠٣ : ٩). انه يتوسط بيننا وبين متاعبنا، كما تتوسط الرمال الناعمة بين بيوت البشر ومياه المحيط المزبدة. هو ينتظر حتى يقبلنا اليه ثانية "ان رجعت يا اسرائيل يقول الرب ان رجعت الى ... فلا تتيه" (ص ٤ : ١) يمكن ان تكون لنا الأرض الشهية، وميراث المجد (٣ : ١٩)، وراحة

لنفوسنا، هذه كلها سبق ان خسرناها، لكنها كلها ترد الينا عندما نتوب.

يالها من رؤيا بهية حقيقية تلك التى أعطيت للنبى الشاب عن محبة الله ونظرا لأوجه الشبه الكبيرة بين تعبيراته وتعبيرات سفر التثنية فاننا ترجح أن هذا السفر كان محبوبا جدا لديه، كما نتجاسر على القول بأنه كان السفر المحبوب للمخلص ان جاز لنا هذا القول. ولعله قد استقى أفكاره من هذا السفر القديم الذى كان قد اكتشف حديثا وقتئذاك. وعلى اى حال فان روحه الحية قد ارتوت من محبة الله الأبدية، الغافرة، المشفقة التى أعلنت للبشر فى يسوع المسيح ربنا.

ايه أيتها المحبة المباركة، التى بها تستطيع القلوب العاصية المتمردة ان تقبل ثانية ضمن الدائرة الداخلية، وتعوض السنين التى أكلها الجراد.

* * *

- ٥ -

«عند أبواب الهيكل»

(ارميا ص ٧ ـ ١٠)

بعد أن ضلت البشرية واضناها التعب عادت من حيث أتت وسارت فى الطريق الشائك.

الذى سبق ان سلكته

ورجعت الى أبسط الحقائق التى سبق ان علمنا أياها المعلم الاعظم ولا تزال حية الى اليوم.

ليس كل من يقول يارب يارب بل من يفعل ارادة الأب.

(لونجفلو)

لكى نستطيع أن ندرك النهضة العظيمة التى كانت قائمة فى العصر الذى دون فيه ارميا الاصحاحات الاثنى عشر الأولى من سفره يتعين علينا دراسة سفرى الملوك الاول الثانى، وسفرى أخبار الايام الاول والثانى. انه فى أمجد كلماته يندر ان يشير الى الاصلاحات العظيمة التى أتمها صديقه يوشيا الملك كما أنه فى تلك الأسفار التاريخية يندر ذكر اسمه (اسم ارميا) ولكن لا شك فى أنه كان على

اتصال وثيق بالملك وجماعة المصلحين القليلين الذين التفوا حول شخصه، الذين كان من ضمنهم شافان، وحلقيا وصفنيا النبى وخلدة النبية وصديقه الحميم باروخ.

لقد دعم يوشيا كل وسائل الاصلاح منذ أوائل حكمه، ولكنه فى بداية الأمر لقى مقاومة شديدة بسبب عدم تقدير الشعب لقضيته التى كان يجاهد من أجلها كانت للعبادة الوثنية ـ التى أطلق عليها عشرون اسما فى اللغة العبرانية ـ مغريات كثيرة للشعب، بسبب ممارسة الشعوب المجاورة لها وبسبب تحريضها على اشباع الشهوة البهيمية. ولهذا فأن الأغلبية من الشعب لم تشأ تركها، والرجوع الى عبادة الآباء الصارمه الطاهرة. وعلاوة على هذا الم يشيد سليمان العظيم على منحدرات جبل الزيتون الجنوبية ـ منذ أربعة أجيال ـ مذابح لعشتاروت آلهة الصيدونيين، وكموش وملكوم آلهة المؤابين والعمونيين؟ (١مل ١١ : ٥ ـ ٧).

ولقد ذاعت أيضا خرافات الطقوس الوثنية بين عدد وفير من الأنبياء الكذبة والكهنة الذين وجدوا فى فساد الشعب تقدما لمصلحتهم الخاصة، كالحشرات الطفيلية، وقد اتحدت كلمة هاتين الفئتين اللتين جعلتا مهمتها تثبيط همة جماعة المصلحين الذين التفوا حول الملك. وذلك لأنه يبدو

بأنهما مسحا تلك العبادة الفاسدة بمسحة مقدسة وألبساها ثوبا خادعا. وسادت فى البلاد آراء عجيبة ومرعبة، "فالأنبياء يتنبأون كذبا، والكهنة تحكم على أيديهم (بواسطتهم او بتعضيدهم) والشعب هكذا أحب" (ص ٥ : ٣١).

لذلك كان للتعاون بين صفنيا وارميا قيمته العظمى، فبينما كان يوشيا يعمل من الخارج لتحطيم الأصنام بعزم لا يلين، كان هذان البطلان يعملان من الداخل للاتصال بالضمائر والقلوب، وحث الشعب على التمسك بالله، وتعنيف عبدة الأوثان على سخافة الاتكال على صنع أيديهم، ثم لانذارهم بقرب حلول الغضب العام على الخطايا العامة التى كانت تعجل فى خراب البلاد.

ولكن رغم هذا التعاون الذى كان بينهما، وجهودهما المشتركة، فان قضية الاصلاح سارت ببطء، بل كانت مهددة بالفشل، لولا الاكتشاف الذى حصل فى السنة الثامنة عشر من حكم يوشيا، والذى أكسب ديانة اسرائيل قوة جديدة لم تكن منتظرة. ومع ان هذا الاكتشاف لم يكن متصلا شخصيا بحياة ارميا الا أنه (ارميا) اتصل اتصالا وثيقا بالأشخاص المختصين ولقد كانت الاصلاحات التى أدى اليها هذا الاكتشاف باعثة على عظته الثالثة.

١ ـ اكتشاف الشريعة :

فى الوقت الذى تمت فيه هذه الحادثة كانت يد الاصلاح تعمل فى الهيكل، لقد كانت الحال تدعو مع الأسف الشديد الى هذا الاصلاح. لأن رجاسات العبادة الوثنية استدعت أن يقام فى تخوم الهيكل مساكن للرجال الفاسدين، والنساء الداعرات الذين سولت لهم أنفسهم بارتكاب النجاسات فى المكان الذى عبد فيه داود، وبسط فيه سليمان يديه فى صلاة تكريس الهيكل. ولعل عوامل الزمن والتخريب كانت تستدعى أيضا هذا الاصلاح. لأنه كان قد انقضى عليه جيلان ونصف منذ اصلاحه اصلاحا تاما على يدى يوآش.

كلف حلقيا رئيس الكهنة بالاشراف على هذه المهمة، بمعاونة جماعة قليلة من اللاويين وجمعت النفقات اللازمة من كل من كان يجوز أبواب الهيكل من الشعب. فى احدى المرات أرسل الملك سكرتيره الخاص شافان للاشراف على عملية جمع المال بواسطة البوابين، وكان شافان هذا أبا جمريا وكان أيضا رجلا صالحا، وهو الذى أنقذ ارميا فيما بعد (٣٦ : ١٠ ـ ١٩ و ٢٥). عندما كانوا يقومون بهذه الخدمة الجليلة ويسلمون الأموال لأيدى العمال

المشرفين على العمل، قال حلقيا رئيس الكهنة الى شافان الكاتب "قد وجدت سفر الشريعة فى بيت الرب" (٢مل ٢٢ : ٨).

كان هذا اكتشافا مدهشا، وتذكر تقاليد اليهود بأنه اكتشف داخل كومة من الحجارة حيث خبئ حين أحرق آحاز سائر النسخ الأخرى من الأسفار المقدسة. أو لعله كان مخبأ فى تابوت العهد، الذى ربما يكون آحاز قد نقله الى أحدى غرف الهيكل، حيث تراكمت عليه الأتربة، وقطع الأثاث المهملة فاختبأ تحتها.

كثر النقاش حول محتويات هذا السفر الذى وجد فالبعض يظنون أنه يتضمن كل أسفار موسى الخمسة، الآخرون يظنون بأنه لا يتضمن سوى سفر التثنية. ويقرر غيرهم بأن شخصا معينا خدع يوشيا ـ بحسن نية ـ اذ كتب سفر التثنية بخط يد، وقدمه الى حلقيا ومن معه، مدعيا بأنه سفر قديم يرجع تاريخه الى عصر موسى.

يا للمزالق التى يسلك فيها أولئك الذين يحاولون لن يقدموا الينا مثل هذه الآراء السخيفة. ليلجأ أمثال هؤلاء لفحص المخطوطات القديمة أن أرادوا واننا نشكرهم مقدما من

أجل ما يقدمون من الحقائق التى يعثرون عليها، ومن أجل ما يتكبدونه من مشقة، ومن أجل حصافتهم وذكائهم، ولكننا لن نقبل نظرياتهم ليقدموا الينا الوقائع فكون لأنفسنا الآراء والنظريات وحتى لو تبين ان موسى ليس هو كاتب سفر التثنية وهذا لن يحصل - فانه لا يعقل قط أن العقلية الجبارة التى قدمت للعالم سفرا نفسيا كهذا يمكن أن تخضع للغش المزرى، اذ ينسب زورا وبهتانا بأن مؤلفه هو موسى.

وبعد التأمل الدقيق نميل الى الاعتقاد بأن سفر التثنية بصفة خاصة هو المشار اليه هنا، ولكن ليس باعتباره الوحيد دون أسفار موسى الباقية. ويبدو أنه من المرجح جدا ان يكتب كل ملك هذا السفر (التثنية) عند اعتلائه العرش، ويقرأ فى مسامع الشعب لدى اجتماعهم كل سبع سنوات.

ان شروط العهد هى بعينها الذى قطعه يوشيا وشعبه فيما بعد مع الله التى تجدها متكررة مرارا فى سفر التثنية، والعبارات التى يتميز بها هذا السفر طالما رددها ارميا فى خطاباته ونصائحه. لقد غلب هذا السفر على أقوال ارميا، كما فعل مع عاموس، وهوشع، واشعياء، وميخا.

كان لاكتشاف حلقيا لهذا السفر تأثير شديد فى نفوس الجميع. قرأ شافان بضعة أجزاء منه فى حضرة الملك، ولعله كان ضمنها الاصحاح الثامن والعشرون. "فلما سمع الملك كلام سفر الشريعة مزق ثيابه" (٢مل ٢٢ : ١١) وبكل سرعة أرسل احد اتباعه الذين يثق فيهم كل الثقة، الى احدى ضواحى المدينة، حيث تقيم خلدة النبية. لعل ارميا كان وقتئذاك فى عناثوث، أو لعله كان لا يزال صغيرا فى مركزه، أصغر من ان يعتبر ثقة فى ساعة حرجة كهذه. كان السؤال الخطير الذى تساءله الجميع حينئذاك هو هل يجب أن تتوقع البلاد بأن تحل بها كل اللعنات التى تنبأت بها كلمات سفر التثنية. والجواب كان لا شك "نعم" ولو تأجل التنفيذ مدة وجيزة.

وللحال دعا الملك الى اجتماع كبير من كل رجال يهوذا وسكان أورشليم والكهنة والانبياء والشعب، العظيم فيهم والحقير. واذ ارتفع فوق منصة، أقيمت فى مدخل الدار الداخلية، قرأ بصوت عال كل كلام سفر الشريعة الذى وجد فى بيت الرب. وبكل خشوع وعزم القلب جدد العهد بين الشعب وبين الرب، متعهدا بأن يسلكوا وراء الرب، ويحفظوا وصاياه وشهاداته وفرائضه. ولعله - كما يظن أحد المفسرين

ـ قد ذبح ثورا، وجاز الشعب والملك بين نصفيه شهادة على عزمهم الأكيد.

بعد ذلك ابتدأ من جديد عمل الاصلاح، وسما الشعور العام الى أقصى حده فانتهز المصلحون هذه الفرصة ولم يشاءوا أن تفلت من أيديهم. اذ ان كهنة الاصنام قد أبيدوا وكل ما يتعلق بالعبادة الوثنية أخرج من الهيكل وأحرق خارج المدينة، وهدمت بيوت الدنسين التى عند بيت الرب، حيث كانت ترتكب أقبح الرذائل، وتنجست توفة، وهدمت المرتفعات. وهكذا عاد اسرائيل ـ حسب الظاهر على الأقل ـ أمينا فى ولائه لاله آبائه، وتحرر من نجاسة العبادة الوثنية.

(٢) قطع كل علاقة بين تدين الشعب وحياته الأخلاقية:

كان نفوذ الملك، واكتشاف الشريعة وقراءتها، والنجاح العظيم الذى لقيه الفصح الذى لقيه الفصح الذى أسسه يوشيا، والثورة ضد العبادة الوثنية ـ كانت كل هذه كافية لعمل اصلاح عظيم واسع المدى بصفة وقتية. وأظهر الشعب المتقلب ولاء ـ ظاهريا على الأقل ـ لعبادة الرب وغصت دور الهيكل، وتممت كل فرائض وطقوس الناموس بمنتهى الدقة.

على أنه لم يحصل تغيير حقيقى فى الحياة. فقد كان الاصلاح سطحيا بكل معنى الكلمة. وتحت الثوب الخارجى الجميل كانت تستر أقبح الرذائل، التى كانت تظهر فى وضح النهار بين آونة وأخرى أنها لازالت موجودة.

أحس ارميا بفشل مرير حين رأى ماآلت اليه هذه النهضة التى كان يرجى لها كل خير. لقد أدرك طبيعتها الحقيقية، وحاول انتهاز الفرصة ليبين عجزها عن تحويل غضب الله. الذى يتجمع فى الأفق كسحاب قاتم. واذ احتل موقفه فى باب الهيكل، بمناسبة أحد الأعياد العظيمة، حيث اجتمع شعب يهوذا، مع سكان أورشليم، لعبادة الرب، تدفقت من فمه كلمات الاحتجاج والنصح.

لم يكن يجهل شدة اهتمام الأمة بالمظاهر الخارجية التى أساءوا فهمها، حاسبين اياها بأنها هى التدين. لقد دخل خلسة الى الهيكل "اللبان من شبا" وقصب الذريرة ذو الرائحة العطرية الجميلة، الذى كان يؤتى به من بلاد العرب أو الهند، ويحرق من اجل رائحته (ص ٦ :٢٠) وكانوا يحرصون على التحدث عن الهيكل كبيت الرب، وعلى الوقوف أمامه كشعبه (ص٧:١٠). وكانوا يميزون بكل دقة

بين كل أنواع المحرقات والتقدمات، وكان الكهنة والشعب لا يأكلون الا ما حلله الناموس (ص ٧:٢١). وكان موضوع افتخار الشعب انهم أؤتمنوا على ناموس الرب، الأمر الذى من أجله كانوا يطالبون بامتياز خاص للصفح عنهم (ص ٨:٨) : وازاء كل تهمة وجهها اليهم ارميا كانوا يشيرون الى جمال الطقوس التى أعادوها، والى هيكلهم الرائع الجمال، والى امتيازهم المنقطع النظير كشعب الله المختار، فكانوا يصرخون "هيكل الرب" هيكل الرب، هيكل الرب هو" (ص ٧ : ٤).

ولكن بجانب هذه المظاهر الخلابة كانت ترتكب أشر الخطايا علانية بلا خزى ولا خجل. وكانت ضمن التهم التى وجهها ارميا الى شعبه أنهم فقدوا فضيلة الخجل والحياء (ص ٨ :١٢). وكان خزى خطيتهم باديا فى عدم خزيهم. لقد ظلموا الغريب، واليتيم، والأرملة، وفشت بينهم علانية السرقة، والزنا، والقتل. لقد تعددت جرائم الاغتصاب، حتى بدا كأنهم. تحولوا الى جماعة لصوص، وصار الهيكل مغارتهم، وانسابت الأكاذيب من بين شفاههم كسهام من قوس، وبينما تكلم الناس بالسلام لاخوتهم فى مسامعهم

كانوا يكمنون لهم لخيانتهم. ورغم أن العبادة الوثنية قد استئصلت من المرتفعات الا أنها ظلت جاثمة بل متربعة فى بيوت العظماء، الذين أنفقوا ذهبهم وفضتهم الأسمانجونى والارجوان، فى سبيل الخشب الذى صوروه على شكل آلهة (ص ١٠ : ٩,٨).

وكان واضحا أنه لم تكن هناك علاقة قط بين البلدين والحياة الأخلاقية، وحيثما كان هذا فى حياة الامة أو الفرد كان الهلاك مؤكدا. ان الشيطان نفسه لا يعترض على الديانة التى ترتكز على مجرد المظاهر. بل هو فى الواقع يشجعها، لان روح الانسان تطلب الله، وتتعطش الى التدين، ووظيفة عدو النفوس الألد هى ان يبدل الحقيقة بالمزيف، أن يشبع العاطفة الدينية بمظهر وصورة التقوى كما لو حاول الانسان أن يشبع جوعه بالطعام الذى تنقصه عناصر التغذية مع ان قوته فى تناقص مستمر. مما لا يحتاج الى برهان أن نفس الانسان لن تستريح بعيدا عن الله. لكنها معرضة بأن تخدع بما ليس هو طعاما، وبما لا يشبع.

(٣) الأعذار التى تتوارى خلفها النفس البشرية:

١ ـ روح الطقسية : كان الاعتقاد السائد قديما بأن

الله ملتزم بمساعدة الامة أو الشخص الذى يواظب على اتمام مظاهر الديانة، كأنه محتم عليه تقديم هذه المساعدة. ظهر هذا الاعتقاد فى كل أمة وفى كل عصر بمظاهر مختلفة. فالوثنى كان يقول ماذا يتطلب منى الله أكثر من ان اتقدم اليه بمحرقات، بعجول ابناء سنة، بألوف الكباش، بربوات أنهار زيت، واعطى بكرى عن معصيتى، ثمرة جسدى عن خطية نفسى (مى ٦ :٦, ٧) والمتمسك بالشكليات فى عصرنا يقول : ماذا ينتظره الله منى أكثر من هذا، فقد قبلت فى الكنيسة المنظورة حال ولادتى، وقد أتممت كل فرائضها، وأبذل وسعى لأتمم كل طقوسها ونظمها، ومهما ساءت التقلبات الجوية فلا اتأخر عن حضور كل خدماتها، ولا اتأخر عن اتمام أى أمر يطلبه منى رؤساؤها؟ فماذا يعوزنى بعد؟

ان الكتاب المقدس يحذرنا دواما من مثل هذه الاحتجاجات، سواء صرحنا بها أو أضمرناها. يقول ميخا "ماذا يطلبه منك الرب الا أن تصنع الحق وتحب الرحمة وتسلك متواضعا مع الهك" (٦ :٨) ويصرح الرب بلسان أشعياء فى أحدى كلماته الأولى "لماذا لى كثرة ذبائحهم" ثم

يزيد على ذلك وهو مستمر فى التحدث بلسان الله " البخور هو مكرهة لى" (اش ١ :١١و١٣) . وهنا يردد ارميا نفس النغمة ويقول "ضموا محرقاتكم الى ذبائحكم، لأنى لم أكلم آباءكم ولا أوصيكم يوم أخرجتهم من أرض مصر من جهة محرقة وذبيحة" (ص٧ : ٢٢) فهذه لا يلتفت اليها الله ان كانت تحل محل طاعته والسيرة الطاهرة.

حينما كان القلب مستقيما أمام الله كانت مظاهر العبادة كاملة ومستقيمة ولائقة ومرتبة، وصارت هذه المظاهر وسيلة لانعاش النفس. على أن الخارج لا يمكن أن يحل محل الداخل. فالنفس يجب أن تعرف أن الله ورح، وتعبده على هذا الاساس. ينبغى أن يتوفر الايمان، والتوبة، والنعمة الداخلية. "الله روح والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغى أن يسجدوا" وهو فى كل الأجيال يبحث عن أمثال هؤلاء ليسجدوا له.

٢ ـ القضاء والقدر : طالما ردد البشر ما كان يعتقده اليهود قديما اذ قالوا : قد أنقذنا لنرتكب كل هذه الرجاسات، هكذا خلقنا : اننا محمولون بتيار قوى لا يمكن مقاومته (ص ٧ : ١٠).

ما أكثر الرجال الذين يلقون تبعة خطاياهم على خالقهم. معتذرين بأنها لم تكن الا نتيجة الميول الطبيعية التى أودعها فيهم...

وما أكثر السيدات اللاتى يلقين تبعة نجاساتهن القبيحة على قسوة الظروف التى وقعن فى براثنها.

وهنالك بعض أشخاص ممن يدينون بالقضاء والقدر، وهؤلاء يلقون تبعة خطاياهم على أوامر القدير. ومهما كان موقفك من عقيدة سبق التعيين فانه لن يبرر خطيتك فى نظر الله وملائكته. لأن نعمة الله كافية جدا لصد قوة التيار، وكسر شوكة الشهوة.

٣ ـ **الامتياز الخاص** : ما أكثر الأشخاص الذين يتعللون بأنهم محبوبو السماء فكل منهم يقول : اننى حكيم، وناموس الرب عندى، وهو فى حاجة الى تثبيت حقه واتمام قصده. انى متغلغل فى عمله بدرجة لا تسمح له بأن ينبذنى، ومهما فعلت فانه يخلصنى.

ايه أيتها النفس، احذرى، ولا تنخدعى، ولا تتوهمى بأن الله لا يمكن أن يكون فى غنى عنك. قبل ان تكون أيها الأخ كان يخدمه غيرك خدمة مرضية، واذا تخليت عنه فانه

يدعو غيرك لخدمته.

أنظر ماذا صنع بشيلو ص٧ : ١٤) وبأورشليم. أنظر كيف صار الموضع. وكيف صار الخراب مروعا.

"ان كان الله لم يشفق على الأغصان الطبيعية فلعله لا يشفق عليك أيضا" (رو ١١ : ٢١).

فاحذروا اذن لئلا ينزع منكم ملكوت الله ويعطى لأمة تعمل أثماره (مت ٢١ : ٤٣).

* * *

- ٦ -

«آمين يارب»

(ارميا ١١ : ٥) (١)

مهما كان نصيبى وكيفما يكون فلن أقول الا آمين.

وطوبى للذين يؤمنون وهم لا يرون. لنثق بأن الله يعرف الآن كل شئ واننا ايضا سوف نعرف غدا كل شئ ان ارادة الله هى خير ورحمة للنفس التى سلمت له ارادتها.

وهى خير لنا من كل رغائبنا ومشتهياتنا.

(كرستينا روزيتى)

ان كلمات النبى فى هذه الآية (١١ : ٥) مليئة بالمعانى السامية لكل نفس مباركة دعيت لكى تقف بين الله وغيرها من البشر، وهى أيضا مليئة بمعان أعمق لكل الذين يجتازون ظروف التأديب الالهى فى هذه الحياة الغريبة المتعبة. كان

---

(١) "لأقيم الحلف الذى حلفت لآبائكم ان أعطيهم أرضا تفيض لبنا وعسلا كهذا اليوم : فأجبت وقلت آمين يارب".

ارميا يدرك تيار القوة الالهية الخاصة التى كانت تتغلغل فى نفسه وتجتاز عن طريق حياته الى الآخرين. فقد أتت اليه بكلمة "من قبل الرب" وهذه أحدى التعبيرات الثلاثة التى يستخدمها. فمرة يقول "فكانت كلمة الرب الى" ومرة أخرى يقول "هكذا قال الرب" ومرة ثالثة ـ كما نرى هنا ـ يقول "الكلام الذى صار الى ارميا من قبل الرب". لعله كان يحس بتلك الكلمة كنار محرقة محصورة فى عظامه لا يطيقها (٢٠ : ٩) لذلك كان يجب أن يعطيها منفذا ولكن عندما كانت تخرج من شفتيه ويقضى وقتا كافيا للتأمل فيها، كان يجيب الرسالة الالهية بقوله "آمين يارب".

هنالك حقيقة رائعة فى هذا الموقف. لقد كان ارميا ـ كما رأينا ـ بطبيعته رقيقا، وديعا، يرثى لخطايا وأحزان شعبه، كان أبعد الأمور الى قلبه ان "يشتهى يوم البلية". وكان أحب الأمور الى قلبه أن يلعب الدور الذى لعبه اشعياء فى ذلك العصر، عصر الانحلال، فى تاريخ شعبه. على ان ما كان ممكنا وميسورا للنبى الانجيلى (اشعياء) العظيم فى أيام حزقيا صار الآن مستحيلا. فى موقف اشعياء كانت تقاليد الماضى السامية، واعتزاز الشعب بامتيازاته. ومواعيد الله، كانت هذه

متجهة اتجاها واحدا، أما فى حالة ارميا فكان هنالك تناقض شديد بين اتجاه الشعور العام الذى أحدثه الأنبياء الكذبة وبين عقيدته الراسخة فى كلمة الله. لابد أنه كان أمرا شاقا ان يثبت ان الأنبياء كانوا خاطئين، وأنه هو على صواب. انهم انما رددوا ما قاله اشعياء مائة مرة. لماذا كانت سياسة مقاومة الغزاة خاطئة حينما تكلم ارميا، بينما كانت صائبة حينما ألهب اشعياء صوته ضد الشعب كله؟.

لابد أنه كان مجهودا مضنيا جدا ان يقف ارميا وحيدا ـ فى بدء خدمته بنوع خاص ـ ضد الشعور العام، وضد الروح الوطنية، التى كانت موضوع نبوات الأنبياء الكذبة. ومع ذلك فانه اذ ينطق باللعنات والتهديدات التى استحقها شعبه من قبل العدل الالهى، وتنبأ بمصير شعبه الحتمى، ساده الشعور بعدل الله، والثقة بأن الله لا يمكن أن يتصرف بغير هذه الطريقة. والاقتناع بأن خطايا اسرائيل لا يمكن أن تنال غير هذا الجزاء. ولذلك استيقظت نفسه والتزمت بأن تردد القول "آمين يارب" ولو نطقت شفتاه بخراب اسرائيل.

هنالك ما يشبه هذا فى تاريخ الكنيسة المنتصرة. فانه عندما "دان الله الزانية العظيمة التى أفسدت الأرض بزناها

وانتقم لدم عبيده من يدها ودخانها يصعد الى أبد الآبدين" فان القديسين الذين تعلموا أعمق دروس المحبة الالهية من نفس مصدر المحبة صرخوا قائلين "آمين هللويا" (رؤ ١٩ : ١ ـ ٣).

جدير بنا فى كل من هاتين الحالتين أن ندرك كيف ان القصاص العادل المستحق يصحح عقيدة معاملة الله للبشر بمجرد الشفقة والرحمة، ويحمل أرق النفوس على ان تقبل ما كانت ترفض الاعتقاد به رفضا تاما.

وفضلا عن هاتين الحالتين يمكن أن تقدم حالة ثالثة، فيها نرى كيف أن الرب يسوع المسيح فى اللحظة التى ينادى فيها المتعبين والثقيلى الأحمال ليأتوا اليه يتحدث عن الأسرار التى أخفيت عن الحكماء والفهماء وأعلنت للأطفال، ثم قال : "نعم أيها الآب لأن هكذا صارت المسرة أمامك". و "نعم" هنا قريبة جدا فى معناها من "آمين". "لأن مهما كانت مواعيد الله فهو فيه النعم وفيه الأمين لمجد الله بواسطتنا "مت ١١ : ٢٦، ٢كو ١ : ٢٠).

هذا أيضا ما ينطق به الروح القدس. فانه عندما أعلن

الصوت من السماء غبطة الأموات الذين يموتون فى الرب قال الروح "نعم" (رؤيا ١٤ : ١٣) فى كل الأجيال فى هذا الدهر يؤيد الروح القدس أقوال الكنيسة كما يؤيد أعمال العناية الالهية. عندما تعجز البشرية عن أن تستمع الى الصوت الالهى ينطق الروح القدس بالقول "آمين".

(١) تأكد النفس :

١ ـ من أعمال العناية الالهية :

كثيرا ما يبدو بأننا مسافرون فى بلاد جبلية وعرة المسالك، فى رفقة صديق، حكيم، رقيق، تعهد بأن يرشدنا الى الغاية التى نقصدها. هنالك تيارات شديدة ترغى وتزبد، يتحتم علينا أن نقاومها بكل ما فينا من قوة. هنالك غابات كثيفة مظلمة لا تنفذ اليها الشمس، اتخذت فيها الوحوش الضارية أوكار لها هنالك طرق صخرية مدببة، وأخرى صخرية مزحلقة يبدو ان السير فيها مستحيل الا بتضحية جسيمة. هنالك برية قاحلة تكاد الشمس فيها تكون محرقة. هنالك مصاعد جبلية ضيقة جدا تكاد لا تتسع لمرور قدم، وفى أسفلها هوة سحيقة.

فى الأيام الأولى تقهقرت النفس بسبب شدة الذعر والهلع، وفى الأيام اللاحقة التمسنا طريقا أيسر وأرحب، وحسدنا الآخرين لانهم أوفر منا حظا. أما الآن فان حياتنا قد أصبحت كلها غنية جميلة تردد بلا انقطاع "آمين" من أجل كل ما يختاره لنا ذاك الذى يسير برفقتنا، والذى يعلم تمام العلم كل خطوة قبل أن نخطوها.

لنحذر من أن نخطئ ليس من الميسور أن نقول فى بداية الأمر "آمين" بنغمة الظفر والفرح. نعم فالكلمة كثيرا ما اختنقت بالتنهدات والزفرات التى لا يمكن حبسها. هكذا كان الحال مع ابراهيم حينما انتزع نفسه من أورالكلدانيين، وحينما قضى السنوات الطويلة المضنية فى انتظار الابن الموعود، وحينما كان يصعد جبل المريا بقلبه يخفق فى داخله.

اذ يقرأ هذه الكلمات أولئك الذين اضطجعوا السنوات الطويلة على فراش الألم الممض. أو الذين فقدوا أخلص الاعزاء، أو الذين تكتنفهم الآلام من كل ناحية، فربما ليس مستبعدا أن يعلنوا بأنه من المستحيل ان يقولوا "آمين" ازاء تصرفات الله أو يتساءلوا : ماذا يجدى ان تنطق الشفتان

بكلمة يحتج ضدها القلب؟ أو يتساءلوا : أليس رياء ان ينطق الفم بكلمة بعيدة كل البعد عن احساس القلوب؟

وردا على هذا نقول : ليذكر كل هؤلاء أن ربنا يسوع المسيح فى جشسيمانى لم يطلب مشيئته بل مشيئة الاب. ماذا يضيره اذا برحت به الآلام. وعصر جسده تحت ضغط التجارب والاحزان كما يعصر العنب؟ انه لم يبال بكل هذا. بل استطاع وسط قسوة هذه الظروف ان يردد القول بكل ثبات. "ان أفعل مشيئتك يا الهى سررت" (مز ٤٠ : ٨) ليكن لا ما أريد أنا بل من تريد أنت".

أيها العزيز! ردد كلمة "آمين" ازاء كل تصرفات العناية الالهية معك. رددها ولو ضعف القلب والجسد. رددها ولو كانت كل أعصابك ثائرة ودموعك منهمرة. رددها ولو بدا لك بأنها قد تكون آخر كلمة تنطقها بسبب ما قد يبدو من قرب نهاية الحياة، وحينئذ تدرك أنه متى أذعنت الارادة استراح الضمير راحة قصوى. واذ تمر الأيام فقد تأتى حادثة صغيرة، أو منعطف فى الطريق، أو ظرف غير متوقع، **لاقناع القلب والعقل بأن** طريق الله كان مستقيما، بل أحكم

الطرق وأفضلها. وهذا ما تردده العناية الالهية على الدوام "لست تعلم أنت الآن ما انا أصنع ولكنك ستفهم فيما بعد" (يو ١٣ : ٧) وهذا لا نتحققه فى العالم الآخر فقط بل هنا أيضا، الآن، فى هذا العالم الحاضر.

(٢) من الرؤى:

هنالك أسرار تريك أفكار احكم الحكماء واقدر اللاهوتيين، ولو كانوا فى الكنيسة كبولس ويوحنا : هنالك طرق غامضة لا تستطيع النفس أن تتبينها. هنالك نغمات موسيقية لا يستطيع أذكى الأذكياء تفسيرها. هنالك حركات فى العالم الروحى لا يستطيع أقدر الحكماء من بنى البشر تتبعها.

ان الانسان الذى يحاول تتبع آثار خطوات الله يجدها أعمق من ان تدرك، والعين التى تحاول تتبع أعماله يبهرها نور أقوى من نور الشمس، فيصرخ المرء قائلا "يا لعمق غنى الله وحكمته وعلمه، ما أبعد أحكامه عن الفحص وطرقه عن الاستقصاء" (رو ١١ : ٣٣).

هذا ما لابد أن يكون طالما بقى الزمن. صحيح اننا شركاء

الطبيعة الالهية، اشتراك الابن فى طبيعة أبيه. على أن الفرق بين طاقة الذكاء البشرى وبين أفكار الله لا يمكن ان يقاس حتى بالفرق بين عقل الطفل الرضيع وعقلية أبيه الكامل النضوج. لان هذا الفرق هو فى دائرة المحدود، أما ذاك فانه بين المحدود وغير المحدود. نحن لا نستطيع بالبحث والتنقيب ان نجد الله، أو نعرف القدير (اى ١١ : ٧). فانه لن يوجد حبل طويل، او مقياس كاف لقياس الله ولو استخدم الكون كله لهذه الغاية. "هو أعلى من السموات فماذا عساك أن تفعل، أعمق من الهاوية فماذا تدرى" (أى ١١ : ٧)..

على اننا ان كنا لا نستطيع ان ندرك أفكار الله فاننا نستطيع المصادقة عليها. فان عدم ادراكنا أياها يعزى الى قصور مواهبنا. لأننا طالما كنا هنا فنحن فى دور الطفولة، وكلماتنا هى ثرثرة الأطفال. وتفكيرنا تفكير الاطفال. على اننا نستطيع أن نقبل ونصادق على ما لم تره عين، ولم تسمع به أذن، ولم يخطر على قلب بشر، ما هو معلن على صفحات الكتاب المقدس.

لا شك فى ان موت يسوع المسيح قد وفى تماما مطالب

العدل الالهى. ومع ان بعض النواحى فى عملية الفداء تربك عقولنا بعض الأحيان الا ان نفوسنا تصرح بكل اطمئنان "آمين يارب"، نحن نجهل لماذا اختارنا الله، كيف أمكن للمسيح ان يتحد اللاهوت بالناسوت، او بأية كيفية يجدد الروح القدس النفس. ان الباحث فى الرؤى طالما ردد هذا السؤال : كيف يمكن ان يكون هذا؟ ولكن عندما يستعلن لنا ذاك الذى أتى من السماء، ويؤكد لنا ما يعرفه، ويشهد لنا ما يعرفه، ويشهد لنا بما رآه، فاننا نقبل شهادته، ونردد بكل خشوع "آمين يارب".

(٣) من الدينونة :

ان دينونة الله للأشرار سر عجيب فالمشاكل التى تحف بموضوع قصاصهم فى هذه الحياة والحياة الأخرى أعمق من ان يصل اليه العقل البشرى. ونحن كلما اقتربنا من الجبل المضطرم بنار الغضب تخاف ونرهب كموسى اذ نسمع أصوات الرعد القاصف، الذى تعقبه النيران لتلتهم العدو. وخير لنا أن نتحول عن هذا التفكير لنتساءل عما اذا كان ممكنا أن يجئ الوقت الذى فيه نستطيع ان نتأمل برباطة

جأش فى الآلام المروعة التى يستحقها أولئك الذين رفضوا محبة الله فى المسيح.

أيمكن ان تعطف علينا السماء طالما كان يوجد جهنم؟ أيمكن ان تكون هناك سعادة او انسجام طالما كان يوجد خروف واحد ضال حلقة واحدة مفقودة من عقد العروس، حجر ثمين واحد ينقص التاج الملكى، صوت واحد ينقص الجوقة الموسيقية؟ اننا نجد جوابا جزئيا على الأقل لهذه الأسئلة حينما نسمع من شفتى أرق الانبياء هاتين الكلمتين "آمين يارب" وهو يتوقع خراب شعبه، الأمر الذى من أجله تنهمر الدموع سخينة من عينيه.

نحن لا يمكن أن نتوقع الوصول الى هذه الحالة من القلب والعقل فى هذا الوقت الحاضر، لأن نظرتنا للعدل الالهى غير كاملة وتقديرنا للخطية ضئيل، ومعرفتنا لأحوال الكون قاصرة جدا. لو انه أمكن ان يزداد ادراكنا للخطية، والقداسة، ومحبة الله وتوسلات روحه القدوس للبشر، وكفاية المقياس الذى يقيس به دينونتهم وخلاصهم، والحواجز التى أقامها لتحول انحدار الأشرار الى الهاوية السحيقة لازددنا

فهما كيف استطاع ارميا ان يقول "آمين يارب".

هنالك فكرة عجيبة فى (حزقيال ١٤ : ٢٢ و ٢٣) حيث يقول الله اننا حينما ننظر طرق وأعمال الخطاة فى ضوء النور الذى سوف ينبعث من العرش الأبيض ليكشف كل حياتهم الماضية، فاننا نتعزى اذ نرى الشر الذى سوف ينصّب عليهم. بعد ذلك يستمر النبى فى حديثه فيبين ان الله سيكشف لنا أنه لم يصنع شيئا بلا سبب من كل ما صنعه.

لم يبدأ ذلك العصر بعد، ولكن يا لها من تعزية تملأ قلوبنا الحائرة الثائرة اذ نرى فى نور الأبدية نصيب الأشرار. سوف يتعزى ابرهيم اذ يرى خراب مدن السهل، سوف يتعزى ارميا اذ يبصر نصيب أورشليم، سوف يتعزى بولس اذ يرى اقصاء نسل ابرهيم عن أرضهم زمنا طويلا، وتشريدهم فى كل ارجاء العالم. ونحن سوف نتعزى اذ نرى أن أحكام الله كلها عادلة وحق.

(٣) أساس سلام النفس :

"نعم أيها الآب". يبدو لأول وهلة انه يستحيل على العقل البشرى أن يسلم الحقائق العسيرة الفهم، بل المزعجة، التى تأملنا فيها فى الفقرات السابقة. طالما كانت الأمهات تحب الطفل الرضيع وتحنو على أولادهن، طالما كانت النفس تقترن بالنفس بأقوى ربط المحبة البشرية، طالما كنا نتألم ونتوق ونخاف ونرجو ونشفق، طالما تحتفظ الذاكرة بأخبار الماضى، طالما بقيت المحبة فى العالم واحتل العقل مكانه ـ قد يبدو انه من المستحيل ان يتصور العقل بأن ما تراه العواطف البشرية غير لائق تقبله محبة الله. ولهذا فأنك قد تصرخ قائلا : حقا ان لك أمورا لا استطيع قبولها" وحقائق لا أستطيع المصادقة عليها، وعبارات لا استطيع الاقرار بصحتها، وامكانيات لا أستطيع أن أقول بازائها "آمين يارب".

ولكن ألا يمكن ان يعزى احتجاج النفس هذا الى هذه الحقيقة وهى أنك قد حكمت على هذه الأمور بمجرد العواطف او تعليلك البشرى وعقليتك المحدودة، أو مبادئ البشر المعكوسة، ولهذا فانك فى حاجة للوقوف فى مقادس

الله التى تنبعث منها كل حكمة، لكى تتصل بأسمى مبادئ الابدية فى التشريع والأخلاق؟؟ ولسنا مخطئين فى تفكيرنا حين نظن ان محبتنا أرق من محبة الآب السماوى، وعواطفنا أدق، وشفقتنا اعمق؟

حينما تضطرب وترتبك ازاء متاعب الحياة تحول عنها لأنها تربك العقل وتمرض القلب، وارفع قلبك وعقلك الى أبى ربنا يسوع المسيح، الذى تنبعث منه كل شعاعة من المحبة فى الكون، واذكر بأنه لن يسمح لك بأى شئ لا يتفق مع ارق واصدق معاملة الأب البشرى لأبن يمينه ـ بنيامين ـ ابن شيخوخته. وبذلك تستطيع ان تقول "آمين يارب"...

وبعبارة أخرى اننا ينبغى أن لا ننظر الى الامور المظلمة والمركبة التى تغلى وترغى وتزبد حولنا. بل لنتطلع الى فوق الى زرقة السماء الصافية، الى قلب أبينا السماوى. لنثق تماما بأنه هو المحبة، وأن محبته أرق وأعمق وأغنى مما تستطيع عقولنا البشرية الوصول اليه. والمحبة هى ناموس طبيعته فى كل أعماله معنا، مع كل البشر وخاصة مع الضالين والمتعبين.

نحن لا يسعنا الا أن نكرر القول بأن كل شئ ينبغى أن يتفق مع هذه المحبة الالهية، التى هى طبيعته وأسمى صفاته، وعلى قدر ما يكون ايمانك وثقتك فى الآب السماوى تستطيع ان تقول "نعم أيها الآب (مت ١١ : ٢٦).

(٣) انتصار النفس الثابتة :

«**آمين هلليلويا**». ان يسوع وهو مستقر فى أبيه لم يقل فقط "نعم أيها الآب بل أشكرك أيها الآب وهكذا سوف يأتى اليوم الذى فيه يرى الأربعة والعشرون شيخا (الذين يمثلون الكنيسة المنتصرة دينونة ألد أعداء عروس الخروف ويقولون "آمين هلليلويا".

لاحظ اضافة "هلليلويا" لكلمة "آمين"، هنا كلمة "آمين"، فقط، ويندر أن تقترن بـ "هلليلويا"، وهناك الكلمتان، الواحدة تمثل الأذعان والقبول، والأخرى تمثل هتاف السرور. الخضوع لأرادة الله، وصوت النصرة والفرح والتهليل.

لنتطلع مقدما الى ذلك العصر الذى فيه نعرف كما عرفنا، الذى فيه نستريح راحة كاملة، نتهلل تهليلا كاملا،

ننال البركة كاملة، الذى فيه يزول كل أثر للجهل وعدم المعرفة وقصر الادراك، والذى فيه نشترك فى ترنيمة الكنيسة المنتصرة "عظيمة هى أعمالك أيها الرب الاله القادر على كل شئ. عادلة وحق هى طرقك ياملك القديسين" (رؤ ١٥ : ٣).

* * *

- ٧ -

«كبرياء الأردن»

(ارميا ١٢ : ٥) (١)

ذهب كلاهما الى شاطئ النهر ووقفا فى ظلال السحاب القاتم واذ تثبت قدما الرب فى لجة المياه نهضا ليقف كل منهما عن أحد جانبيه وأفسحا له الطريق

بين الحوادث التى سبق لنا التأمل فيها وبين موضوع حديثنا فى هذا الفصل حلت بمملكة يهوذا مصيبة جسيمة جدا. فإنه عندما سمع يوشيا الاحتجاجات الشديدة التى وجهت اليه من كل جانب لعله أراد الاقتداء بأيمان حزقيا واشعياء، فنزل بجيشه المتواضع من الجبال لمهاجمة فرعون نحو الذى كان يسير فى الطريق المحاذى للشاطئ ليقتسم الغنيمة السهلة فى نينوى، التى كانت فى حالة الاحتضار

(١) "ان جريت مع المشاة فاتعبوك فكيف تبارى الخيل. وان كنت منبطحا فى أرض السلام فكيف تعمل فى كبرياء الأردن".

وقتئذ. التحم الجيشان فى مجدو، عند سفح جبل الكرمل، فى حدود سهل اسدرايلون، الذى طالما شهد المواقع الفاصلة.

لم تدم الحرب طويلا، فان جيش يوشيا فشل فشلا ذريعا أما هو نفسه فقد جرح جرحا مميتا.

قال الملك وهو يحتضر "انقلونى لأنى جرحت جدا" (٢أى ٣٥ : ٢٣) "فنقله عبيده من المركبة (الحربية) واركبوه على المركبة الثانية التى له (وكانت قد احتفظ بها على سبيل الاحتياط) على أنه مات فى هددرمون بعد ان سارت به المركبة مسافة وجيزة. وقد كان لموته رنة حزن شديد جدا فى كل البلاد، حتى صار فى السنوات التالية مقياسا للحزن الشديد. فزكريا لم يجد تعبيرا يعبر به عن حزن أورشليم عندما ينظر الشعب بحزن الى الذى طعنوه أنسب من تشبيهه بنوح هددرمون فى بقعة مجدون حينما ناحت كل الأرض عشائر عشائر، كل عشيرة على حدتها (زك ١٢ : ١١، ١٢).

وشبه بعضهم هذا الحزن بحزن أثينا حينما وصلتها الأنباء بأن لساندر أباد اسطولها. وحزن أدنبرة فى مساء موقعة فلودن (١) .Floden .

نظم ارميا مرثاة عند موت ملكه وصديقه. على أن هذه المرثاة لم تدون فى الكتاب المقدس. وللحال بدأ نجم يهوذا يأفل (٢أى ٣٥: ٢٠ - ٢٧).

ارتقى العرش بعد يوشيا ابنه يوآحاز، ولكنه لم يحكم سوى ثلاثة أشهر، وبعد ذلك سبى الى مصر، بعد أن وضعت خزامة فى انفه كأحد الوحوش البرية، ثم مات هناك. أقام نخو (ملك مصر) يهوياقيم أخاه ملكاً من بعده على ان يكون خاضعا له. غير ان ملوك يهوذا الأربعة الاخيرين سلكوا بعكس سياسة يوشيا. فانهم عملوا الشر فى عينى الرب، أما يهوياقيم فقد قيل عنه انه صنع رجاسات كثيرة (٢أى ٣١: ١ - ٨).

(١) حدثت يوم ٩ سبتمبر عام ٥١٣ بين انكلترا واسكتلندا حيث قتل جيمس الرابع ملك اسكتلنداه وقواده الرئيسيون وعشرة آلاف جندى من جيشه.

لدى موت يوشيا قوى الحزب المناصر للعبادة الوثنية. فقد أذاع هذا الادعاء: ماذا تجدى الديانة التى لم تستطع ان تنجى أعظم عضد لها من مصيبة كهذه؟ لقد كان الاصلاح الذى أجراه الملك الصالح سطحيا فقط، ولم يتغلغل فى أعماق النفوس، ولذلك حدث الآن رد فعل للقوة التى نفذ بها اصلاحاته. وكان المصلحون قد أصبحوا مبغضين من عامة الشعب، وكان لارميا بنوع خاص نصيب وافر من هذا البغض. فقد كان صديقا ومستشارا للملك السالف، وكان لا يتردد عن أن يصب جامات غضبه، بأقسى العبارات، ضد العبادة الوثنية وضد رجاسات عصره. ثم انه كان قد سبق ان تنبأ بنبوات مروعة عن المصائب العتيدة، والتى كانت قد بدأت تتحقق وقتئذاك. بعد ذلك هبت عاصفة من البغض والقتل. فقد كان مواطنوه يدبرون المؤمرات ضده على غير علم منه، قائلين "لنهلك الشجرة بثمرها ونقطعه من أرض الأحياء فلا يذكر بعد اسمه" (ص١١: ١٩).

كان بعيد الأحتمال ان تمسه هذه العاصفة بأى أذى،

لأنه كان قد أمر ان يتجول بين مدن يهوذا، ووسط شوارع أورشليم، ولعله كان قد بدأ رحلة طويلة وسط كل البلاد، حيث كان يقف فى الساحة الرئيسية لكل مدينة. ويعلن عن الغضب الذى لابد ان ينصب عليهم اذا هم كسروا العهد الألهى (ص١١ : ٨).

انتهت هذه الرحلة بالفشل الذريع المريع فقد اكتشفت مؤامرة وسط رجال يهوذا وسكان أورشليم لأنهم قد عادوا الى شرور آبائهم، وأقامت كل مدينة وثنها. وحفل كل شارع بمذبح للبعل. واعتقد ارميا بأن نفس الصلوات والتوسلات والشفاعة لدى الله لا تجدى هذا الشعب الذى غرق بجملته فى الخطية، لأنهم كانوا قد اخطأوا الخطية التى للموت التى لا تجدى الصلاة بازائها شيئا (ص١١ : ١٤, ١ يو ٥ : ١٦).

واذ تثقل قلب ارميا بالحزن ومرارة الفشل عاد الى مدينته ومسقط رأسه، عناثوث. لم يشك مطلقا فى الخطر المحدق به، كحمل وديع يساق الى الذبح يقينا انه كان يمكن ان يكون آمنا وسط اخوته فى بيت أبيه، ويجد العطف وحسن المعاملة والمحبة التى كان يتوق اليها قلبه الرقيق، والتى لم يجدها فى

أى مكان آخر. ولكنه لم يجدها هنا.

هنا أيضا اختبر ما اختبره الرب يسوع الذى جاء الى خاصته، وخاصته لم تقبله، بل أخذوه الى حافة الجبل الذى كانت مدينتهم مبنية عليه، حتى يطرحوه الى أسفل الجبل (لو ٤ : ٢٩).

دبرت مؤامرة فى هذه القرية المتواضعة، ولم تستطع ربط القرابة المقدسة ان تقوى على صد تيار ثورة الغضب والتعصب، وبلغ حنق الكهنة أشده بسبب الكلمات القاسية والنبوات المروعة التى نطق بها عليهم قريبهم الشاب فلم يستطيعوا الاحتمال أكثر من هذا. لذلك دبرت مؤامرة دنيئة ضده، وتحت ستار الكلمات المعسولة حاولوا قتله. لم يكن له علم بالخطر المحدق به، لولا ان الرب كشف له الأمر "والرب عرفنى فعرفت، حينئذ أريتنى أفعالهم" (ص١١ : ١٨).

ذهل ارميا لدى هذا الأكتشاف المفاجئ، على الفور اتجه الى الله متسائلا ومتعجبا، واذ كان واثقا من نزاهته ومن صلاح الله وجوده وحقه، غاص برهة فى بحار من التساؤل الذى طالما جال فى عقل أولاد الله المضطهدين بعد وعدم

مساواة التوزيع فى النصيب الأرضى "أبر أنت يارب من ان أخاصمك. لكن أكلمك من جهة أحكامك. لماذا تنجح طريق الأشرار. اطمان كل الغادرين غدرا" (ص١٢ : ١و٢).

(١) توسلات النفس المنسحقة المضطهدة:

١ – لقد كان واثقا من نزاهته:

لا شك فى ان ارميا كان واثقا من حقارته. وكان أيضا واثقا من خطيته، كشعور أى واحد من الأنبياء العظام فى اسرائيل بخطيتهم. لا يمكن ان يتصل أحد بالله صلة وثيقة كارميا دون الشعور التام بالنجاسة. لابد انه كان شاعرا على الدوام بما أحس به أيوب وموسى وداود واشعياء على انه بأزاء هذه العاصفة الهوجاء من البغض لم يحس بما يلام عليه. انه لم يعتزل عن ان يكون راعيا، ولا اشتهى يوم البلية (ص١٧ :١٦) ولا سر بالمصائب التى نطق بها، ولا تكلم عن دافع شخصى أو فى سورة الغضب. بل كانت خطايا الشعب هى التى جلبت الشرور التى تنبأ بها، وكان مجرد موقفه هو تحذير البحارة المتغافلين من الصخور القائمة فى طريقهم.

عندما نصبح محتقرين ومبغضين ينبغى ان نفحص قلوبنا بدقة لئلا نكون قد قد ارتكبنا ما سبب احتقارنا وبغضنا. والآلام الوحيدة التى ندخل فى دائرة تطويبات المسيح هى التى تكون آلامنا "من أجله" والتى يكون مسببوها "كاذبين". والمؤمن الذى يتحمل الآلام والأحزان وهو برئ هو الوحيد الذى يحق له أن يقرر بأنه يقتفى خطوات السيد، وبأنه يقدم ذبيحة مقبولة أمام الله. هو وحده الذى يحق له انتظار معونة الله للنجاة والخلاص والانقاذ.

حين تهب العاصفة فعلى ربان السفينة أن يتأكد من السلام بين بحارته والمودة والألفة مع باقى سفن الاسطول ليس لنا حق الشكوى من اساءات الآخرين الا ان كنا واثقين من أننا لم نرتكب ما سبب هذه الاساءات. أما ان كنت قد فعلت شيئا فليس عليك الا أن تكون مراضيا لخصمك سريعا، ولو أدى ذلك الى ترك قربانك على المذبح. واعلم بأن كل لحظة تباطؤ تزيد الموقف تعقدا، وتزيد الصلح صعوبة. ان طريق الاقتصاص سريع، من الخصم الى القاضى، ومن القاضى الى الشرطى، ومن الشرطى الى السجن (مت ٥ : ٢٢ _ ٢٥).

٢ ـ وكان متحيرا بسبب عدم المساواة فى توزيع النصيب الارضى:

لعله كان يردد كل كلمة من المزمور ٧٣ الذى أنشده آساف الصالح. انه لم ينحرف قط عن طريق الطاعة الضيق. ومهما كلفه الأمر من تضحية فقد تجرأ على الوقوف وحيدا، محروما من التعزيات ووسائل الترفيه التى تقع فى نصيب البشر، ولم يتردد عن كشف قلبه لله عالما بأنه قد تمم كل وصاياه على قدر ما أعطى من نور. على انه كان مبغضا ومضطهدا، وهدد بالموت، بينما كانت طرق الأشرار ناجحة، وكان كل الغادرين مطمئنين. كان أليما جدا على نفسه أن يرى هذه المناظر، وكان لسان حاله يردد ما أنت به نفس المرنم فى هذا المزمور، حقا قد زكيت قلبى باطلا وغسلت بالنقاوة يدى.. أما أنا فكادت تزل قدماى، لولا قليل لزلقت خطواتى" ع١٣و٢.

هذا هو سؤال كل الأجيال والذى لا نجيب عليه الا بأن نتذكر أن هذا العالم مقلوب الأوضاع، وأن طريق الطبيعة قد شوهته الخطية، وأن رئيس سلطان الهواء هو اله هذا العالم،

وأن عبيد البر يصارعون "ليس مع دم ولحم بل مع الرؤساء مع السلاطين مع ولاة العالم على ظلمه هذا الدهر مع أجناد الشر الروحية فى السماويات" (أف ٦ :١٢).

٣- وكان متشوقا لمعرفة صفات الله:

هنالك غموض واضح فى صراخه "دعنى أرى انتقامك منهم.. افرزهم كغنم للذبح. وخصصهم ليوم القتل" (ص١١ :٢٠, ١٢ :٣). وهنا نميل لمقارنة هذه الكلمات بتلك التى نطق بها الرب يسوع من فوق الصليب عن قاتليه، وتلك التى فاه بها استفانوس يوم أن كانت الحجارة تنهال عليه فتمزق أحشاءه وسائر أعضاء جسمه. وعندئذ نجد زغلا فى الذهب الصافى، وأثر للضعف فى حياة هذا القديس العظيم.

على أننا لا نراه بعيدا عن الصواب ما يعتقده البعض من أن النبى هنا كان يتنبأ عن نصيب أولئك الأشرار أو انه كان يتحدث بلسان الله فى هذا التصريح الخطير عن الهلاك العتيد.

ولكن التفسير الأصح لكلماته هو انه كان يحسب حسابا كبيرا للتأثير السيئ الذى كان ممكنا أن يحدث فى شعبه لو أن الله تجاوز عن خطية مضطهديه الذين كانوا يعتزمون قتله، وكأن النبى خشى لئلا تصير الاضطهادات التى حلت به ظلما وعدوانا باعثة للبشر على الاعتقاد بأن اساءاتهم للآخرين تؤدى الى تقدمهم ونجاحهم أكثر مما تؤدى الى الاستقامة والنزاهة والقداسة.

كان يوشيا هو الملك الوحيد فى عصره الذى يتقى الله، ولكنه قتل فى الحرب. وكان ارميا هو خادم الله الأمين، وكانت حياته سلسلة من الآلام. أكان من الحكمة اذن ان يتقى المرء الله؟ ألم يكن أوفر حكمة وأمنا وخيرا عبادة آلهة الشعوب المجاورة، التى كان يبدو انها أقدر على حماية أتباعها، وخدمة مصالح الممالك العظيمة التى احتفظت بهيا كلها؟

واذ تأمل ارميا فى نتائج الخطية: كيف حزنت الأرض وذبلت المراعى، وفنيت البهائم والطيور، خارت قواه وارتعدت فرائصه. وأدرك بأنه سوف لا يكون هنالك حد للشر السريع

السائد فى عصره ان كان الله لا يتدخل لصد تياره. لذلك صرخ طالبا الانتقام، ليس لاشباع شهوته الخاصة، بل من أجل اسرائيل.

(٤) وهو أيضا ترك دعواه بين يدى الله:

هذا ما يستفاد مما ورد فى (ص١١ : ٢٠) "فيارب الجنود القاضى العادل فاحص الكلى والقلب دعنى أرى انتقامك منهم، لأنى لك كشفت دعواى" (أو طرحت عليك دعواى). كان هذا حكمة منه. وهذا هو الطريق الوحيد لكى نكون آمنين فى أوقات المحن الشديدة. هذا ما فعله الرب يسوع فى آلامه على الصليب "الذى اذ شتم لم يكن يشتم عوضا. واذ تألم لم يكن يهدد بل كان يسلم لمن يقضى بعدل" (١بط ٢ : ٢٣).

وفى خطواته ينبغى ان تثبت أقدامنا عندما يتآمر علينا البشر، عندما يهجرنا الأصدقاء، عندما توشك المتاعب أن تجرفنا فى تيارها الشديد، فلندحرج عنا همومنا ونضعها على الرب يسوع حامل أثقالنا، ونتركها بين يديه. عندما تسلم اليه الهموم فانها لاتصبح همومنا نحن. لأنه حينذاك يهتم

بكل أمورنا بمحبة قوية جدا ورقيقة وصادقة وأمينة حتى لايبقى هنالك قط أى شئ يدعو للخوف فألق على الرب نفسك، وثقلك، وطريقك.

(٢) جواب الله:

لقد تنازل الله وهمس فى أذنه قائلا: أما تذكر حينما دعوتك أولا لتكون لى نبيا اننى سبق أن صورت لك الوحدة والعزلة، والمتاعب والاضطهادات التى كانت محفوظة لك؟ ألا تذكر اننى أنبأتك بأن سوف تكون سور نحاس ازاء كل الشعب؟ هل خارت قواك؟ هل تسرب اليأس الى قلبك الآن بسرعة؟ لماذا ضعفت أمام أول عاصفة من الاضطهاد؟ انك حتى الآن قد "جريت مع المشاة" ومنذ الآن سوف تبارى الخيل (ص١٢ : ٥) انك الآن "فى أرض السلام" نسبيا، فى مدينتك وموطن رأسك، حيث يحيط بك من عرفوك منذ الطفولة، ومع ذلك فانك متعب ومتألم، "فكيف تعمل فى كبرياء الأردن"، حينما يجتاح هذه الارض تيار من الاحزان، ويكتسح كل الاراضى المنخفضة، ويطرد كل الوحوش البرية من مخابئها؟ ماذا تعمل حينذاك؟

أليست هذه هى معاملات الله معنا دواما؟ فانه لا يدفعنا دفعة واحدة لنبارى الخيل، بل يختبرنا أولا بالجرى مع المشاة، انه لايسمح لأى واحد منا فى ضعفه بأن يلتقى بنهر الأردن فى حالة فيضانه وتياراته ولججه، بل يسمح لنا بأن نجرب أولا فى موطننا "فى أرض السلام" حيث نكون آمنين نسبيا وسط الذين يعرفوننا ويحبوننا. انه يقدم لنا تجارب الحياة بالتدريج، يسمح للتجارب الأخف بأن تسبق الاشد. انه يقدم لنا الفرصة لنتعلم الثقة فيه فى الصعوبات الأخف لكى يتشدد الايمان ويقوى، ولكى نستطيع أن نسير اليه وسط لجج البحار وتياراتها.

ثق بأنه مهما كانت متاعبك وأحزانك فى هذه الساعة فان الله هو الذى سمح بها لتقدم لك فرصة للاستعداد للايام القادمة. لاتيأس، ولاتكف عن الصراع، ولا تكن غير أمين فى القليل. لا تقل انك لا تستطيع الاحتمال، بل ثق انك بنعمته مستطيع.

فى الله نعمة كافية. انتفع بها، استخدمها، اتكل عليها. كن شاكرا جدا، لأنه قدم اليك هذا التأديب والاختبار.

والآن، وأنت تتناول من يده كل ما هو مستعد ان يمنحك أياه ـ النعمة، والتعزية، والتأكيد ـ تقدم الى الأمام. انه لن يتخلى عنك. وما قدمه اليك فى التجارب الأخف يقدمه اليك فى التجارب الاشد. والنعمة التى يعطيك اياها اليوم ان هى الا خيط فضى دقيق جدا بالنسبة لنهر النعمة الذى سوف يعطيك اياه فى الغد. ان تراجعت الى الوراء الآن فانك تخسر التأديب الأشد الذى سوف يأتى يقينا، وبخسارته تخسر أيضا الاعلان الاعظم عن نفسه الذى يلازم التأديب.

كن أمينا لله ثق فيه، وأذكر انه عندما يأتى بك الى "كبرياء الأردن" (ليس من الضرورى الى الموت، بل الى فيضان من الأحزان المروعة) فانك حينئذ تجد تابوت العهد، ربما لأول مرة. عندما تلمس قدم الكاهن الأعظم مياه النهر، فانه ينشق وتمشى حينئذ على أرض يابسة. عندما يمتلئ الأردن وتطفو مياهه، فان الله يتقدم بشعبه المختار الى حافة النهر، وعندئذ يشق فى وسطه طريقا، فيسيرون فيه دون ان تبتل أقدامهم أو يجرفهم تياره.

* * *

ـ ٨ ـ

«امتناع المطر»

(ارميا ص ١٤ و ١٥)

ان كنت فى مسيرك فى طريق العالم
قد جرحت الحجارة قدميك
وقد تمررت روحك
فنحن لم نشهد من هذا شيئا
بل كان يبدو الينا أنك لا تزال مرحا وثابتا
فاعلم بأنه قد أعطى اليك
أن تخلص الكثيرين مع نفسك
وأنك أيها الراعى الأمين
سوف تتقدم بخرافك فى يدك
فى نهاية يومك

(ارنولد)

كان يهوياقيم قد مضت عليه فى الحكم فترة وجيزة. وكان فرعون نخو قد عاد الى مصر وكانت نينوى فى طريقها الى السقوط. وكانت بابل تتزايد عظمة لتنافس كلا من الممالك العظمى، ولتقضى القضاء الأخير على يهوذا. وفى نفس الوقت كان الشعب المختار ينخر فى عظامه السوس، اذ قد تدنس بالشرور التى لا حصر لها. فاكتسحت البلاد مجاعة شديدة جدا كانذار سابق بالخراب العاجل القادم، وكأن القدير قد اتخذها كآخر وسيلة لتنبيههم بشدة الخطر القادم. لقد سبق ان أنبأ الله مرارا ان ضمن نتائج عصيانة أصابة البلاد بالمجاعة، ولكن لعل الأرض لم تشهد مجاعة أشد هولا من هذه (لا ٢٦ : ٢٠، تث ١١ : ١٧، ٢٨: ٢٣).

امتلأت كل الأرض حزنا. وفى الامكنة العامة، حيث كان الشعب يجتمعون فى الشمس المحرقة جلسوا على الأرض مرتدين الثياب السوداء. وبعد ان تعودوا الاتكال على مصادر البلاد الطبيعية التى تغذيها الأنهار والينابيع المتدفقة من الجبال والأودية، جلسوا فى كآبة وحزن بسبب المجاعة الماحقة. فالكروم المبعثرة على الجبال ذبلت، ومزارع الحنطة

صارت برية جرداء، والمراعى الخضراء احترقت. أما ندى السماء نفسه فقد بدا كأنه هجر الأرض، والنهر الذى كانت تتدفق منه المياه لم يتبق فيه الا آثارها. وصارت الحجارة ظاهرة بوضوح فى قاع كل مجارى المياه، وتصاعد صراخ أورشليم منبعثا من قرارة نفوس الرجال والنساء والأطفال، الذين لم يجدوا ما يطفئ لهيب الجفاف فى ألسنتهم.

يصف لنا النبى الحالة بكلمات أليمة جدا. فالاشراف أحسوا بضغط القحط فى قصورهم. اذ كانوا يرسلون عبيدهم لطلب الماء بلا جدوى، والفلاحون قبعوا فى عقر دورهم مغطين رؤوسهم. وكان من العبث أن يفكروا فى اخذ محاريثهم للارض الجافة. والايلة التى كانت تضرب الأمثال بمحبتها لصغارها كانت تتركها للبحث عن الكلأ والفراء وقفت على الهضاب تستنشق الريح الذى قد يهب فى المساء، علها بذلك تخفف من ألم العطش. واحترقت كل الأرض كأنها قد صارت فرنا محمى، والشمس اذ تنتقل كل يوم فى السماء تشرف على مناظر مروعة.

يالها من صورة أليمة تلك التى يمثلها لنا هذا الحادث

عن الجفاف الذى يصيب بعض الجماعات المسيحية أحيانا فكل خادم أمين يستطيع أن يحدثك عن بعض الفترات التى كان يبدو فيها كأن ندى البركات الالهية قد هجر المكان الذى يعمل فيه. لم يعد هنالك أى أثر لدموع التوبة، ولا تنهدات الحسرة والندم، ولا احساس بتساقط ندى الروح القدس، ولا تقدم مستمر فى التقوى والفضيلة، ولا فرح فى الرب، ولا ثمار الروح. حينئذ تصبح الخدمة شاقةو وتفتر همة الخادم، وتخور قواه. طوبى لتلك الكنيسة التى لم تشهد فترات جفاف كهذه، ولم تختبر مرارة الخيبة والفشل فى دائرة الحياة الروحية.

فى أوقات كهذه لا يستطيع الخادم الأمين الا ان يلجأ الى القدير، ويدخل مقادس العلى، ليتحدث الى الله، ويتشفع لديه لكى لا تبقى بعد السماء نحاسا، ولكى تعود أوقات البركة التى لن تأتى الا من قبل الرب ويجاهد الى النفس الأخير فى هذه الخدمة، التى لن يكف عن المثابرة فيها مهما خانته قواه الجسدية، ويتقدم الى الله بكلتا يديه، كما فعل يعقوب حين جاهد مع الملاك.

لنقترب من ارميا لنستمع الى الحديث بينه وبين الله،

فقد نجد بعض الحجج التى نتقدم بها الى الله حين تأتى أوقات الجفاف على الكنيسة، أو على الهيئة التى نعمل فيها، لنتأمل الآن كيف تتحدث النفس مع الله، وتتحاجج مع القدير.

(١) توسلات النفس فى شفاعتها:

الهى انى أتقدم اليك معترفا بخطيتى وخطية شعبى بنوع خاص. اننى أقف فى حضرتك ككاهنهم، معترفا بالخطايا التى صارت فاصلة بينك وبينهم، وجلبت عليهم غضبك، وحجبت وجهك عنهم. آثامنا تشهد علينا ومعاصينا كثرت. لقد كنت فى وسطنا فى الأيام الماضية، كنت دائم الرضى عنا، كانت بركاتك متدفقة علينا دواما، كانت نعمتك كنهر يفرح مدينتك.

أما الآن فانك لا تفتقدنا الا قليلا بل نادرا، لبثت معنا ليلة واحدة وغادرتنا فى الفجر، وأصبحنا الآن فى مرارة المر لغيابك عنا. كنت فى الماضى "كجبار" كشمشون الذى استطاع بذراعه ان يرد عنا الاعداء، أما الآن فقد تباعدت عنا.

ومع ذلك فانك لم تتغير يقينا، فأنت مخلصنا وانت فى وسطنا، وقد دعينا باسمك، وصار مجدك نصيبنا. ما لا يمكنك ان تعمله من أجل اى استحقاق فينا اعمله من أجل اسمك اعمله من أجل ابنك، اعمله من أجل دوام حقك على الارض "لا تتركنا" لا تدع نبوة حزقيال تتم، حينما رأى مجد الرب يترك القدس رويدا حتى وقف خارج أسوار المدينة (ص ١٤ :٧ ـ ٩).

اجابة روح الله.

هنالك بعض الأوقات يبدو فيها كأن الله يتحدث الى النفس هكذا (ان أتيح لنا التعبير عن التأثير الذى تتركه كلمات ارميا فى نفوسنا) لا فائدة يا ابنى أن تصلى. أن نعمتى غير محدودة، ورحمتى تدوم الى الأبد، وملئى ينتظر لكى يسكب تياراته، ويجعل البرية فرحة ويصيرها جنة فيحاء، اننى لا أسر بالبرية الجرداء، واود لو تكون كلها ينابيع مياه. لا أسر بالرمال البراقة، وأود لو تكون بركة ماء.

ولكن طالما كان الناس متمسكين بخطاياهم، طالما كانوا يرتكبون المكرهات كتلك التى رآها حزقيال فى رؤياه، اذ

أبصر شيوخ اسرائيل يقدمون بخورا للزحافات والوحوش المكروهة. فمن المستحيل أن أرسل اليكم مطرا. تحت ستار مظاهر العبادة، والأدب المصطنع، ترتكب الشرور التى تفصل بينى وبين شعبى، وتحجب وجهى عنهم.

هذه الحالة يجب علاجها. عليك أن تبدأ بفحص خبايا قلوبهم بكل دقة، لتخبر شعبى بتعديهم وبيت اسرائيل بخطاياهم، ليكن موقفك الآن لا موقف الشفيع بل موقف المصلح لا موقف ايليا حين وقف على جبل الكرمل متشفعا، بل موقفه حين استأصل الشر من بين الشعب، اذ ملأ مياه نهر قيشون بدماء كهنة آخاب (ص١٤ :١٠ ـ١٢).

٢ ـ رثاء الراعى الحقيقى :

آه أيها الرب الاله، صادقة هى كلماتك، يقينا انها صادقة بكل أسف وحزن انها صادقة.

ان شعبك يستحق كل ما نطقت به. ان آثامهم هى وحدها سبب بلاياهم! ولكن اذكر كيف أضلهم الأنبياء، وعلموهم تعليما كاذبا. البلاد مليئة بمن يخفون حقك تحت ستار الكلمات المعسولة. انهم يقررون بأن مظاهر العبادة

كافية مهما كان القلب بعيدا عنك، أن الخطية مشينة جدا، ولكن اذكر بأن المحرك الأصلى لها هم أولئك الذين أضلوا الشعب المتلون شفاههم ناعمة. يقولون سلام سلام فى الوقت الذى لا يكون هنالك أثر للسلام. وتوبيخات الضمير نفسها قد أخمدتها تأكيداتهم المضلة فرفقا بشعبك لانهم تشتتوا وضلوا بسبب فشل الرعاة فى مهمتهم (ص ١٤ : ١٣).

اجابة روح الله : هناك أيام فى تاريخ "المسيحى" يدعى فيها للسير على جبال الرؤى ويستمع الى الرعاة (الذين يتحدث عنهم يوحنا بنيان فى كتابه "سياحة المسيحى") وهم يتحدثون بعضهم الى بعض قائلين "أنظهر لهؤلاء السواح بعض العجائب"؟ وتحت ارشادهم يصعد الى قمة الجبل الذى يدعى الخطأ، الذى يشرف على هوة سحيقة من الجانب الآخر. هوى اليها الكثيرون من قمة ذلك الجبل، فتهشمت أجسامهم وتناثرت أشلاؤهم. فتساءل "المسيحى" ما معنى هذا؟ فكانت الاجابة: أما سمعت عن هيمينايس وفيليتس للذين زاغا عن الايمان بقيامه الجسد؟ (٢تى ٢ :١٧ و ١٨) هؤلاء هم الذين أخطأوا على مثالهما.

هكذا نحن ـ فى توسلاتنا من أجل الآخرين ـ ندرك بعض الاحيان غضب الله المحتم، والضرر الذى لا محيص عنه، الذى يسببه المعلمون الكذبة لغيرهم. لا يوجد مصير أشد هولا من مصير أولئك الذين لم ينحرفوا هم فقط، بل اضلوا الآخرين أيضا، الذين أعثروا احد أولاد الله الأصاغر، خير لك ان تكون أخرس، لا قدرة لك على الكلام، من ان تنطق بكلمات تعصف بأيمان الآخرين الذى فيهم منذ الطفولة، أو تهدم ما سبق ان بنى فى سنوات. كان هذا هو اتجاه أجابة الله لارميا.

ان هلاك الأنبياء الكذبة سوف يكون مروعا، ومصيرهم أشد هولا، لانهم ركضوا وأنا لم أرسلهم، وتنبأوا دون أن يروا رؤيا. لم تكن كلماتهم بدافع احساس ألهى. كان كل همهم محصورا فى الاحتفاظ بمراكزهم. وتحصيل قوتهم، والعناية بصحتهم، والشعب هكذا أحب. ولقد انتجت أخلاقهم المتسفلة كهنوتا متسفلا، وعددا وافرا من الأنبياء الكذبة. والرجال الذين تشكو أنت منهم قد خلقهم جيلهم. واذ قد ضعف شعبى بسبب الاهمال والتراخى والترف وروح الغرور، أصبح لا يحتمل أبسط الحقائق الواضحة فى الكلمة

الالهية. وهذه الجماعة الشريرة قد وجدت فى هذا الجيل الشرير الفاسد ما يزيد فسادها. لذلك فان لم ينزع الشعب خطاياهم ويرجعوا الى بالتوبة وتكريس الحياة، فانهم سوف يظلون أثمة فى عينى، ويتحملون نتيجة خطيتهم. وأسكب عليهم شرهم" (ص١٤ : ١٤ ـ ١٦).

(٣) النفس المتشفعة:

نعم أيها الاله العظيم. أنت عادل وحق، ولكنك لا يمكن ان ترفض رفضا كليا. ان كنت تضرب، فليس الى الموت. لابد أن تشفى. قد تطرح خارجا أولئك الذين لم تدخل فى العهد معهم، أو الذين لم يدع اسمك عليهم، أو الذين لم يقم بينهم عرش مجدك أما نحن فلا يمكن ان تعاملنا مثلهم. هنالك رابطة بيننا وبينك، لا تقوى خطايانا على حلها. لنا حقوق عليك كأب، لا يمكن أن يبطلها تيه الابن الضال فى الكورة البعيدة. ان صفاتك ومميزاتك التى بدت فى تصرفاتك معنا فى الماضى لن يمكن أن تتلاشى بجرة قلم. أذكر العهد، اذكر وعدك لابنك. أذكر عروسك التى لا يمكن أن تطلقها اذكر بأننا لا عون لنا الا فيك. أذكر القول الذى جعلتنا ننتظره. لذلك فاننا سوف نظل

ننتظرك. نحن لا نستحق بأن ندعى لك شعبا، على أننا نرجو أن تقبلنا، ان تلبسنا الحلة الاولى، وتذبح لنا العجل المسمن (ص١٤ : ١٧ ـ ٢٢).

اجابة روح الله.

يبدو كأن الله قد قال : قد مللت ندامتهم وتوبتهم. قد جربت كل وسيلة لصدهم عن الخطية وتجديد حياتهم. مرة بعزل التبن من القمح، وأخرى بالتأديب والأحزان، وأخرى باشهار السيف وبطشه السريع. وبدا كأنهم قد أصلحوا طرقهم، ولكن الاصلاح لم يكن الا سطحيا، قد اعتزمت اتخاذ اجراءات حاسمة. أن تكون طرقى اقوى تأثيرا، وتأديبى اشد فحصا وأكثر كمالا. سوف أمد يدى على شعبى وأنقى زغلهم تماما. وأنزع كل قصديرهم وأعيد قضاتهم كما فى الأول، ومشيريهم كما فى البداءة (١ش ١ : ٢٥، ٢٦) بذلك أستجيب لتوسلاتك من أجلهم. ان خراب المدينة، وهلاك الشعب بالسيف والمجاعة، وآلام السبى المروعة، هذه كلها سوف تعمل كنار مطهرة، يجوزونها ليخرجوا منها الى حياة جديدة مباركة. لا يفلح معهم شئ آخرى سوى هذا. من أجل محبتى لهم لا أشفق عليهم. وصلوات أقدس أبنائى

لا ترد غضبى عنهم. لان مقاصدى الابدية للفداء لا تتم بغير هذا (ص ١٥ : ١ ـ ٩).

(٤) صراخ الشفيع:

وهنا نرى النبى يقع فى دهشة عجيبة، واذ يرى من بعيد اساءة تقدير شعب لعواطفه من نحوهم، وحقدهم عليه بسبب نبوته لهم بالخراب المحتم القادم، يتمنى لو أنه لم يولد. هكذا يحس أولاد الله بمرارة الخيبة والفشل. وكلما اشتد الضغط عليهم، وكانت نفوسهم رقيقة الاحساس كارميا، قوى فيهم الميل للتساؤل :

لماذا خلقتنى يارب رقيق الاحساس الى هذا الحد، ضعيفا بطبيعتى وسهل الانقياد، لا أحتمل النظر بهدوء الى الألم؟ ألم يكن ممكنا ان يتمم رسالتك أحسن منى شخص آخر أصلب عودا؟ بل الآن ألا يوجد لديك شخص آخر اصلب عودا لتأتمنه على هذه المهمة؟ هنالك جلود اشد احتمالا منى للحرارة المحرقة. ألم يكن أصحابها أجدر باجتياز هذه النيران؟ لماذا سمحت لى بهذه الشفاه المرجفة، والقلب الخائر، وبهذه الشوكة فى جسدى؟ (ص ١٥ : ١٠).

اجابة روح الله

"انى أحلك (اشددك) للخير". وكأن الله أجابه بهذه الكلمات : تكفيك نعمتى. لقد دعوتك. بكل ما فيك من ضعف، لاتمام ارادتى، لان قوتى لا تكمل الا فى الضعف، فى الضعف تتبين قوتى. لعديم القوة أكثر شدة، ولعديم الحكمة اكشف اعمق أسرارى والقصبة المرضوضة هى التى تصلح لكى تكون عمودا فى هيكل، والفتيلة المدخنة هى التى تصبح نيرانا مضيئة. يكفيك ان تكون عتبة يجوز فوقها النهر الجارى يكفيك أن تكون قضيبا فى يدى يتم به خلاص شعبى. أيتها النفس الضعيفة الذليلة أنت هى الخليقة بأن تكونى قناة أوصل بها من ينابيع برى. سلمى نفسك فقط الى، واسمحى لى بأن أتمم طريقى بواسطتك، ومعك، وفيك. وحينئذ تصيرين مثل "الحديد الذى من الشمال والنحاس الذى لا يقوى على كسره الانسان (ص١٥ : ١١ ـ ١٤).

(٥) اجابة النفس.

"انت يارب عرفت" انت تعرف ما لا يخطر ببال أقرب الناس الى، ما لا أجسر على النطق به، ما اتحاشى ان أردده حتى لنفسى. أنت تعرف الرجاء الذى لم يبق منه الا بارقة

ضئيلة، المخاوف التى تروع نفسى الصراع، المثل العليا التى قد انهارت، العبارات غير المكتملة، الأغنيات بدون كلمات. أنت تعرف كل شئ انك لى كل شئ. ابتسامتك تقوينى ازاء تعييرات العدو. كلماتك تملأ قلبى فرحاً فى أشد الأحزان. حضرتك تبدد عنى كل أثر للوحشة حين أجلس وحيدا. ومع ذلك فاننى فى بعض الأحيان يباغتنى احساس غريب بأنك سوف تكون لى مثل نهر كاذب، مثل مياه غير دائمة مثل نهر يخدعنى، اذ يجف فى أشد الأوقات حاجة الى المياه أنا متيقن أن هذا لن يكون، لأنك أمين. ومع ذلك فماذا أستطيع فعله ان كنت تتركنى لنفسى بعد أن خلقتنى على ما أنا عليه (ص ١٥ : ١٥ ـ ١٨).

إجابة روح الله. وكأن الله قد أجاب قائلا : كف عن أوهامك. عد من الكورة البعيدة التى تكاد نفسك تبتلع فيها من اليأس. اننى أريدك أن تقف معى وجها لوجه، دون أن يحجبك عنى أى حجاب. انتظر أمامى. لا تنظر الى ضعفك، بل الى قوتى. لا تنظر الى اعدائك، بل الى نعمتى المنقذة. ابعد عنك كل رذيل. وافتح قلبك لنيرانى المطهرة لكى تتنقى من كل زغل. جرد نفسك من كل ما لا يتفق

مع دعوتك العليا. وحينئذ "مثل فمى تكون. وأجعلك لهذا الشعب سور نحاس حصينا. فيحاربونك ولا يقدرون عليك" وتكون محصنا ضد الخوف، وفى أحلك الساعات، حين تجتمع عليك كل قوات الشر، وتنفتح عليك كل أبواب جهنم، فاننى أكون "معك لاخلصك وانقذك". قد لا تكون لك زوجة ولا أولاد، ولكننى أكون لك أكثر منهم "وأنقذك من يد الاشرار وافديك من كف العتاة". "هذا هو ميراث عبيد الرب وبرهم من عندى يقول الرب" (ص ١٥ : ١٩ ـ ٢١، اش ٥٤ : ١٧).

* * *

ـ ٩ ـ

«على دولاب الفخارى»

(ارميا ١٨ : ٤) (١)

لقد أقامك الله وسط هذه الظروف المرنه.

وأنت بلا شك تود أن تتخلص

من ظروفك الحاضرة

والله، لم يقصد بعجلة الدولاب

الا أن يجعل نفسك تطيع الحق

ويدربك ويهذبك ويتمم فيك مقاصده

(براوننج)

فى أحد الأيام ذهب ارميا ـ مدفوعا بارشاد روح الله ـ الى وادى هنوم فى تخوم أورشليم، حيث وجد فخاريا فى

---

(١) "ففسد الوعاء الذى كان يصنعه من الطين بيد الفخارى فعاد وعمله وعاء آخر كما حسن فى عينى الفخارى أن يصنعه".

كوخ متواضع منشغلا فى عمله. "واذا هو يصنع عملا على الدولاب" ورغم التقدم الباهر الذى أدخل على كل الصناعات حتى الآن. فان صناعة الفخار تكاد تكون باقية على عهدها. كما كانت قبل المسيح بأجيال عديدة.

واذ وقف النبى هادئا بجوار الفخارى رآه وقد أخذ قطعة من الطين الذى بجانبه وعجنها بيده ليخليها من فقاقيع الهواء، ثم وضعها على الدولاب وبدأ يديره برجله بسرعة. ومنذ تلك اللحظة بدأت يداه تعملان، داخل الاناء وخارجه، ليصبغه بالشكل الذى أراده، وصار يوسعه من ناحية، ويضيقه من ناحية أخرى ويفتح فوهته وهكذا خرج من الطين الذى لاشكل له أناء جميل، خليج بهيكل الرب أو بالقصر الملكى وقبيل أن يكتمل تشكيله، ولم يبق الا أن ينقل من الدولاب ويوضع فى الفرن المعد لذلك، "فد الوعاء" بسبب بعض العيب فى مادة الطين، فتحطم بكليته على الدولاب، وتناثرت أجزاؤه.

توقع النبى بطبيعة الحال أن يأخذ الفخارى قطعة أخرى من الطين فورا ويخرج منها الشكل الذى لم يفلح فى

القطعة السابقة. ولكنه ذهل جدا اذ رأى الفخارى عوضا عن ذلك يجمع الأجزاء المتناثرة بكل حرص، ويضغطها معا ليكون منها كتلة واحدة، كما كانت من قبل، وعاد وعملها اناء آخر كما حسن فى عينى الفخارى. أن يصنعه".

ولعل هذا الاناء الثانى لم يكن فى جمال الشكل الذى كان متوقعا فى الأول ومع ذلك فقد كان جميلا ونافعا. كان هذا مظهرا لصبر الفخارى، وطول أناته، وحرصه على الانتفاع بالمادة التى بين يديه، وقدرته على اصلاح ما فسد، والتغلب على كل ما يدعو للفشل واليأس.

فى هذا المنظر تجلى للنبى صبر الله وطول أناته. رأى مقدما صورة لامعة لعمل الفداء. ورأى مثلا لتجديد بناء الأخلاق والحياة والآمال. ينبغى أن ندرك قصد الله الذى أعلنه لارميا "وأما استطيع ان اصنع بكم كهذا الفخارى يا بيت اسرائيل يقول الرب هوذا كالطين بيد الفخارى أنتم هكذا بيدى يا بيت اسرائيل؟" ع (٦).

ويبدو أن مغزى هذا المنظر هو أن الله يعطى شعبه رجاء بأنهم وان كانوا قد أفسدوا المثل الأعلى الذى قصده الله

لهم الا أن هناك مستقبلا مجيدا مباركا ينتظرهم، وفى قدرتهم الوصول اليه، وانهم ان سلموا انفسهم للمسة يد الفخارى الأعظم فانه مستعد لاصلاح الأثر السيئ الذى تركته سنوات العصيان الطويلة الماضية التى أفسدت قصد الله الجميل، ومستعد أن يخرج من الشعب المختار "أناء للكرامة مقدسا نافعا للسيد" (٢تى ٢ : ٢١).

هذه الفكرة نفسها يمكن تطبيقها علينا أجمعين. من منا لا يحس بأنه قد أفسد قصد الله، وقاوم لمسة يده؟ من منا لا يأسف على فرص القداسة التى ضاعت بسبب عناد الارادة وقساوة القلب؟ من منا لا يتوق أن يعاد تشكيله كما يحسن فى عينى الفخارى؟ "والان يارب انت أبونا نحن الطين وأنت جابلنا. كلنا عمل يديك لا تسخط كل السخط يارب ولا تذكر الاثم الى الابد" (اش ٦٤ : ٨ و ٩).

(١) تشكيل البشر بيد الله:

١ ـ للفخارى مثل أعلى:

قبل أن يصنع الفخارى الاناء يكون شكله مرتسما فى مخيلته. هو يراه متواريا فى كتلة الطين التى لاشكل لها،

ينتظر حتى يدعوه للخروج الى عالم الوجود، ويداه تتحركان وفق الفكرة الجميلة التى فى عقله. قبل أن تمد السيدة يدها بالمقص الى الحرير يكون شكل الفستان قد ارتسم فى مخيلتها وقبل أن تحفر أساسات المنزل يكون رسمه قد ركز فى عقل المهندس.

هكذا الحال مع الله فى الطبيعة. فان صورة هذا العالم وكل الأجرام السماوية، كانت مرتسمة فى فكره قبل أن تبزغ شعاعة واحدة من النور، وكل ما هو موجود الان ـ عدا الخطية وحدها ـ يمثل تماما المثل الأعلى الذى فى فكر الله.

وهكذا الحال أيضا مع جسد المسيح الرمزى ـ الكنيسةو عروسه ـ فى سفره كل أعضائه كتبت يوم تصورت اذ لم يكن واحد منها (مز ١٣٩ : ١٦).

هكذا الحال أيضا من جهة أمكانيات حياة كل انسان لا أدرى ان كان سيسمح لنا وسط سجلات السماء بالاطلاع على قصد الله الأصلى من جهة حياتنا، وما كان يجب أن تكون عليه لو أننا تركنا أنفسنا لليد التى تمتد من السماء

لتشكيل البشر. ولكن يقينا أن الله سبق فأعدنا ـ كل على قدر طاقته ـ لنكون مشابهين صورة ابنه.

انظر الى تلك الام تنحنى فوق مهد طفلها البكر وهو نائم. تأمل الابتسامة تعلو وجهها، فيبدو كأنه وجه ملاك. ما سر هذه الابتسامة؟ انها تحلم، وفى أحلامها تبنى قصورا من المجد والسعادة للطفل، على المنبر أو فى البرلمان؟ فى الحرب أو فى أحد الفنون لو أنها قد اتيح لها اتمام كل أحلامها لصار ابنها أسعد مخلوق، واشتهر فى خدمة البشر. ولكنك لن تجد أما تمنت خيرا لابنها أكثر مما تمنى لنا الله عندما تمخض بنا أولا عند أقدام الصليب.

والمثل الأعلى الذى قصده الله لنا هو أن نكون مشابهين للمسيح فى كماله، أن نثبت فيه كما ثبت هو فى أبيه، أن نشع نوره على الآخرين كما أنار هو لنا نور الأب، أن نتمم عمل الفداء، أن نحمل الصليب، أن نصلب مع المسيح، أن نقوم ونملك معه.

٢ ـ والفخارى يستعين بالدولاب لاتمام قصده:

هذا يمثل دورة الظروف اليومية فى محيط الحياة البشرية.

فانها تدور فى اتجاه واحد، حتى ليخيل بأنها قد أصبحت فى أغلب الأحيان مملة مألوفة تافهة. ومع ذلك فانها انما تدور لاتمام غايات قد وضعها الله فى قلبه.

ما أكثر الأشخاص الذين اذا بدأوا حياة القداسة والتكريس الكامل يتوقون لتغيير ظروف حياتهم واستبدالها بأخرى يظنون أنهم فيها يكونون أكثر استعدادا لحياة أفضل وأكمل. وهذا هو السبب فى القلق والارتباك، والفشل والعناد التى قد يلاقيها بعض المؤمنين فى بدء حياتهم. ليتعلم هؤلاء وأمثالهم أن الله قد اختار لهم نصيبهم من بين ربوات الظروف بما يتفق تماما مع تنمية الصفات المخبوءة والمميزات الخاصة للنفس التى يحبها ان أية حياة أخرى غير التى دعيت لتحياها تعجز عن أن تقدم المجال لانماء خاصيات طبيعتك التى لا يعرفها سوى الله كالألوان والرائحة الزكية المخبؤة فى البذور. آمن كل شئ قد رتبه أو سمح به لكى يبرز الى الظهور كل ما هو دفين فى داخلك منتظرا أمره : "هلم خارجا".

اذن فلا تحاول تغيير ظروف حياتك بتسرع أو طياشة.

البث حيث وضعك الله حتى يدعوك دعوة واضحة لتغيير مركزك كما سبق ان دعاك دعوة واضحة لاشغال مركزك الذى أنت فيه. البث الآن فى الدعوة التى دعيت فيها (١ كو ٧ : ٢٠) ألق عليه مسئولية توضيح أى تغيير لك ان كنت تراه ضروريا لتقدمك فى الحياة الروحية.

وفى نفس الوقت تأمل بكل دقة فى عمق كل ظرف لتدرك ما يريد الله أن يعلنه لك فيه من رسالة خاصة، أو درس، أو تأديب، وتيقن بأن اتمام مقاصد الله أو تعطيلها يتوقف على الطريقة التى بها تقبل أو ترفض هذه الظروف.

قد تشكو من أن حياتك تسير على وتيرة واحدة فأصبحت لذلك مملة. يوم يجئ، ويوم يمضى، والحياة باقية كما هى. عام يجئ وعام يمضى، ونفس الطريق المطروق باق على عهده، دون تجديد أو اتساع أو تغيير. ثم قد تتساءل : أى مجال هنا لأعدادى لحياة أفضل ؟ أية فرصة لاتمام أعمال مجيدة. لكن اذكر بأن الفضائل السلبية ثمينة جدا فى عينى الله كالفضائل الايجابية. فانها تحتاج الى وقت أطول فى تعلمها، كما أنها هى الأثبت انها تقوم فى الصبر، والخضوع، والاحتمال وطول الأناة، والمثابرة فى عمل الخير.

انها تحتاج الى شجاعة أوفر من تلك الصفات التى يقدرها العالم تقديرا أكثر. على أنها لا يمكن الحصول عليها الا بذلك الطريق الجيد الممل الذى يشكو منه الكثيرون متوهمين بأنه لا يقدم لهم سوى فرصة ضئيلة للوصول الى القداسة.

(٣) كمية العمل التى تتم بأصابع الفخارى:

ما أرق لمساتها ما أرق احساسها. وانه ليبدو للناظر كأن هذه الأصابع قد وهبت ذكاء بدلا من أن تكون هى الوسيلة التى يتمم بها العقل قصده. وفى دائرة الحياة الروحية تمثل هذه الأصابع لمسة الروح القدس الذى يعمل فينا أن نريد وأن نعمل من أجل المسرة. هو فينا أجمعين. وقصده الوحيد هو أن يملأنا بشخصه، ويتمم بنا كل مسرة الصلاح وعمل الايمان بقوة، لكى يتمجد اسم ربنا يسوع المسيح فينا ونحن فيه. (٢تس ١ : ١١ و ١٢).

على ان مشاغل الحياة الكثيرة تلهينا عن ان نحس باللمسة الرقيقة وفى بعض الأحيان، حينما نحس بها، نستاء منها، أو نصر على عدم الخضوع لها. لذلك كان من

الضرورى أن نخصص جزءا من النهار كل يوم، أو فرصة فى الأسبوع، فيها نخلو لانفسنا، ونبتعد عن كل مشاغل العالم ومؤثراته.، ونسلم كل حياتنا لتأثيرات الروح القدس فقط.

تضامن الدولاب مع اليد فى العمل معا. وكثيرا ما كانت حركتهما فى اتجاهين متضادين، ولكن كان الغرض واحدا، هكذا كل الأشياء تعمل معا للخير للذين يحبون الله. ان لمسة الله وصوته يوضحان لنا معنى أعمال عنايته، وأعمال عنايته تعزز الدرس الذى قد لا تقوى نصائحه الرقيقة على تعليمنا اياه.

اذا فكلما كنت فى شك من جهة تفسير ظروف معينة دعيت بأن تجتازها ووجدتها غريبة عسرة التفسير فاصمت واحذر من التذمر، أو التضجر وسكت الأصوات الكثيرة التى قد تناديك من الداخل، واصغ حتى تتأكد من قصد الله، وحتى تجد أن روحك فى الداخل يتعاون مع الظروف فى الخارج ويتعاون هذين العاملين (الظروف التى تقدم الفرصة لاعلان نعمة معينة، والروح القدس الذى يقدم النعمة لاستعلانها) تحلق الروح الى السماء كالطير الذى يحلق فى الفضاء بمجرد تحريك جناحيه.

(٢) الله يعيد تشكيل البشر:

"فعاد وعمله". لم يستطع الفخارى أن يصنع ما أراده. ولكنه بذل أقصى جهده نحو المادة التى بين يديه. هكذا يفعل معنا الله أقصى ما يمكن عمله. اذا رفضنا المثل الأعلى قدم لنا ما يليه، اذا رفضنا أن نكون ذهبا صنعنا فضة، وان رفضنا أن نكون فضة فلا يزال يوجد الخزف، ثم الخشب ترى كم من المرات ينبغى ان يعيد تشكيلنا.

لقد أعاد تشكيل يعقوب حين التقى به فى مخاضة يبوق. فانه اذ وجده غادراً ومخادعا صارعه طويلا حتى تركة رئيسا مع الله. وأعاد تشكيل سمعان صباح يوم القيامة حين التقى به بقرب باب القبر المفتوح ووجده ابن حمامة (وهذا هو معنى اسمه القديم "باريونا") فتركه "بطرس" رجل الصخرة، رسول يوم الخمسين. وأعاد تشكيل مرقس فى الفترة بين تركه بولس وبرنابا (ولعل ذلك كان لخوفه من دوار البحر) والوقت الذى تحدث عنه بطرس قائلا انه ابنه، وبولس فى سجنه اذ قال عنه بأنه نافع.

سمعت عن شخص موهوب كان اذا دنا الليل، وقبع أبوه

فى عقر داره دخل هو الى مصنع أبيه الذى كان يعمل فيه بكل جد واهتمام طول النهار فى صنع الفخار، وحاول أن يزيل كل أثر للتشويه الذى سببته الشيخوخة. هكذا يأتى الله الى عملنا عندما نبذل فيه قصارى جهدنا ونفشل، وعندما يتحول الناس عنا يائسين. وهو يكمل كل ما نقص فى عملنا، لأن رحمته تدوم الى الأبد، ولانه لا يمكن أن يترك عمل يديه.

هل تشعر بأنك قد أفسدت خطة الله الأولى من حياتك؟ لا يوجد أى اثر لمثله الأعلى لحياتك التى أرادها بأن تكون حياة التكريس الكامل له. لقد فشلت حياتك كوالد أو كابن كصديق أوكعامل فى دائرة الحياة الروحية. ان تعهداتك القوية التى قطعتها على نفسك فى بدء حياتك الروحية يوم حفلة الاكليل، أو يوم الرسامة، قد ذهبت أدراج الرياح، وصارت كل خطواتك تتعثر. تيقن بأن العلم وتيار الحياة العصرية لا يجديانك شيئا لاصلاح الحال. قد يبدو اليك بأنه لم يبق الا ان تسير فى المؤخرة وتدع غيرك يأخذون الجعالة التى صارت من نصيبهم بسهولة. وقد يأتيك هذا الهاتف: "لقد كانت لى الفرصة وأضعتها، انها لن تعود وناموس بقاء

الأفضل لن يعطى أى مجال للأضعف الذى ينبغى أن يطرح خارجا".

هنا يتقدم الانجيل بكلماته العذبة الرقيقة للضالين والمنبوذين، مؤكدا بأن القصبة المرضوضة يمكن أن تكون عمودا فى هيكل الله، وان الفتيلة المدخنة يمكن ان تكون منارة مشتعلة، وأن المهملات وأكوام القمامة هى فى الواقع ذات قيمة ثمينة جدا، يمكن أن تبرز أجمل الألوان او تقدم عناصر الحياة الرئيسية.

(٣) موقفنا بازاء الفخارى الأعظم:

اخضع له وكأن كل ذرة من الطين تقول للدولاب وليد الفخارى "ها أنذا". وبنسبة هذا الخضوع يسير العمل بكل سرور. أما اذا وجد هناك تمرد أو مقاومة فان عمل الفخارى يتعطل. فاسمح لله بأن يستلم حياتك اسمح بأن تتم مشيئته فيك كما فى السماء. ضعها نصب عينيك حتى وان كنت تعجز عن اتمامها. ثبت فيه رجاءك وقل "هأنذا".

قد تأتى أوقات يخيل الينا فيها أنه لا يعمل الصالح. كثيرا ما كانت الحياة كأواخر الشتاء حينما يكون الربيع

على الابواب مشتاقا الى أن يلمس كل شئ بعصاه السحرية. قد يبدو كأنه لا يوجد أحد يبالى بحقول الحنطة المترامية الاطراف التى لم تنبت بعد، أو بأوراق الاشجار، أو ببراعم الزهور مع ان ملائكة الله دائبة العمل بلا ملل فى هذه الحقول التى دفنت فيها البذور لتنقيها من الاحجار، وتظهر سماء الربيع الجديدة وأرضه الجديدة.

لذلك فعندما نستودع ذواتنا بين يدى الله لنثق بأنه لم يضيع ثانية واحدة بل هو دائب العمل لاتمام مثله الاعلى.

نحن لا نستطيع فهم كل تصرفاته دواما، لاننا لا نعرف قصده، ونعجز عن ادراك فكره الاصلى، والمركز الذى يدربنا لاشغاله، والخدمة التى سوف نقوم بها. فأى عجب اذا ان كنا نرتبك ونتحير. أننا نخاصم جابلنا ونقول ماذا تصنع، أو انه ليس له يدان (اش ٤٥ :٩) مع أنه يكفى يقينا أن نعرف مرشدنا ان كنا نجهل الغاية التى يرمى اليها وسط سلسلة الجبال الطويلة. فانه يعرف كل الطرق وسط الجبال، ويتخير أسهلها.

فى هذه الحقائق يستطيع متوسطو الأعمار والشيوخ ان

يجدوا تعزية خاصة. لا تنظر خلفك بحسرة متأسفا على أيام الصيف والربيع التى قد أضعتها. ولو كان الوقت الآن هو وقت الخريف فانه لازالت لك الفرصة لتعطى بعض الاثمار بعناية الكرام الاعظم، انه يبعث الرجاء فى الجميع هو يستطيع أن يرد الحرب حتى ان كانت قد وصلت الى الباب (اش ٢٨ : ٦)، ويستطيع أن يجعل الحديد المفقود يطفو على وجه الماء (٢مل ٦ : ٦)، ويملأ الجرار الفارغة خمرا جديدة جيدة (يو٢) ويعوض عن السنين التى أكلها الجراد (يوئيل ٢ : ٢٥)، ويخرج من الفشل نصره. فان ذاك الذى حول الصليب الى علامة النصرة والمجد، بعد أن كان علامة للخزى والعار يستطيع يقينا حينما يمسك بأشر الاشخاص وأضعفهم ان يحولهم الى زهور مشحونين بالرائحة العطرية وممتلئين كل رجاء.

كل ما هو مطلوب منك هو أن تطلق له الحرية ليمسك بك. تمم كل ما يقوله، أو اسمح باتمامه. اطلب منه غفرانا عن الماضى، ثم ردا الى احضانه، واخيرا اطلب منه أن يعيد تشكيلك بيده المقتدرة. انتظر الله وحسب ايمانك ليكن لك.

حينما يتخذ الطين شكله النهائى بيد الفخارى، يجب أن يحرق فى الافران الخاصة لحفظه. وحتى بعد هذه الخطوة لايكون التهذيب قد تم، لان الالوان التى توضع عليه لا تثبت الا بالنار. يقال ان أصل الذهب سائل، داكن اللون، مختلط بمواد غريبة ولكنه بعد أن يجوز النيران المحماه مرتين أو ثلاث مرات لكى يزول منه اللون القاتم وتنفصل عنه المواد الغريبة، وبعد ذلك يجوز النيران مرارا.

هكذا الحال أيضا فى معاملات الله مع شعبه. فانه حالما تنتهى يده من الصنع تجيز الطين فى بوتقة الآلام أو التجارب ولكن ليكن للصبر عمله التام اصمتوا واعلموا أنه هو الله (مز ٤٦ : ١٠) سوف تجد الجزاء حينما يصرح السيد بأنك جميل ونافع له.

* * *

- ١٠ -

«النار المقدسة الدافعة»

(ارميا ٢٠ : ٩) (١)

الرب عن يمينى يسند ضعفى ويقوينى

ويملأ قلبى غبطة وفرحا

والى ميناء السلام يهدينى

وان كانت الصلاة والسهر

والجهود التى أبذلها لا تجدينى

بسبب خطيتى وعدم استحقاقى

فانه يخلق من ضعفى قوة

ومن فشلى يخرج نصرة

وهكذا تسود المحبة أخيرا

(كبل)

---

(١) "فقلت لا اذكره ولا انطلق بعد باسمه. فكان فى قلبى كنار محرقة محصورة فى عظامى. فمللت من الامساك ولم استطع".

كانت طبيعة أرميا رقيقة الاحساس لأقصى حد، تتأثر بكل ظرف عابر بأقصى سرعة، فى ظروف الحزن كما فى ظروف الفرح. وكل السفر يبين لنا طبيعته المتقلبة، كما يبين البحر تغيير وجه السماء. فمرة يعكس لنا زرقة السماء الصافية، ومرة أخرى يعكس عبوستها حينما تتلبد بالغيوم.

هنالك أدلة كثيرة على هذه الحقيقة فى الاصحاحات التى بين أيدينا. فمثلا نراه يصرخ مرة قائلا "ملعون اليوم الذى ولدت فيه. ملعون الانسان الذى بشر أبى قائلا قد ولد لك ابن مفرحا اياه فرحا. لماذا خرجت من الرحم لأرى تعبا وحزنا" (ص ٢٠ : ١٤ ـ ١٨). وفى نفس الوقت نراه يتهلل بكل بطولة وشجاعة "ولكن الرب معى كجبار قدير. من أجل ذلك يعثر مضطهدى ولا يقدرون" (ص ٢٠ : ١١). ياله من تناقض عجيب بين هاتين النغمتين. فى الأولى يعبر وادى الظل حيث تمنع الأشجار الكثيفة رؤية السماء، والسيل الجارف يندفع بين الجبال مكتظا بالطين. وفى الثانية يقف فى الأعالى، حيث تشرق الشمس، ويجد الفضاء منبسطا أمامه، والحقول ممتلئة حنطة.

ونفس هذا التناقض نجده فى هذه الآية (موضوع التأمل فى الفصل الحالى). ففى النصف الاول نجد عزما غير كامل على عدم ذكر الله، أو النطق باسمه مرة أخرى. بعد ذلك نراه يتنبه فى الحال الى عدم استطاعته ضبط ايحاءات الروح وقوته الدافعة فى داخله. "فكان فى قلبى كنار محرقة محصورة فى عظامى فمللت من الأمساك ولم أستطع".

أيها القلب العجيب فى داخل الانسان، من يستطيع أن يعرفك؟ من يستطيع أن يقيس الارتفاع الذى يمكنك الوصول اليه، أو العمق الذى تستطيع أن تغوص اليه؟ يا للبركات غير المحدودة، أو الأحزان اللانهائية التى فى قدرتك الوصول اليها، ما أصفى سماءك، وما أظلم هاويتك، خليق بنا أن نتعلم كيف نميز بين حياة العواطف وحياة العقل، ونعتزم أن لا نعيش فيما بعد حياة العواطف بل أن نبنى حياتنا على صخر الارادة المطيعة.

(١) الظروف التى كانت باعثة لهذه الكلمات:

عزم ارميا غير الكامل. "فقلت لا أذكره ولا أنطق بعد باسمه" : الأرجح أن نينوى كانت قد سقطت وقتئذاك

كانت تلك المدينة العاتية قد حكمت الأمم المجاورة ستمائة سنة بقضيب من حديد، وبقسوة لا تعرف الى الرحمة سبيلا، وظلم ليس له نظير. وأخيرا جاء يومها. فقد تجمعت عليها قوات لا عدد لها من آسيا الصغرى حتى شواطئ البحر الأسود، من وادى الدجلة وأرمينيا وأشور قبائل الصحراء، وانقضت عليها بكل قوتها. استمر الحصار سنتين تحت قيادة القائد العظيم لآخر ملوك نينوى، نبو بلا سر، الذى كان ابنه نبوخذ نصر سوف يصير عصا تأديب الله. ذاعت أنباء هذه البلية فى كل أرجاء العالم، حاملة معها فى كل مكان شعورا بالارتياح لسقوط الظالم، والخوف ممن عساه أن يحل محله.

فى ذلك الوقت كانت مصر فى أوج عزها. فان فرعون انتهز فرصة ضعف نينوى فبسط نفوذه، ونشر مملكته حتى شاطئ نهر الدجلة. واعترفت مملكة يهوذا، كسائر الممالك المجاورة، بل تظاهرت بالاعتراف بفرعون مصر كسيد للجميع. وقد كانت الثقة فى جواره والاعتزاز بمحالفته باعثين على تجرؤ يهوياقيم للتمادى فى شره وعبادة الأوثان. وهكذا فسدت كل الارض كما رأينا.

أما ارميا الذى كان على رأس تلك الجماعة الصغيرة التى ظلت أمينة للحق ولتقاليد الآباء، فانه لم يضيع فرصة دون أن يبث شكواه، أو يجاهد لمقاومة انحدار شعبه وتسفلهم. ولأجل هذا كان على الدوام يلقى الاضطهاد العنيف والمقاومة الشديدة. وكانت المؤامرة التى دبرتها له عناثوث ـ مسقط رأسه ـ مقدمة لسلسلة من المؤامرات التى حيكت ضده، والفخاخ التى نصبت فى طريقه، ومظاهر الحقد من أولئك الذين كان يتمنى لو يقدم من أجلهم على مذبح التضحية حياته، كما كان كل يوم يقدم من أجلهم صلواته. لهذا جلس وحيدا، منبوذا من النبى والكاهن، من الملك والشعب.

قالوا فى احدى المرات : "هلم فنفكر على ارميا أفكارا لأن الشريعة لا تبيد عن الكاهن ولا المشورة عن الحكيم ولا الكلمة عن النبى" (ص ١٨ : ١٨) "صار للضحك كل واحد استهزأ به، وصارت له كلمة الرب للعار وللسخرة كل النهار" (ص ٢٠ : ٧ و ٨) وأما أصدقاؤه ومعاشروه فكانوا "يراقبون ظلمه قائلين لعله يطغى فنقدر عليه وننتقم منه" ع ٢٠.

تفاقمت الحالة حتى وصلت أخيرا الى أسوأ ما يمكن تصوره كما هو مبين بالاصحاحين ١٩ و ٢٠، واذ صدر اليه أمر الهى اشترى ابريق فخارى، وجمع البعض من شيوخ الشعب، وأخرجهم الى وادى ابن هنوم، الذى عند مدخل باب الفخار. فى ذلك المكان كانت تلقى نفاية المدينة. فتتجمع عليها الطيور الجارحة والكلاب بصفة دائمة. لذلك كان المنظر كريها بغيضا. هنالك أقام الدعوى على شعبه، وصف لهم خطاياهم الشنيعة، وتنبأ بالخراب المحتم الذى كانوا يعجلونه. فانبأهم بأن رجال أورشليم يسقطون هناك بالسيف أمام أعدائهم، وفى شدة ضيق الحصار يأكلون بنيهم وبناتهم. أما المدينة نفسها فانها تصير خربة، ويمتلئ الوادى المجاور بالجثث التى تصير "أكلا لطيور السماء ولوحوش الأرض، ولتأييد كلماته كسر أبريق الفخارى، وسكب ما فيه، اشارة الى سفك دم شعبه، وتلوينه لكل الأرض.

لم يقف عند هذا الحد، بل عاد من توفة ووقف فى دار بيت الرب، ربما على الدرج المؤدى لدار الكهنة. ولعل جماهير كثيرة من الشعب كانت منشغلة فى بعض مراسم العبادة وقتئذ فى أحد الأعياد الكبرى. وعندما سمع صوته

لابد أن يكون قد التف حوله جمهور كبير من الشعب الذين أعلنوا سخطهم الشديد عليه بسبب ما تنبأ عنهم من الخراب فى أسعد أوقاتهم. لم يطق أحدهم ـ على الأقل ـ صبرا، فان فشحور، "وهو ناظر أول فى بيت الرب"، وكان قد عهد اليه بحفظ النظام فيه، جمع زمرة من اللاويين (اى خدام الهيكل)، وقبضوا على النبى، وألقوه الى الأرض، وجلدوه على الطريقة الشرقية، وأخيرا وضعوه فى المقطرة، وتركوه فيها طول الليل، لهزء عامة الشعب، معرضا لبرد الليل القارس، وخطر الكلاب الشرسة.

ويبدو أن فشحور ندم فى الصباح على قسوته، وفك وثاق النبى الذى لم تتزحزح نفسه القوية لحظة بسبب ما لقيه من تعذيب. التفت النبى الى معذبه، وأنبأه بأنه سوف يعيش حتى يكون خوفا لنفسه ولكل محبيه ع٤، وان كل يهوذا سوف يسلمون لأيدى ملك بابل، الذى يشار اليه الآن لأول مرة، وأن الشعب سوف يسبون الى بابل، ويقتلون هناك بحد السيف، وأن "كل ثروة المدينة وكل تعبها وكل مثمناتها وكل خزائن ملوك يهوذا تدفع ليد أعدائهم فيغنمونها ويأخذونها ويحضرونها الى بابل".

ان تكرار ذكر بابل هنا أربع مرات هو الذى يؤيد فكرة سقوط نينوى، ويبين أن يد نبوبلاسر وابنه كانت قد بدأت تظهر وتمسك الصولجان الذى كان على وشك السقوط من يد تلك الدولة التى هى من أقدم الممالك.

واذ أطلق سراح ارميا عاد الى وطنه، وهناك أظهر حزنه الشديد، الأمر الذى سجل لنا لندرك ضعف طبيعته، ونعرف أن ذلك الاناء الذى أودع الله فيه كنزه السماوى اناء خزفيا. فانه لم يكن بطبيعته سور نحاس بل قصبة تحركها الريح. ولم يكن بطلا جبارا حكيما، بل ولدا يافعا. ولم تكن أعماله وأقواله تعزى لقوة شخصية، بل كان نفسه هى "نفس المسكين" كما وصفها هو ع ١٣.

ما أكثر الروايات التى يمكن سردها من مقادس أولاد الله القديسين. ما أكثر الصلوات التى امتزجت بالتنهدات والزفرات والدموع التى سكبت من قلوبهم الأليمة. أولئك الذين كان يبدو أنهم أقوياء وأبطال فى نظر أقرانهم كثيرا ما اعترفوا أخيرا بأنه لا يوجد أضعف منهم.

ويبدو أن النبى سار الى مدى أبعد. فانه خطر فى باله أن

يكف عن جهاده، ويحيا حياة خاصة، دون أن يحيا الحياة العامة. لماذا يجاهد فيما بعد دون أى جدوى؟ لماذا يحاول اقناع من لا يريدون الاقتناع؟

والذين قابلوا محبته بالحقد والبغضة؟ ولماذا يضحى بشرفه وراحته ومحبة أقرانه فى سبيل مهمة لن يجد عنها أجرا ولا شكورا. لقد وصل الى الحد الذى كان لسان حاله يقول فيه : ارسل بيد من ترسل، أعهد برسالتك الى شخصية أقوى منى، دعنى أعود الى عزلتى فى قريتى المتواضعة، حيث أقوم بخدمة بسيطة.

هكذا كانت وجهة نظر أولاد الله فى كل جيل، حينما قاسوا ضعفهم بقوات الشر التى حاربوها، وأدركوا نجاحهم المحدود، ولاحظوا البذار التى تبعثرت على الأرض الصخرية، والكلمات التى فاهوا بها فذهبت أدراج الرياح، وفشل مقاومة آخاب أو ايزابل، وجحود أولئك الذين كان يسرهم أن يكونوا سبب خلاصهم. لقد كانوا يميلون أن يصرخوا مع أعظم الأنبياء "كفى الآن يارب، خذ نفسى".

(٢) القوة الخفية التى لن تقاوم:

"فكان فى قلبى كنار محرقة محصورة فى عظامى فمللت من الامساك ولم أستطع". "قد أقنعتنى يارب فاقتنعت، وألححت على فغلبت" ع ٧ و ٩ وهنا يلفت نظرنا الى ثلاثة أمور:

(١) عادة النبى نحو التحول من الانسان الى الله:

ما أكثر الأدلة التى نجدها فى سفره والتى تبين شركته الوثيقة مع الله. لقد كان يراه قريبا منه. وكانت أذن الله تصغى الى أقل همسة عن احتياجات عبده. واذ اضطر أن يعيش وحيدا فقد تعود فى آلامه المريرة ان يعتمد على عشرة الله كاحدى الحقائق الجوهرية فى حياته. وكل فكرة تخطر بباله كان يبسطها أمام الله. لقد مد جذوره بقرب نهر الله الممتلئ ماء. لذلك لم يكن هنالك خوف من أن يذبل ورقه فى حرارة الشمس، أو أن لا يعطى ثمره فى سنة الجدب. كان الرب عزه وحصنه وملجأه فى يوم الضيق (ص١٦ : ١٩) لهذا كان يبسط اليه دعواه. "اشفنى يارب فأشفى، خلصنى فأخلص، لأنك أنت تسبيحتى .. لا أخز انا.. ولا ارتعب أنا (ص ١٧ : ١٤ ـ ١٨).

لتكن لنا وجهة النظر هذه، التى بسهولة تتحول من الانسان الى الله، دون أن نترك ساعات الشركة الطويلة مع الله، بل نتعود ـ علاوة على هذه ـ على الافضاء بكل شئ فى حياتنا لذاك الذى لا يحتاج الى أن نعمله حتى بنوايانا "بل هو مستعد كل الاستعداد أن يتقبل ثقة أولاده. تحدث بكل تفاصيل حياتك مع الله، مخبرا اياه بكل شئ، وواجدا فيه سدا لربوات أعوازك.

(٢) النار المتأججة :

ربما تكون قد شاهدت أيها القارئ العزيز سفينة بخارية صغيرة تقاوم تيارا عنيفا يحاول أن يقذف بها فى منحدر الشلال، ولكنها تظل فى جهادها الطويل حتى تتغلب على قوة التيار، وما ذلك الا بفضل النار المتأججة المكبوتة فى داخلها، ومحركاتها التى لا يمكن أن تسكت، لأن حركاتها القوية المنتظمة تدفعها الى الامام.

هكذا كان فى قلب ارميا نار متأججة اتصلت به من قلب الله، وظلت مشتعلة بفضل الوقود الذى كان يقدم اليها بصفة مستمرة. لذلك لم يجد صعوبة فى الكلام بل

فى الصمت، لا فى العمل بل فى الامتناع عن العمل.

وهذا يعطينا فكرة عن القوة الدافعة فى حياة الأنبياء الداخلية، ويعيننا على فهم معنى كلمات الرسول بطرس "تكلم أناس الله القديسون مسوقين من الروح القدس". كأن تيار الفكر والاحساس اتاهم بقوة من الخارج، وجاز فيهم ودفعهم الى الأمام بقوة لن تقاوم بهذه الطريقة كثيرا ما حدث أن الانبياء لم يفهموا الكلمات التى وضعها روح الله فى قلوبهم، وجعلوا معناها الكامل.

وعلى أى حال أن غايتنا الرئيسية هى أن ندرك كيف نحصل على هذه النار فى قلوبنا. لقد تعبنا من برودة قلوبنا من نحو الله. اننا نشكو بسبب عدم كفاية جهودنا فى حياتنا الشخصية وفى خدمتنا العامة، ونتوق الى أن نتعلم سر الامتلاء بروح الله وفكره، لكى لا نخشى من أية مقاومة، أو نتخوف من أى خوف. ان مصدر النار الداخلية هو محبة الله التى انسكبت بالروح القدس. ليس محبتنا لله بصفة مبدئية، بل احساسنا بمحبته لنا، كانت النيران التى اضطرمت فى قلوب أولاد الله الغيورين مستمدة من مذبح قلب الله.

ان كنا نقف متجهين نحو الصليب، الذى تشع منه محبة الله كعدسة مشتعلة، وان كنا فى نفس الوقت نسمح للروح القدس (الذى أحسن النبى اشعياء حين وصفه بأنه "روح الاحراق" أش ٤ : ٤) ليتمم عمله، فاننا نجد أن الثلوج التى تجمدت بها قلوبنا قد ذابت وانسكبت فى دموع التوبة، وأن النار المقدسة قد بدأت تشعل. حينئذ تحصرنا محبة المسيح ولا نبالى بأى اعتبار آخر من جهة أنفسنا، بل نجد ان روحه القدوس، وتفكيرنا فى اتمام ارادته، يلاشيان نار الاعتداد بالذات ويستبدلانها بالنار المقدسة.

عندما تبتدئ هذه المحبة تشتعل داخل النفس، عندما نتعمد بمعمودية النار، فان خطايا البشر وأحزانهم، تجاديفهم وعدم ولائهم لله وعدم اكتراثهم بخدمته وعدم تقديسهم ليومه، وعدم تقديرهم للخطر المحدق بهم وتماديهم فى الشر ـ هذه كلها تزيد النار المضطرمة فى داخلنا اشتعالا. لأننا حين نرى الكثيرين يندفعون نحو هلاك أنفسهم، ونسمع افتخار وتكبر المجدفين، وتعيير الملحدين، وصراخ المظلومين، وأغانى الدنسين البذيئة، وتدنيس كل ما هو طاهر فى الانسان حين نفكر فى الأحزان التى يسببها الأشرار لروح

الله، والاهانات التى يوجهونها نحوه حين نفكر مقدما فى الظلمة الخارجية، والدود الذى لا يموت والهاوية التى لا قرار لها ـ فان هذه كلها كافية يقينا لاشعال جذوة النار الخامدة حتى تندلع لأقل العوامل كما كان الحال مع ارميا حين قال انه أحس بقوة دافعة داخلية، اذا حاول كبتها أحس بألم شديد، واذا حاول عدم اطاعتها كان ذلك خطية.

(٣) سلامة النبى وأمته:

"الرب معى كجبار قدير من أجل ذلك يعثر مضطهدى ولا يقدرون" ع ١١. ان رفقة الله خلاصى. حينما وصف حزقيال مؤامرة آدوم، ومحاولتها الاستيلاء على أرض الشعب المختار أوضح بعبارة واحدة سخافة هذه المحاولة اذ قال "والرب كان هناك" (حز ٣٥ : ١٠) كان كافيا حدا أن يرف روح الله على أرضهم الخربة رغم أن اسرائيل كانوا فى السبى.

هذا ما أحس به ارميا. قد يكون أضعف الضعفاء لا قوة له ولا حكمة ولا قدرة على الكلام قد يكون حسب الظاهر غنيمة سهلة لفشحور ويهوياقيم ولكن طالما كان الله معه مظللا اياه بظل جناحيه، ومتعهدا بأن يكون حصنه الحصين،

فلن تقوى عليه قوة فى الوجود.

أيتها النفس الضعيفة المرتعدة. ان كنت أمينة لله، فانه يكون معك، يحاصرك من أمام ومن خلف، ويظللك بظل جناحيه، وتكونين كمدينة الملك العظيم، قد يجتمع عليك الملوك ولكنهم حالما يرونك تمتلئ قلوبهم ذعرا ويعبرون عنك (مز ٤٨ : ١ ـ ٨) أما أنت فتكونين "مسكنا مطمئنا، خيمة لا تنتقل، لا تقلع أوتادها الى الأبد، وشئ من أطنابها لا ينقطع" (اش ٣٣ : ٢٠) "لان الله هذا هو الهنا الى الدهر والأبد، هو يهدينا حتى الى الموت" (مز ٤٨ : ١٤).

* * *

ـ ١١ ـ

«النكبات، والاحزان، والشغب»

(ارميا ٢٦)

انى أرى المظالم تحيط بى

واحس بالاثم فى داخلى

واسمع الانات والزفرات

تتصاعد من قلوب البشر معترفين بخطيتهم

ولكننى وسط الأمواج المتلاطمة

ترتكز نفسى على دعامة ثابتة

فاعرف ان الله صالح

(هويتير)

لعله يوجد بين ملوك يهوذا من كان محتقرا أكثر من يهوياقيم. يقرر يوسيفوس أنه كان ظالما فى تصرفاته، شريرا فى اعماله، لا يخاف الله ولا يهاب انسانا. ولعل بعض السبب

فى ذلك يعزى لتأثير زوجته نحشتا، التى كان ابوها الناثان شريكا فى جريمة قتل اوريا. "كان يهوياقيم ابن خمس وعشرين سنة حين ملك. وملك احدى عشرة سنة فى اورشليم. وعمل الشر فى عينى الرب" (٢مل ٢٣ : ٣٦ و ٣٧). هذا ما سجله لنا الوحى عنه.

ويبدو ان ارميا كان فى نزاع مستمر مع هذا الملك. ولعل أولى مظاهر العداوة التى لم يكن ممكنا الا ان تنشأ بين هذين الرجلين بدت بمناسبة بناء قصر يهوياقيم. فانه رغما عن ان مملكته تثقلت جدا بسبب الغرامة التى قررها عليها فرعون نخو بعد غلبة يوشيا وموته، وتقدر بنحو اربعين او خمسين ألفا من الجنيهات، ورغم عن ان الجو كان قاتما جدا بسبب ما كان معروفا من المصائب القادمة، الا أنه بدأ يشيد لنفسه قصرا فخما، بغرف فسيحة، ونوافذ متسعة وأرضية من خشب الأرز، ونقوش غاية فى الابداع. وكما واجه ايليا آخاب هكذا واجه ارميا هذا الملك الشاب بهذه الويلات المرعبة "ويل لمن يبنى بيته بغير عدل وعلاليه بغير حق الذى يستخدم صاحبه مجانا ولا يعطيه اجرته. لان عينيك وقلبك ليست الا على خطفك وعلى الدم الزكى لتسفكه وعلى الاغتصاب

والظلم لتعملهما". بعد ذلك ذكره بأن ثبات عرش يوشيا لم يتوقف على فخامة قصره بل على العدل الذى قضى به للفقير والمسكين ص ٢٢ : ١٣ الخ.

وواضح أن ملكا كهذا لا يمكن الا أن يحمل فى قلبه ضغينة قاتلة لذلك الرجل الذى تجاسر على رفع صوته لفضح جرائمه. وكما فعل هيرودس بيوحنا المعمدان هكذا كان هذا الملك لا يتردد عن ان يطفئ فى الدماء تلك الشعلة المنيرة التى فضحت ظلمه وقسوته.

يذكرنا هذا بموت أوريا بن شمعيا الذى نطق بكلمات شديدة ضد أورشليم وسكانها بنفس الطريقة التى اتبعها ارميا. أثارت هذه الكلمات غضب الملك حتى أضطر أوريا للهرب الى مصر، ولكن الملك أخرجه منها وضربة بحد السيف وطرح جثته فى قبور عامة الشعب انتقاما منه بسبب جرأته عليه. لهذا كان الأمل فى نجاة ارميا ضئيلا لو كان الملك قد أراد أن يبطش به. لكنه نجا فى هذه المرة بواسطة تدخل أصدقائه من ذوى النفوذ من الطبقة الارستقراطية، أحدهم أخيقام بن شافان (٢٦ : ٢٠ ـ ٢٤).

(١) **الرسالة الالهية**:

صعد ارميا الى دار بيت الرب ـ بارشاد الهى ـ فى فرصة أحد المواسم الرئيسية، حيث اجتمعت جماهير غفيرة من كل مدن يهوذا للعبادة وحينئذ وجد انه يجب عليه أن لا يؤخر كلمة واحدة دون أن ينطق بها. ان أغلبنا يحس بقوة تلك الدوافع الداخلية، وكثيرا ما وجدنا صعوبة فى التمييز بينها لنعرف ان كانت منبعثة من عواطفنا الشخصية أم هى حقا منبعثة من روح المسيح. فى هذه الحالة الأخيرة فقط تكون الخدمة مثمرة، وهنا لنتوقف برهة لنرى كيف يمكن أن يكون قلب الانسان واسطة ينقل بها الله أفكاره للبشر، والطريقة التى ندرك بها ايحاءاته الداخلية.

لن يوجد عدو أخطر من تدخل الجسد فى خدماتنا. ولن توجد أية ناحية من نواحى الحياة أوالخدمة لا يتدخل فيها الجسد بسمومه القاتلة. فنحن نلتقى به فى حياتنا غير المتجددة حينما تثور فينا شهواته بحدتها وشدتها متخطية كل الحواجز، ونلتقى به حين نبدأ الحياة الجديدة، فنجده يقاوم الروح، ويحاول أن يحد من نشاطها. ويالللعجب اذ نجده

يتسلل الى أقدس تعهداتنا وأجل أعمالنا بعد ان تحصل على حياة التقديس.

يدعو الرسول بولس فى هذه الحالة زواجا غير متكافئ بين الجسد أو حياة الذات، وبين ناموس الله، وهذا الارتباط ينتج ثمرا للموت.

وأخيرا يواجهنا الجسد فى خدماتنا فى دائرة الحياة المسيحية، لدرجة أننا فى ساعاتنا الهادئة كثيرا ما نتوق الى أن يكون لنا الصيت والشهرة، والتفوق على أقراننا، وكثيرا ما نجد فى داخلنا ميلا الى تجنب البحث فى كل ما يؤدى الى التعمق فى الحياة الروحية، وذلك بأن يطوح بنا فى كل طريق نبعثر فيه جهودنا.

لا يوجد الا حل واحد لهذه الصعوبات. ذلك هو طريق الصليب والقبر، الذى به وحده نتخلص من سيادة ومن شراك هذا العدو اللدود، والملعون من الله، والخطر على الحياة الطاهرة ، والمتلف للفاكهة الغضة. فى صليب المسيح، حين مات فى شبه جسد الخطية، سجل الله لعنته على كل أعمال الجسد وجهود الجسد. والآن لم يبق لنا الا أن نتخذ

ذلك الصليب لأنفسنا، أن نقبل الحكم الالهى، أن نضطجع فى القبر حيث تعجز أصوات المطامع البشرية واغراءات الجسد عن أن تتبعنا، أن نقاوم كل ما يدفع الاعتداد بالذات على الظهور.

على اننا يجب أن لا نكتفى بالبقاء هناك، بل لنقم بنعمة الروح القدس الى قيامة الحياة والنور، حيث لا يرى الا وجه المخلص المقام من الأموات، ولا يسمع الا صوته، وحيث يعلن لنا الروح القدس ارادة الآب اذ تكون لنا حياة الشركة الكاملة.

(٢) قبول الرسالة :

كان هنالك اتجاهان للكلمات التى كلف ارميا بابلاغها فى هذه المناسبة العظيمة حين وقفت كل البلاد مشتاقة للسمع. فمن الناحية الأولى طلب الله الى الشعب ـ على لسان ارميا ـ أن يتوبوا ويرجعوا عن طرقهم الشريرة ومن الناحية الأخرى أمرهم بأن يدركوا أن قساوة قلوبهم سوف تلزمه بأن يجعل قدسهم ـ الذى هو موضع فخر الجميع ـ خرابا تاما كموقع شيلوه الذى حل به الخراب منذ خمس

مائة سنة. من المستحيل أن ندرك تمام الادراك مقدار ما أثارته هذه الكلمات من ثورة فى نفوس السامعين فيبدو أنهم اعتقدوا بأن الله لا يستطيع أن يحمى شعبه، أو أن ديانتهم قد أصبحت فاترة، ولذا فانه لا يريد ان يحميهم. لقد أكد لهم الأنبياء والكهنة بأن وجود هيكل الرب بينهم ضمان كاف لنجاتهم، ولذا فان أية اشارة بان مصيرهم يكون مثل ذاك الذى طنت به اذنا كل من سمعه أيام صموئيل تعتبر أشد أنواع الوقاحة "وكان لما فرغ ارميا من التكلم بكل ما اوصاه الرب ان يكلم كل الشعب" انه وجد نفسه فجأة أمام فوهة بركان غضب كل الشعب.

هكذا حصل لبولس فى الأيام التالية حين ادعى أعداؤه بأنه دنس الموضع المقدس، فأثار هذا الادعاء سخط كل الشعب، حتى هاجت المدينة كلها، وتراكض الشعب، وأمسكوا بولس وجروه خارج الهيكل، ولم ينج الا بتدخل قوة من الجنود الرومانيين الذين حملوه بكل جهد، وأنقذوه من أيدى الشعب الذين "كانوا يتبعونه صارخين ضده" (اع ٢١ : ٢٧ ـ ٣٦).

لاشك فى أن ارميا كان ممكنا أن يلقى حتفه بنفس الطريقة لولا تدخل بعض الرؤساء سريعا.

هذا ما تلقاه دواما كلمة الله من البشر. عندما يقبل الشعب كلماتنا بهدوء وكقضية مسلمة وجب علينا أن نتساءل عما اذا كانت هى بعينها كلمة الله. فان كلمة الله لأولئك الذى يعيشون فى خطيتهم لايمكن الا أن تكون كنار محرقة، كمطرقة كسيف ذى حدين. وهنا أيضا نجد محكا أكيدا نختبر به رسالتنا لنتأكد عما اذا كانت من مجرد خيالنا أم أنها رسالة الله. فان ما ينال استحسان البشر قد ينقصه ختم الملك، وقد يكون هدف حامله أن يلقى كلامه أكثر قبولا لدى السامعين، وبالتالى يلقى هو نفسه ترحيبا وحظوة أكثر.

(٣) وساطة مباركة :

كان الرؤساء جالسين فى القصر، وحينما وصلتهم أنباء الثورة صعدوا الى الهيكل. وكان وجودهم باعثا على تسكين الشغب، ومنع قادة الثورة من اتمام مقاصدهم نحو قتل النبى الأعزل. فانهم للحال اجتمعوا وعقدوا ما يشبه محكمة

الاستئناف، دعى اليها النبى والشعب معا، وقف الكهنة والأنبياء لتوضيح رغبة الشعب، وطلبوا الحكم بموت ارميا، ثم أداروا وجوههم من المحكمة الى الشعب ليطلبوا موافقتهم. وبعد ذلك وقف ارميا للدفاع عن نفسه. وكانت حجته انه لم يكن ممكنا الا أن ينطق بالكلمات التى ائتمنه عليها الرب، وأنه انما يردد نبوة ميخا فى أيام حزقيا ويزيدها تأكيدا ثم اعترف بأنه فى أيديهم، ولكنه حذرهم قائلا أن الدم البرئ يجلب النقمة الالهية على جميعهم، وفى ختام حديثه أكد لهم مرة أخرى أن رسالته من الله مباشرة.

ويبدو أن هذا الدفاع الجرئ الحكيم حول التيار فى مصلحته فان الرؤساء أصدروا هذا القرار "فقالت الرؤساء وكل الشعب للكهنة والأنبياء ليس على هذا الرجل حق الموت لأنه انما كلمنا باسم الرب الهنا". أما الشعب المتقلب، الذى يميل مع الريح، فيبدو أنهم وافقوا بأجمعهم على هذا القرار وبذلك تحالف الرؤساء والشعب ضد الأنبياء والكهنة الكذبة. وقد أيد هذا القرار أيضا بعض شيوخ الأرض الذين قدموا من كل مدن يهوذا، والذين ذكروا الشعب بأن حزقيا الملك الصالح تصرف بعكسهم تماما مع ميخا النبى اذ أصغى الى

توبيخاته، وطلب رضاء الرب، ورفع غضبه عنهم.

هكذا يخبئ الله خدامه الأمناء فى قبضة يده. وكل آلة صورت ضدهم لا تنجح (اش ٥٤ : ١٧). لأنه يسترهم بستر وجهه من مكايد الناس. يخفيهم فى مظلة من مخاصمة الألسن" (مز ٣١ : ٢٠).

مناسبة تاريخية

ليست لدينا بيانات فى الكتاب المقدس عن سقوط نينوى سوى نبوة ناحوم. قال ستانلى Dean Stanley "ان امبراطورية أشور اختفت من الأرض بغتة، وبلا جلبة، حتى أننا لا نحس بسقوطها الا من حقارة قصور آخر ملك لها، ومن صوت الفرح الذى رفعه نبى اسرائيل (أى ناحوم) على اثر خرابها". وعلى أنقاضها قامت الامبراطورية البابلية أولا تحت حكم نبوبو لاسر ثم تحت حكم ابنه الأعظم منه نبوخذ نصر. يصف لنا حزقيال النبى قيامها كارتفاع نسر عظيم، ذى جناحين كبيرين مملوئين من ريش مختلف الألوان كأن ذلك يمثل الشعوب المختلفة التى تكونت منها الامبراطورية (حز ١ : ٣).

رأينا فى فصل سابق أن مصر كانت سيدة كل الأراضى، نهر النيل الى نهر الفرات. ولكن حالما أسس الكلدانيون مملكتهم على أنقاض نينوى وجهوا اهتمامهم لانتزاع بعض الأجزاء من امبراطورية فرعون نخو المتسعة. هذه الحالة سبق أن رآها ارميا قبل حصولها بفترة طويلة جدا، وصور منظر الصراع العنيف عند كركميش ـ على نهر الفرات ـ ونتيجته حيث تنازع الشعبان العظيمان على سيادة العالم.

لقد سمع ارميا الدعوة لاعداد العدة للحرب، ورأى الخيل مسلحة تسليحا قويا، والفرسان منتصبين بالخوذ، وجنود مصر المصريين يتدفقون باندفاع شديد ضد أعدائهم كفيضان نهر النيل حينما تتلاطم مياهه. أما مستعمراتها : كوش، وبوط. واللوديون الحاذقون فى مسك القوس، فقد رآهم يجاهدون عبثا لمنع هروب أبطالها، وأخيرا هربوا بأقصى سرعة دون أن يلتفتا الى الوراء، ورأى السيف يأكل ويشبع ويرتوى من دمهم، وعويل الهاربين يملأ الأرض وسقط الجبار دون قيام (ارميا ٤٦ : ١ ـ ١٢). لم تسترد مصر قوتها قط، ولم تجسر على ان تفعل أكثر من أن تجاهد بكل قوة ضد نير نبوخذ نصر الذى وضع على عنقها وشد وثاقه.

بعد هذا لم يكن ممكنا صد هجوم نبوخذ راصر، الذى ربما يكون قد اشترك فى الحكم مع أبيه الشيخ، والذى بدأ حكمه فى السنة الرابعة ليهوياقيم (ص ٢٥ : ١). كان هذا الملك الشاب كالنمر (على حد تعبير حبقوق الذى كان قد بدأ خدمته وقتئذ)، فهجم على الشعوب التى كانت خاضعة لمصر، والتى كانت قد ساعدتها فى حملتها واذ ذاعت فى كل العالم أنباء قوته وبسالته تنبأ ارميا قائلا انه سوف يكون عصا تأديب فى يد اللّه لقصاص الشعوب من أجل تماديهم فى الشر. "من أجل أنكم لم تسمعوا لكلامى. هأنذا أرسل فآخذ كل عشائر الشمال والى نبوخذ راصر عبدى ملك بابل وآتى بهم على هذه الأرض وعلى كل سكانها وعلى كل هذه الشعوب حواليها فأحرمهم وأجعلهم دهشا وصفيرا وخربا أبدية ... وتصير كل هذه الأرض خرابا ودهشا وتخدم هذه الشعوب ملك بابل سبعين سنة" (ص ٢٥ : ٨ ـ ١١).

عندما غزا ملك بابل يهوذا للمرة الأولى اكتفى بأن يقيد يهوياقيم بسلاسل، ويأخذه الى بابل. لكن يبدو أنه عدل عن فكره، وأعاده الى عرشه كأحد أتباعه، وقطع معه عهد بالولاء والطاعة له (حز ١٧ : ١٢ و ١٣) لقد جرد الهيكل

من آنيته النفيسة لتزيين بيت الهه فى بابل، وأسر الكثيرين من عظماء الأرض، من بينهم دانيال ورفاقه الثلاثة (دا ١ : ١ ـ ٧) بعد ذلك عاد مسرعا الى بابل، اذ استدعى اليها على أثر الأنباء التى وصلته عن موت أبيه نبوبلاسر.

ظل يهوياقيم أمينا لعهده ثلاث سنوات (٢مل ٢٤ :١) بعد ذلك خدعه قلبه، اذ ظن بأنه يستطيع الحصول على الاستقلال على أساس التحالف مع الشعوب المجاورة. تبودلت الرسائل بينه وبين فرعون "ليعطه خيلا وشعبا كثيرين" رغم احتجاج حزقيال وارميا كل ذلك الوقت، وتأكيدهما له بأن اللّه لابد أن ينتقم منه لكسر تعهده مع ملك بابل. كان هذا الوقت فرصة لنشاط غير عادى من قبل أنبياء الرب، الذين بذلوا أقصى الجهد لاصلاح غلطة سياسية، أساسها انحراف أخلاقى، ونتيجتها الحتمية انتقام مروع (حز ١٧ : ١٥ ـ ٢١).

وتم ما كانوا يخشونه. فان نبوخذ راصر، الذى لم يكن مستعدا لاحتمال خيانة ملك خاضع له، حشد قواته وتقدم عبرالصحراء للانتقام من يهوياقيم الضعيف الخائن. وفى أثناء

ارتحاله الى أورشليم تمت الحوادث المفصلة فى الفصلين التاليين اللذين نرى فى أولهما مناداة بالصوم، وفى الثانى اجتماع الركابيين الى المدينة، مع بعض اللاجئين الآخرين ليتحصنوا فيها.

لا يوجد بيان شاف عن تاريخ حياة ارميا مدة هذه السنوات الثلاث أو الأربع. لابد أن قلبه امتلأ غيرة وطنية اذ أبصر جيوش الأعداء تتقدم نحو المدينة المقدسة لتحاصرها. كان يعتقد أن هذه هى سنة البلية والقحط، وأنه لا رجاء الا فى الله. وطالما رددت شفتاه كلمات تشبه تلك التى وجهها بطل مدينة البندقية الى مدينته (التى أحبها من كل قلبه محبة لا تقل عن محبة اليهود لمدينة أورشليم) قائلا : "ان خطاياك يا مدينة البندقية هى سبب بلاياك هذه. والآن توبى. صلى، وليتحد أبناؤك. لقد تعبت كل أيام حياتى لأعرفك حقائق الايمان والحياة المقدسة والتقية، ولم ألق الا الآلام والسخرية والتعيير".

* * *

- ١٢ -

«الكلمة الخالدة التى لا تفنى»

(ارميا ٣٦ : ٢٣) (١)

الحق ان سحقته فى
الأرض نبت ثانية اذ له
أجيال الله الأبدية.
والباطل يزهق ملتويا
فى الألم ويموت وسط
عابديه

والآن لندخل الى مخدع النبى الخاص الذى لا يغادره، لكى لا يثير حقد الشعب الشديد وبغضهم. جاء باروخ

(١) "وكان لما قرأ يهودى ثلاثة شطور أو أربعة انه شقه بمبراه الكاتب وألقاه الى النار التى فى الكانون حتى فنى كل الدرج فى النار التى فى الكانون".

صديقه الحميم، وكان من الأشراف والعلماء، فأملى عليه كلمة الرب التى وضعها فى قلبه، ودونها باروخ بكل حرص.

قال الرؤساء فيما بعد لباروخ : "أخبرنا كيف كتبت كل هذا الكلام عن فمه" فأجاب باروخ "بفمه كان يقرأ لى كل هذا الكلام وأنا كنت أكتب فى السفر بالحبر".

وعندما امتلأ الدرج لم يتجاسر ارميا على الذهاب الى الأماكن التى اجتمع فيها الشعب، بل دفعه الى باروخ، وأمره بقراءته الى الجماهير المجتمعة. كانت أورشليم غاصة بجماهير الشعب بشكل غير عادى، فانهم كانوا قد اجتمعوا من كل أطراف البلاد لممارسة الصوم العظيم الذى نودى به بمناسبة اقتراب جيش بابل. تجمع الشعب فى بناء الهيكل منزعجين لشدة الخوف وصارخين بأعلى صوتهم بذلك النداء الذى طالما ندد به ارميا "هيكل الرب، هيكل الرب هو" ومتصورين أن هنالك بركة خاصة فى أبنية الهيكل ومتوهمين أنهم بتذللهم وصراخهم الشديد الذى يمزق نياط القلوب ينالون عطف القدير ويردون عن أنفسهم ذلك

القضاء المحتوم.

اختار باروخ موقفا "فى الدار العليا فى مدخل باب بيت الرب الجديد" وبدأ يقرأ، بينما تجمع الشعب مكتظين حوله. ذهل الشعب جدا لدى سماعهم هذا الكلام وكان بينهم شاب يدعى ميخايا هو حفيد شافان، قد تأثر جدا وأدهشة ما سمعه حتى أنه أسرع لاخبار الرؤساء بحقيقة الأمر وكانوا وقتئذ جالسين فى القصر الملكى فى هيئة مؤتمر وهم بدورهم أدهشهم ما سمعوه حتى أنهم أرسلوا هذا الشاب الى الهيكل لاستدعاء باروخ لكى يأتى من غير ابطاء ويقرأ كلمات النبى فى مسامعهم. وتلبية لدعوتهم حضر وجلس وسطهم وبدأ يقرأ.

كان بين جماعة الرؤساء كثيرون من الأشراف والعظماء: اليشاماع كبير رجال الدولة. الناثان والد الملكة الذى أعاد النبى أوريا من مصر ليلقى حتفه، وغيرهما. وقع على الجميع خوف عظيم اذ سمعوا هذه الكلمات المروعة المنبئة بالخراب المحتوم والتى لابد أن تكون قريبة مما هو مدون فى الاصحاح ٢٥ من هذا السفر. ورغم أنهم انضموا الى عامة

الشعب فى بغض النبى الا أنهم كانوا واثقين تماما ان له كل الحق فى تنبؤه بالضيق القادم، ووجدوا أنهم من واجبهم اخطار الملك بمحتويات الدرج.

وقبل أن يقدموا على هذا نصحوا باروخ وارميا أن يختبئا. لأنهم كانوا يعرفون ما اتصف به يهوياقيم من ظلم وعدوان. وترك الدرج فى غرفة اليشاماع. ويبدو أنهم ظنوا فى أول الأمر أن مجرد تلخيص ما سمعوا فيه كل الكفاية. ولكن هذا لم يرض الملك الذى أمر "يهودى" باحضار الدرج نفسه. كان الوقت شتاء، حوالى شهر ديسمبر. وكان الملك يشغل الجانب الشتوى من قصره، وكانت النار مشتعلة فى الكانون للتدفئة.

اننا لنتخيل أمامنا هذا المنظر واضحا كل الوضوح: الملك جالس أمام النار، والرؤساء واقفون حوله. ويهودى يقرأ محتويات الدرج. الذعر والفزع والخوف تملأ قلوب الشعب فى كل أرجاء المدينة. والذين فى الهيكل بصفة خاصة. واذ بدأ يهودى يقرأ بدت علامات الغضب على وجه الملك. وبعد أن قرأ الكاتب ثلاثة أو أربعة أعمدة خطف يهوياقيم

الدرج من يده، وطلب منه المبرة التى تلازم الكاتب عادة وبدأ يمزق الدرج، ثم ألقاه الى النار باحتقار.

ان أشر الناس لابد أن يجدوا من يؤنبهم، وأشرسهم طباعا لابد أن يلقوا أصواتا مشتكية ومحتجة. هكذا كان الحال مع الملك يهوياقيم. فان دلايا وجمريا با الناثان نفسه ترجوا الملك أن لا يحرق الدرج ولكنهم عبثا حاولوا اقناعه فانه لم يهدأ باله حتى مزق كل الدرج وأحرقه عن آخره. ولم يكتف بهذا العمل الفاضح والتحدى الجرئ بل أعطى الأمر للقبض على ارميا وباروخ فورا، ولما حاول رسله تنفيذ أمره لم تجد محاولتهم نفعا.

وعلى أى حال فان ابادة الدرج لم يحل دون القضاء المروع الذى كانت سفينة الدولة مسرعة اليه تحت ارشاد قائدها الأحمق وعلى درج آخر كتبت نفس الكلمات السابق تدوينها على الدرج الذى أحرق. وأضيفت اليها كلمات تنبئ بالاهانة والعار والفضيحة التى سوف تلحق بجثة الملك "وتكون جثته مطروحة للحر نهارا وللبرد ليلا".

١ ـ عيون مفتوحة لترى :

كان هنالك تفاوت كبير بين باروخ، الذى كان قلبه يذوب رقة وعطفا نحو ارميا، وبين "يهودى" أو الرؤساء.

كذلك كان هنالك فارق عظيم جدا بين ذلك الكاتب الأمين (باروخ) وبين النبى المتصل قلبه بالسماء، فالأول لم يكن ممكنا الا أن يكتب ما يسمعه من هاتين الشفتين الناريتين، لم ير شيئا، لم يدرك شيئا، لم يتسع مدى نظره الى أبعد من جدران غرفته. أما الثانى فقد كان كل مدى الحق منبسطا أمامه، الطرف الآخر للمحيط بما يحف به من صخور ورمال، الأمواج المتلاطمة، السحب المكدسة، السفينة تمخر عباب المياه وتجاهد للوصول الى الشاطئ. كان يخيل لارميا أن جدران الغرفة التى جلس فيها مع صديقه قد أصبحت شفافة، ينظر خلالها الى ما وراءها ويقرأ رسالته مما رأى، كمن يقرأ فى كتاب.

كان هذا هوعمل الروح القدس الذى حركه، والذى كانت وظيفته الرئيسية أن يفتح عيون الأنبياء والرائين فى القديم الى الحقائق العظمى فى عالم الأبدية غير المنظور،

التى كانت سوف تمثل بعد وقت وجيز فى العالم الوقتى المنظور.

لقد رأوا رؤى اللّه. رأوا العرش تحمله الكروبيم أبصروا عجلة العناية الالهية تدور فى سرعتها، قيام وسقوط امبراطوريات عظيمة، اخضاع شوكة الخطية والألم بقوة القدير الآتى. كانت مهمة ارميا أن يتحدث بما عرف، ويشهد بما رأى.

لا يوجد أى احتمال لتكرار هذا فى أيامنا. على أنه لا يزال فى امكان البشر أن يكونوا رائين. قد يجلس شخصان جنبا الى جنب. فينسدل ستار الجسد كثيفا أمام الواحد وينشق الى اثنين من فوق الى أسفل أمام الآخر. الأول عديم التفكير، لا مطمع له، لا رغبة له الا فى الوقتى المنظور. أما الثانى فيرى رفقة اللّه له ورعايته، يرى الرئاسات والقوات السماوية، خدمة الملائكة، مقاومة الشياطين، مركبات وجيش الخلاص، الجعالة والأكليل، المسيح فوق كرسى الدينونة، الوطن عبر النهر.

ان لحما ودما لا يعلنان هذه، بل روح اللّه. لأنها أخفيت

عن الحكماء والفهماء وأعلنت للأطفال الذين يحبون الله. فطوبى لمن انفتحت عيون أذهانهم، ليعلموا ما هو رجاء دعوته الفائقة نحو المؤمنين (أف ١ : ١٨ و ١٩).

من ألزم الأمور أن يكون لكل المسيحيين قوة الابصار هذه. انها أعمق من أن تكون موهبة عقلية، فهى قوة روحية اذ ليست نتيجة للتعليم أو وليدة التعليل، بل هى بصيرة النفس. ولا تكتسب بالعلوم العالمية، بل هى عطية ذاك الذى يستطيع وحده أن يفتح عينى الأعمى، ويزيل كل غشاوة تحجب عنا الأمور الأبدية غير المنظورة.

ان كانت هذه تنقصك أيها القارئ العزيز فاطلبها من يدى يسوع، ارتض بأن تعمل مشيئته، وعندئذ تعرف التعليم (يو ٧ : ١٧). من المحزن جدا أن تكون أعمى. ولا تستطيع أن تبصر، بينما تحيط بك من كل ناحية جبال الله الشامخة كما تحيط جبال الألب بالفندق السويسرى الذى يصل اليه المسافر بعد أن يرخى الليل سدوله، فيأكل ويشرب وينام، دون أن يشعر بأن قريبا منه جمالا منقطع النظير.

يقال عن "أمبير" الكهربائى العظيم، الذى كان قصير

البصر دون أن يدرى، أنه حينما أدرك النقص الذى فيه على أثر استعمال نظارة أحد أصدقائه عرضا بكى بكاء حارا وأذرف الدموع سخينة، اذ أدرك مقدار ما حرم منه من جمال العالم الذى حوله وبهجته ولذته طول أيام حياته الماضية.

وأحرى بالكثيرين منا أن نرثى لحالنا من أجل الخسارة الفائقة جدا التى أصابتنا بسبب قصر البصر الذى يتحدث عنه الروح القدس (٢ بط ١ : ٩).

أما ان كانت لك العين المفتوحة فانك لا تحتاج الى ما يؤيد لك الحقائق الايمانية، مجد الرب المقام من بين الأموات، العالم غير المنظور. بل تقول مع المرأة السامرية "قد رأيته بنفسى" ولا تحتاج لأى دليل آخر سوى احساساتك الروحية. ورغما عن المشاكل التى قد تهاجمك كمؤمن فانك تستطيع أن تقول بكل ثقة وجسارة "كنت أعمى والآن أبصر" ان الآباء الذين مدوا أيديهم ليحيوا رؤية المدينة التى لها الأساسات - أورشليم الجديدة - التى يراها كل المؤمنين نازلة من السماء من عند الله، يقدمون المثل الأعلى للمسيحيين فى كل جيل. وكل الذين يرون هذه الأمور لا يبالون مطلقا بأى حرمان تسببه لهم الخيمة بل - كأرميا - يرتفعون فوق بغض الانسان وأهوال الحصار.

٢ ـ استخدام المبراة :

يستخدم البشر المبراة لاتلاف الكتاب المقدس بطرق منوعة:

١ ـ ضمن هذه الطرق الحيل التى يلجأ اليها بعض خدام الكلمة. لقد استخدموا المبراة فعلا. وسوف يستخدمونها. ويا للحكمة العالمية التى يستخدمونها فى هذا السبيل لأنه اذا ما وصل الكتاب المقدس لأيدى الشعب تضايق المعلم الكاذب الذى أضلهم لمنافعه الشخصية. لقد استخدمت المبراة احدى الكنائس فى أوربا، فأغلقت الكتاب فى وجوه الشعب (*) الى أن فتحه الله، ونشرته المطابع فى كل أرجاء المسكونة.

٢ ـ يلى ذلك **جماعة الملحدين** الذين يشهرون سيف التهكم الحار والسخرية اللاذعة بعقليتهم المقلوبة محاولين اتلاف الكتاب المقدس. ان العداوة التى بدت من رؤساء هذا العالم قد انتجت أثرها السئ فى دور العلم، وحرضت

(*) حدث هذا فى القرون المظلمة ولكن ليس الأمر كذلك الآن ولله الحمد. (المعرب)

المتعلمين على ارتكاب جرائم مماثلة. فان معمل الكيماوى، ومطرقة الحداد، وأدوات علماء طبقات الأرض، وتلسكوب الفلكى، واحصائيات الرياضى، واكتشافات المكتشف ـ هذه كلها استخدمت بدورها كمبراة للاتلاف. وفى كل جيل تمتد يد الاتلاف من أشخاص كهؤلاء للكتاب المقدس.

٣ ـ يلى هؤلاء **جماعة النقاد** الذين جاوزوا كل حد فى استخدام المبراة فى أيامنا الحاضرة، فالبعض يبدو أنهم يتلذذون بمهاجمة الكتاب المقدس، خصوصا العهد القديم. ويبترون بعض أجزاء من أسفاره كأسفار موسى واشعياء ودانيال. هنالك مجال للبحث النزيه فى متن الكتاب المقدس ولغته، وكاتبيه، والدليل على سلامته رغم الأيدى الكثيرة التى استخدمت فى نسخه فى الأجيال المتعاقبة. ولكن هذا يختلف كل الاختلاف عن الخطة الحمقاء التى يلتزمها جماعة النقاد. فانهم مثلا يدعو بأن أجزاء كبيرة من أسفار موسى الخمسة تنسب الى عصر عزرا، وأن سفر دانيال ينسب الى عصر المكابيين.

٤ ـ كلنا نجرب باستخدام مبراة «يهودى» :

لعله لا يوجد من يخلو من تلك العادة ـ ولو دون أن يدرى ـ وهى محاولة تجنب بعض الفقرات التى تتعارض مع عقائدنا التى ربينا فيها أو التى ندين بها، أو محاولة التخفيض من شأنها.

فى قراءتنا الشخصية للكتاب المقدس لنحذر من استخدام المبراة. فان بعض المسيحيين الغيورين يقتطعون منه أسفارا برمتها، أو بعض أجزاء مما تحمل حقائق معينة، كتلك التى تشير الى مجئ المسيح الثانى بما تتضمن من دعوة للاستيقاظ والتمنطق بأسلحة النور، وتلك التى تشير الى الدود الذى لا يموت والنار التى لا تطفأ، وهلاك الأشرار المحتم، وتلك التى تصف رموز وظلال الناموس القديم، أو تلك التى تقدم الينا بعض الحقائق الجوهرية والتعاليم الأساسية كما فى الرسائل.

على أن كل من يقتطع من الكتاب أى شئ يعرض نفسه للخطر. فالكتاب كالخبز النقى الذى يحتوى كل العناصر الضرورية للحياة. فاذا أخرجنا منه المادة النشوية أو

السكرية أو النترات أو الفوسفات، أدى ذلك الى الضعف الشديد. لذلك كانت القاعدة الذهبية هى قراءة الكتاب المقدس كله ككتاب واحد لا يتجزأ. وبطبيعة الحال كل له أجزاء محبوبة من الكتاب يطيل فيها التأمل كالمزمور ٢٣، اشعياء ٥٣، يوحنا ١٤. ولكن الى جانب هذه يجب أن يدرس الكتاب كله باهتمام ودقة وخشوع، فانه كله موحى به، ولذلك فهو نافع، لكى يكون انسان اللّٰه كاملا، مستعدا لكل عمل صالح.

٣ ـ الكلمة الخالدة لا تفنى :

قد يتاح للبشر ملاشاة الكلمات والمادة التى كتبت عليها أما الكلمة نفسها فلن يستطيعوا النيل منها. فانها هى كلمة اللّه الحية الباقية الى الأبد ولو يبس كل جسد كعشب، وكل مجد انسان كزهر عشب (١بط ١ : ٢٤) ان الذين يرفضون شهادة كلمة اللّه، ويطأونها بأقدامهم، ويحتقرون توبيخاتها ويزدرون بانذاراتها قد ينزعجون اذ يجدون أن موقفهم بأزائها لن يستطيع أن يغير شيئا فى تلك الحقائق التى تشهد لها أو يؤثر فيها أقل تأثير.

كتب ارميا درجا آخر. ان المبالغ التى أنفقت لشراء نسخ الكتاب المقدس لاحراقها عند كنيسة القديس بولس أتاحت الى تنديل (١) اصدار الكتاب المقدس فى طبعة أكثر أناقة وأقل نفقة. وبهذه المناسبة نقرر هذه الحقيقة الخطيرة لعل أعجب أعجوبة أنه رغم المحاولات الدنيئة التى بذلت للقضاء على الكتاب المقدس فانه لا يزال باقيا كما هو، توزع منه ملايين النسخ، ويذاع فى أرجاء العالم، لم يمح منه اصحاح واحد، ولم تقتطع منه أعجوبة واحدة أو مثل واحد، ولم ينتقص منه وعد واحد.

يدعى البعض مرارا أو تكرارا : بين الآونة والأخرى، أن

---

(١) وليم تنديل (William Tyndale) (١٤٩٢ ـ ١٥٣٦) تلقى دراسته فى اكسفورد وتملكته رغبة قوية فى أن يكون واسطة لتقديم الكتاب المقدس لبلاده بلغتها (الانكليزية). فأتم ترجمة العهد الجديد فى وتنبرج بألمانيا ونشرت أولا فى أنتورب (بيلجيكا) ثم تقدم بها الى بلاده (انكلترا) وهناك أحرقت علنا أمام صليب القديس بولس. وبعد ذلك اشترك مع كوفرديل (Miles Cover-dale) فى ترجمة العهد القديم ولكنه لم يتم سوى أسفار موسى الخمسة وسفر يونان. وفى ١٥٣٥/٥/٢٤ ألقى القبض عليه كهرطوقى، ثم حكم عليه بالموت شنقا وحرقا فى ١٥٣٦/١٠/٦.

الكتاب ليس الا مجموعة أسفار غير موثوق بها، وضعت فى عصور مختلفة لا تجمع بينهما رابطة سوى غلاف الكتاب ورغم هذه الترهات والافتراءات فانه بين أيدينا بسلطانه الكامل غير المنقوص.

أما الحقائق التى شهد لها ارميا فقد تمت كلها حرفيا، فلا المبراة ولا النار استطاعت أن تحول دون القضاء المروع الذى حل بالملك والمدينة والشعب. قد يمزق ربان السفينة ـ فى سكره ـ الخريطة التى تبين له موقع الصخور فى طريق السفينة، وقد يوثق بالسلاسل ذلك البحار الذى يلفت نظره اليها، ولكن ذلك لن يحول دون ارتطام السفينة بالصخور، ما لم يحكم ادارة الدفة.

فليتنبه أولئك الذين ينكرون شهادة الكتاب المقدس عن قصاص الخطية وغضب الله، فان هذه الحقيقة ثابتة ثبات عرش الله واكليل المؤمنين. قد تعبث بالأوراق التى دون عليها الكتاب، ولكن الحقائق التى يحملها تبقى راسخة رسوخ الجبال الدهرية.

* * *

- ١٣ -

«الركابيون»

(ار٣٥ : ٦ ـ ١٠)

يا لها من سعادة اذا ما مات

المرء شبعان أيام ولكن كم

تكون الحياة أسعد وفى هناء

تام اذا كنا قبل أن تنتهى

نستطيع أن نتخلص من نير

هذا العالم الذى لا يقدم الا

الحسرات والأنات والآلام

لنخدم ربنا الذى تجب له

وحده الطاعة والاكرام

(كرر)

قبل أن يهجم نبوخذراصر على أورشليم كان قد سبقه

فى شن الغارة عليها الأشوريون والموآبيون والعمونيون. وكانت مهمة هؤلاء التمهيد للهجوم الأعظم. فقد اكتسحوا الأودية، وقتلوا الفلاحين، والتهموا المحاصيل، وألقوا الرعب والفزع فى قلوب الجميع. لذلك فان سكان البلاد المجاورة اذ أرادوا أن ينجوا بأنفسهم وببعض أمتعتهم تركوا بيوتهم وأرضهم تحت رحمة الغزاة، وهربوا الى العاصمة ليتحصنوا فيها، معتقدين بأنهم لابد واجدون سلاما وأمانا داخل أسوار صهيون المنيعة. ويا للضجة التى لابد أن تكون قد حصلت اذ كانت الجماهير تتدفق يوما فيوما على المدينة التى كانت مكتظة بسكانها من قبل، لأنه انى لها أن تقدم لهذه الجماهير الجديدة مأوى وطعاما؟

ضمن القبائل التى وفدت على العاصمة كانت توجد قبيلة أثارت دهشة عظيمة بسبب أخلاقها الغريبة وعوائدها الشاذة فانها قد أتت بقوة عظيمة وبطش شديد. كان رئيسها يدعى يازنيا (من يستمع اليه الرب). وكان معه اخوته وأولاده ورؤساء باقى القبائل. وقد رفضوا الاقامة فى بيوت المدينة أو فى مساكنها الدائمة، بل أقاموا خيامهم الداكنة فى مكان خلاء داخل أسوار المدينة، وهناك انتظروا تصرفات الزمان.

كان تاريخهم مجيدا. يرجع الى أيام العبرانيين الأولى فانه عندما كان اسرائيل يجتازون برية سينا أظهرت لهم قبيلة القينيين عطفا جزيلا، وهذا أسس علاقات ودية بين الشعبين. ويبدو أنهم اعتنقوا معتقدات اسرائيل الدينية، ورافقوهم الى أرض الموعد. احتفظ القينيون بنزاهتهم كرعاة مواش، ولهذا استبقوا علاقاتهم الودية مع اسرائيل فى العصور المتوسطة. ومن هذه القبيلة نشأ الركابيون، وهذا هو الاسم الذى أطلق على هذا الشعب العجيب ساكن الخيام (قض ٤ :١٧ _ ٢٤، ١صم ١٥ :٦، ١ أى ٢ : ٥٥).

وفى أيام ايليا كان رئيس أحد فروع القينين يدعى يوناداب بن ركاب، ولعله تأثر الى حد كبير بتعاليم ايليا. واذ رأى أن تيار الفساد والاثم قد تعاظم جدا، وخصوصا فى المملكة الشمالية التى كانت خاضعة لنفوذ ايزابل وأخاب السيىء، تسرب اليأس الى نفسه، فقد أصبح الجو كله مسمما خانقا، ووبأ الفساد وحمى النجاسة فى ازدياد مضطرد.

سعى هذا الرجل النبيل (الذى اشترك فيما بعد مع ياهو

فى استئصال العبادة الوثنية) وبذل الجهد لانقاذ شعبه من هذا المصير، فأخذ عليهم تعهدا قويا أن لا يشربوا خمرا الى الأبد، ولا يبنوا بيوتا، ولا يكون لهم كرم ولا حقل ولا زرع، بل يسكنون فى خيام. انقضى على هذه الحال مائتان وخمسون عاما. وعندما وصلوا أورشليم ظلوا أمناء لتقاليد الآباء، وبكل قوة وقفوا بين شعب المدينة الغارقين فى العبادة الوثنية، شاهدين لهم بالحياة السامية الطاهرة، التى كان عليها شعب الله فى القديم.

١ ـ ارميا يمتحن الركابيين :

حالما سمع صوت وصولهم خارج المدينة، وصل الخبر الى أذنى ارميا، أحس بدافع الهى داخلى ليستخلص منهم درسا جوهريا لشعبه. استخدم النبى كل حكمة وكل مهارة وكل حذق (لم يكن الدافع لها سوى المحبة الملتهبة) لايقاظ شعبه، حتى يدركوا موقفهم الحقيقى أمام الله. واذ أخذ قادة الركابيين معه توجه الى الهيكل، الى مخدع بنى حانان، الذى كان يدعى رجل الله، وكان هذا المخدع يجاور مباشرة مخدع الرؤساء، وفوق مخدع حارس الباب.

ولعل جماعة صغيرة من اليهود استرعى نظرهم اجتماع النبى بهؤلاء الرجال الغريبين فى منظرهم، فاقتفوا أثرهم ودخلوا معهم ليرقبوا النتيجة. تأملوا بدقه فى تصرفات ارميا حين جعل أمام بنى بيت الركابيين طاسات ملآنة خمرا وأقداحا ليملأوها من الطاسات ويشربوا. ثم سمعوا أيضا هذه الجماعة المحافظة وهم يقولون "لا نشرب خمرا". وأعقبوا ذلك بتفسير سبب الإمتناع وهو ذلك التعهد القوى الذى التزموا به منذ بضعة قرون مضت.

كانت الحكمة من هذا التصرف واضحة جدا. فهنا أشخاص أمناء لرغبة أبيهم، الذى لا يعرفون عنه أكثر من اسمه، ويرفضون تلك الملذات التى قدمت اليهم والتى يتنعم بها الكثيرون. يا الفارق العظيم بين هؤلاء وبين شعب أورشليم، الذين أصروا على الاستهانة بكلمات الله الحى، التى توبخهم بصفة دائمة على خطاياهم. لقد كانت أوامر يوناداب تحكمية وظاهرية، أما أوامر الرب فانه يؤيدها اقتناع الضمير ومتفقة مع أعمق مبادئ الفضيلة والتقوى. كان صوت يوناداب خافتا آتيا اليهم من بعيد من وراء الأجيال أما صوت الرب فكان دائم التحدث اليهم فى كل عصر جديد،

وعلى لسان كل رسول أرسله اليهم مبكراً

لم يكن ممكنا الا أن تكون هنالك سوى نتيجة واحدة. فان يهوذا اذ كانوا قد غرقوا بجملتهم فى الفساد والرذائل التى حذرهم منها الله عبثا، كان يجب أن يحصدوا الزوبعة لأنهم زرعوا الريح (هو ٨ : ٧). لم يكن هنالك مفر من القضاء العادل الذى كان يقترب اليهم. وان كان الشعب لا يصغون لكلمات التحذير والتوسل والتهديد معتبرين أنها كلها مبالغة لا قيمة لها، فانهم سوف يضطرون على الأقل للاعتراف بأنه لم يسقط حرف واحد من كلمات التهديد بالانتقام.

ومن الناحية الأخرى أن هذا الاخلاص للمبدأ، وهذه البساطة والنزاهة والعفة والاعتدال، وهذا الولاء التام لارادة جدهم ـ هذه كلها لا تحمل معها فقط الضمان الكامل لبقاء الشعب الذى اتصف بها، بل تنال أيضا رضى القدير "وهكذا قال رب الجنود اله اسرائيل. من أجل أنكم سمعتم لوصية يوناداب أبيكم وحفظتم كل وصاياه وعملتم حسب كل ما أوصاكم به لذلك لا ينقطع ليوناداب بن ركاب انسان يقف أمامى كل الأيام".

ولهذه العبارة معنى عميق جدا، من الجلى بطبيعة الحال أنها تتضمن أن هذه العشيرة لا تنعدم من الوجود، ومما تجدر الاشارة اليه أن الدكتور ولف Dr Wollf، أحد المبشرين المتجولين، التقى بقبيلة فى بلاد العرب اعترفت بأنها تتصل بالركابيين، وقرأت اليه كلمات ارميا هذه من كتاب مقدس باللغة العربية، وأن السنيور بيروتى (Signor Pierotti) التقى بقبيلة قرب الطرف الجنوبى الشرقى للبحر الميت صرحت أيضا بأنها تتصل بالركابيين، وقرأت هذه الكلمات.

على أن هنالك معنى أعمق. فان هذه العبارة طالما استعملت فى الكتاب المقدس عن خدمة الكهنوت. لهذا ألا يحق لنا أن نستنتج بأنه حيث توفر هذا الاخلاص للمبدأ، وهذا الاعتزال عن العالم ـ الأمر الذى تميز به هؤلاء القوم ـ وجدت على الدوام حياة دينية قوية، وتوفرت معرفة الله وضمنت قوة الصلاة. وهذه هى المميزات الأساسية للكهنوت، وهذا يقودنا الى معان أخرى حرية بالتأمل الدقيق.

٢ ـ عناصر الحياة الدينية القوية:

ان العبارة "يقف أمامى" (أمام الله) تشير الى حياة روحية سامية، وتتضمن معرفة الله، القدرة على اتمام وصاياه موهبة الشفاعة من أجل الآخرين. كانت هذه العبارة محبوبة جدا لايليا، وكانت تشير الى سر قوة حياته، وقد اختارها جبرائيل الملاك لتحمل لعذراء الناصرة أقوى ضمان على صدق رسالته. يقينا ان كل من يقرأ هذه الكلمات يتوق أن تكون له هذه الحياة كل الأيام ليتنا جميعا نقف أمام ذاك الذى يشع من وجهه نور دونه نور الشمس. ولكن ان كان يجب أن لا تكون هذه مجرد رغبة جافة، وأضغاث أحلام فلنضع أمامنا ثلاث حقائق مستقاة من أقوال الركابيين:

١ ـ يجب أن يكون هنالك تمسك شديد بالمبادئ السامية:

والمثل العليا، كان ممكنا للركابيين أن يلتمسوا لأنفسهم المعاذير الكثيرة السطحية للاذعان لاقتراح ارميا الذى كان يريد به مجرد امتحانهم. فقد كانت الخمر أمامهم. ولم تكن هنالك خطية ضد الله فى شربها. والشعب من حولهم لم

يكن ممكنا أن يتعثروا بها. والنبى نفسه هو الذى دعاهم للشراب. ولكن رغم كل ذلك فقد ثبتوا على المبدأ الذى وضعه لهم يوناداب لارشادهم، ولم يترددوا فى التمسك به مهما هزأ بهم الآخرون.

هذا يختلف كل الاختلاف مع ما نراه اليوم. فان الناس عادة يميلون أن يسألوا عما تفعله الأغلبية، عما يفعله من هم فى درجتهم وفى مركزهم، وعما ينتظر منهم. ونحن ننجرف مع التيار. فكثيرا ما نسمح لحياتنا بأن تتجه الاتجاه الذى يدفعها اليه رفقاؤنا، أو أهواؤنا، أو أوهامنا، أو أمزجتنا. واذا ما أتيحت لنا فرصة للاختلاء بأنفسنا برهة، وبدأنا نقارن حياتنا بالمثل العليا لحياة البساطة الأولى، التى طالما تحدث عنها الكتاب المقدس، والتى نجدها ممثلة فى حياة الكثيرين من أبطال العهد القديم والعهد الجديد، التمسنا لأنفسنا المعاذير، وبررنا أنفسنا قائلين: طالما كان الغرض الأصلى سليما فالتفاصيل غير جوهرية.

هذا تعليل خاطئ. اننا نخطئ خطأ فاحشا اذا توهمنا بأن الغرض الأصلى من حياتنا يختلف عن دقائق الحياة

وتفاصيلها التى تبدو فى تصرفاتنا اليومية. فهذه تعلن حقيقة الحياة. وان أصدق صورة فرتوغرافية هى تلك التى تؤخذ عندما نكون غير مستعدين للعملية الجراحية.

اذن فالانسان الكامل هو الذى يجعل دواما الغرض الأصلى من حياته وكل دقائقها وفق المثل العليا. وليسمح لى قرائى الأعزاء ـ قبل أن نخطو خطوة أخرى ـ أن أتوسل اليهم بأن لا يبيحوا لأنفسهم أى عمل يستند الى العادة أو المزاج أو الرأى العام، بل يجب أن يقيسوا كل شئ فى حياتهم على ناموس ملكوت السموات، الذى يجب أن يتحكم فى كل شئ فى دائرة الحياة الروحية، صغيرها وكبيرها، حسبما يتحكم ناموس الجاذبية فى العوالم الضخمة كما يتحكم فى ذرات التراب.

واذا سأل سائل : أى مبدأ متسع فى مداه وقوى فى نفوذه يصلح لهذه الغاية؟ فلنستمع الى ما قاله أحدهم : "ان المبدأ الأول والأهم فى الحياة المسيحية هو أن نعتزم ارضاء الله فى كل تصرفاتنا. ولأن غالبية المسيحيين ينقصهم هذا العزم لذلك فانهم بعيدون عن الحياة الحقيقية".

والواقع اننا حين نتأمل فى مبادئ تلاميذ المسيح والقديسين والشهداء والمعترفين نجد أنهم كانوا جادين فى اتمام ارادة الله فى كل دقائق حياتهم، كما كان الركابيون يهتمون باتمام ارادة يوناداب الذى كان قد مات منذ أحقاب طويلة. لقد كان فكر الله ماثلا أمام الأولين كما كان فكر يوناداب ماثلا أمام الآخرين. ألم يكن هذا هو سر حياتهم القوية النبيلة؟

ياله من تغيير شامل يعمنا أجمعين ان كان الغرض الأول فى حياتنا هو أن نسعى دواما بأن نعمل ما يرضيه. هذا يزيد صداقتنا قوة واخلاصا. ويزيدنا نشاطا فى الخدمة، يزيد نظراتنا طهرا وقداسة، ويزيد الغيرة اضطراما. هذا يحول دون أية كلمة نابية، أى مزاح سخيف، ويحول دون الاسراف والتبذير، بل دون صرف أى مبلغ تبعث اليه محبة الذات والفخر العالمى، ويعود بنا الى "كل ما هو حق، كل ما هو جليل، كل ما هو عادل، كل ما هو طاهر، كل ما هو مسر، كل ما صيته حسن" (فى ٤ : ٨).

٢ ـ الامتناع عن مجاراة روح العصر :

كان ربحا جزيلا للركابيين من كل وجه أن يمتنعوا عن شرب الخمر. فقد كانت الخمر مقترنة بالترف والفساد ورذائل ذلك العصر (اش ٢٨ : ١ ـ ٨). فامتناعهم عن شرب الخمر لم يكن فقط احتجاجا ضد الشرور التى كانت تفت فى عضد الشعب فى عصرهم، بل كان أيضا ضمانا أكيدا لعدم اشتراكهم فى تلك الشرور.

وفى أيامنا هذه يمكن تطبيق نفس المبدأ. فمهما قيل عن فائدة الخمر فى بعض حالات المرض أو الضعف فمما لاشك فيه أنها ليست ضرورة كمادة تغذية عادية. انها تقترن عن قرب شديد جدا بأقبح الرذائل، الشهوة الجامحة، صالات الرقص، أماكن اللهو والفجور والمجون، ليعترف الممعنون فى الخطية بأنه لولا الخمر لما وصلوا الى ما وصلوا اليه.

يضاف الى كل هذا تلك النتائج الحتمية المباشرة للخمر نحو ارتكاب الجرائم، والفقر، والبؤس، والانتحار، والموت، تلك النتائج التى صرح أحد كبار رجال السياسة بأنها أشد فتكا من المجاعات والأوبئة والحروب مجتمعة.

اذا فخليق بنا أن نجيب كل من دعانا ـ كائنا من كان ـ لشرب الخمر قائلين مع الركابيين "لا نشرب خمرا".

يمكن أن ترمز الخمر الى روح العصر، عدم استقراره، تعطشه الدائم لكل جديد، للملذات العالمية، سعيه المتواصل نحو اشباع شهوة الجسد، شهوة العيون، تعظم المعيشة، ان الامتناع عن الخمر أيسر من الامتناع عن تلك الشرور التى يصبها العالم من كأس غضبه. وخير ما نقدمه فى هذا الصدد تلك الكلمات الثمينة التى تحدث بها الرسول "لاتسكروا بالخمر الذى فيه الخلاعة بل امتلئوا بالروح" انك لا تستطيع طرد الشيطان بالموقف السلبى. بل يجب أن تمتلئ بالروح القدس. والذين امتلأوا بالروح القدس، فى ملء قوته، هم فقط الذين يقفون ثابتين فى وجه العالم ولا يشربون من كأسه.

٣ ـ يجب أن لا نتعلق بالأمور التى حولنا :

لقد سكن الركابيون فى خيام. وكانوا يرتحلون بقطعانهم من مكان الى آخر، قانعين بحياة البداوة البسيطة المتنقلة. هكذا كان يعيش الآباء الأولون من قبلهم (عب ١١ :

٩و١٣) ومنذ أيامهم الى اليوم كانت حياة الخيام أو (حياة الغربة) هى الحياة المشتهاة المتمسكة بالحياة الأخرى بقدر عدم تمسكها بهذه الحياة.

ليس من الهين تحديد الأمور التى تقع فى دائرة الاهتمامات العالمية. فان ما يكون عالميا للبعض قد يكون جزءا من الحياة العادية للآخرين. على أننا كلنا نحس الرباطات التى تجذبنا الى الأرض. ونحن نستطيع أن ندرك حقيقة حياتنا بالتأمل فيما نتعلق به، وما يعسر علينا تركه لأجل المسيح، وما نسعى دواما أن نضاعفه وننميه، وما نفخر به ونعتز به. قد يكون هو الصيت، أو الشهرة، أو الاعتزاز بالزى، أو المراكز، أو الثروة. ولكن أيا كان هو، فان كان يعطلنا عن أن نعيش حسب المثل الأعلى، ان كان ثقلا يعوق مسيرنا نحو السماء. وجب أن نأتى به فورا على مذبح اللّه ليتصرف فيه كما يشاء، ولكى نكون بجملتنا للّه دون عائق.

* * *

- ١٤ -

«مختبئ ولكنه منير»

(ارميا ص ٣٦ : ٢٦) (١)

وكن هادئا قويا لطيفا واحفظ

نفسك طاهرا عفيفا لكى

تستطيع أن ترقب غروب الحياة

اذا دنت ساعة الوفاة

(براوننج)

بعد أن مزق يهوياقيم درج النبى بكل استهتار، وهكذا رفض ما تضمنه من انذارات ونصائح، وبعد أن هدد عبيد اللّه الأمناء بالموت أصبح واضحا أنه لا يرجى أى خير من أن يتقدم اليه ارميا بأية رسالة أخرى. وهكذا خفت صوته فى

(١) "بل أمر الملك يرحمئيل ابن الملك وسرايا بن عزرئيل وشلميا بن عبدئيل أن يقبضوا على باروخ الكاتب وارميا النبى ولكن الرب خبأهما".

المدة الباقية من حكم هذا الملك الشرير.

هذا أحد مبادئ سياسة اللّه فى كل الأجيال : انه ان استخف بصوت اللّه كف عن التحدث، والذين لا يستحسنون أن يبقوا الله فى معرفتهم يسلمهم الله الى ذهن مرفوض ليفعلوا كل نجاسة وطمع (رو ١ : ٢٨ الخ).

هذا يذكرنا بتلك الكلمات الرهيبة التى ختمت بها حياة أول ملوك اسرائيل "ولم يعد صموئيل لرؤية شاول الى يوم موته" (١صم ١٥ :٣٥) بل بتلك الكلمات التى لا تقل رهبة وروعة، التى تحدث بها رسول المحبة "توجد خطية للموت" ليس لأجل هذه أقول أن يطلب" (١يو٥ : ١٦).

فى ذلك الوقت لم يشأ ارميا أن تطأ قدماه قصر يهوياقيم الجديد الفخم الذى كانت غرفه الفسيحة مسقوفة بأرز لبنان، وجدرانه مزدانة بأبهى الألوان وأبدع النقوش، مع أنه لو دخله فى ذلك الوقت لأنقذ البلاد من الخطر المحقق، كما يدخل المرشد الماهر السفينة التى يتولى قيادتها ربان جاهل فينقذها من الخطر الداهم.

قد يخدع الأنبياء الكذبة كلا من الملك والشعب

بنبواتهم المضللة. وقد يتقدم المتشيعون للسياسة المصرية للملك باقتراح محالفة فرعون كأضمن علاج للمشاكل التى تكتنفه أما صوت ارميا فقد خمد أثناء كل تلك الأيام المظلمة المليئة بالمتاعب والمشاكل التى حلت فى الفترة بين ذلك المنظر فى قصر الملك والوقت الذى فيه طرحت جثة يهوياقيم، دون أن تدفن اذ مات غيرمأسوف عليه. وماذا كانت حال النبى فى تلك السنوات الخطيرة وماذا كان يشغل تفكيره؟

١ ـ لقد خبأه الرب :

ال نستطيع أن ندرك على وجه التحديد التام بمعنى هذه الكلمات. هل أخذه. فى حمايته ورعايته، أخيقام الذى سبق أن توسط لانقاذه، أو ابناه وهما : جمريا الذى سبق أن قدم اليه مخدعه فى الهيكل لقراءة درجه، وجدليا الذى صار واليا ليهوذا بعد اقصاء صدقيا؟ أم كانت هذه التخبئة أمرا الهيا؟ وعلى أى حال فسواء كانت مباشرة أم غير مباشرة فان ارميا كان مختبئا فى ستر القدير من مكايد الناس، مختفيا فى مظلة من مخاصمة الألسن (مز ٣١ : ٢٢) فى

مخاوفه الأولى صرخ قائلا "انى قد انقطعت من قدام عينيك" (مز ٣١ : ٢٢) وعلى أى حال فقد سمع اللّه صوت تضرعاته، وحفظ عبده الأمين.

اننا جميعا فى حاجة الى هذه التخبئة الالهية. يجب علينا اطاعة الصوت الذى ينادينا كما نادى ايليا "انطلق من هنا واتجه نحو المشرق واختبئ". اننا عظماء فى أعين أنفسنا مغرورون فى ذواتنا. ظلنا يتقدمنا، نراه واضحا كل الوضوح على الرمال. وكل ما نحتاجه هو أن نتطلع نحو الشمس فلا تتثبت عيوننا فى ظلنا. وقد يسمح اللّه أحيانا أن يختبأ فى غرفة المرض فى وادى الظلال، فى نقرة الصخر، قد يدعونا للذهاب الى صرفة أو جبل الكرمل، أو الى زوايا النسيان، أو وحشة العزلة. والنور الحقيقى لا يضئ قلوبنا، وقوة الحياة الحقيقية لا تنبعث من تصرفاتنا، الا حينما تختبئ النفس فى ظلمة القبر.

كثيرا ما اختبأت شخصية ضعيفة جبانة فى شخصية أقوى اتصلت بها اتصالا وثيقا، وذلك لكى تقف ثابتة لا تتزعزع ازاء كل الحملات التى توجه نحوها، ازاء التعيير والتشهير

والتصرفات الضارة. لذلك فعندما تكون كل عواطفنا بل كل شخصيتنا، متجهة نحو الله، عندما نقنع بابتسامته كأعظم جزاء لنا، عندما لا نطمع فى شئ فى الوجود الا فى ارضائه فحينئذ نكون مختبئين فى حصنه الحصين، ومن مخبئنا الأمين الذى ننعم فيه بمجد نوره العظيم نتطلع بثبات الى الشرور المزعجة وهى تجوز بجوارنا دون أن تجترئ على الاقتراب منا.

قد يتم أيضا هذا الاختباء بالمعنى الحرفى، أيها الذين قد مستهم نيران التجارب. قيل انه حدث مرة أن سعى بعض الجنود، وجدوا فى البحث عن بعض اولاد الله الأمناء فى جبال اسكتلندا. اجتمعت جماعة قليلة من هؤلاء المؤمنين للصلاة على أحد قمم الجبال، وكادت تقع فى أيدى الجنود، لولا سحابة كثيفة استقرت فجأة فوقهم وخبأتهم فعلا عن أعين أعدائهم.

هكذا لا يزال ابن الله يتدخل لحماية خاصته. فعش له وحده. كن سهما مبريا مختبئا فى ظل يده وفى كنانته مختفيا (اش ٤٩ : ٢). اثبت فيه. اصغ اليه فانه يقول لك

كما قال داود لابياثار "أقم معى. لا تخف لأن الذى يطلب نفسى يطلب نفسك. ولكنك عندى محفوظ" (١صم ٢٢ :٢٣).

٢ ـ وأعاد كتابة نبواته:

لعل الوصية الالهية المدونة فى بداية الاصحاح الثلاثين تشير الى هذه الفترة "هكذا تكلم الرب اله اسرائيل قائلا اكتب كل الكلام الذى تكلمت به اليك فى سفره" والأرجح أن باروخ استمر يعمل معه كسكرتير خاص وتلميذ أمين. وهو على الأقل كان ضمن الذين خبأتهم العناية الالهية على وجه التحديد (ص ٣٦ : ٢٦ ـ ٣٢) وقد كلفه ذلك تضحية الكثير من مشروعاته وأعماله العالمية. لقد كان من أسرة عريقة، فقد كان أخا لسرايا الذى كان يشغل مركزا ساميا فى حاشية الملك صدقيا وكان يطمع فى أن يكون واحدا من ملازميه "هل تطلب لنفسك أمورا عظيمة" (ص٤٥ : ٥) على أنه ارتضى بأن يقبل المحنة والآلام التى جرتها عليه صداقته لارميا، وذلك بعد أن أعلنت اليه رؤيا خاصة أكدت له حدوث انقلاب سريع فى الدولة وأن نتيجته العامة أنه سينجو بحياته (ص٤٥).

استطاع ارميا ـ بمعونة هذا الصديق المخلص الأمين ـ أن يجمع النبوات التى سبق أن نطق بها فى مناسبات مختلفة ويرتبها، وبنوع خاص تلك النبوات التى تنبأ بها فى السنة الرابعة من ملك يهوياقيم عن الأمم المجاورة، لقد كانت اليه كلمة الرب عن الفلسطينيين، وموآب، وبنى عمون. وآدوم. عن دمشق وقيدار. وهنا يقف دارس الكتاب ليتأمل بتدقيق فى تلك الفقرات العجيبة التى تتنبأ عن مصير تلك الأمم بسبب غزوات نبوخذ نصر المخربة. قال ارميا مخاطبا هذا الملك العظيم باسم الرب "أنت لى فأس وأدوات حرب فأسحق بك الأمم وأهلك بك الممالك" (ص ٥١ : ٢٠ انظر أيضا ص ٤٧ ـ ص ٤٩ : ٣٣).

اذا فان هذا الوقت الذى قضاه ارميا فى العزلة لم يكن خسارة للعالم، بل كان مثمرا، بل كثر الثمر كحبس يوحنا بنيان فى سجن بدفورد، ومدام جويون فى سجن الباستيل. اذ خيم الليل على بلاده. كان يعمل فى الخفاء لاشعال نور النبوة الحقيقى، ليبسط أشعته على مياه الزمن المظلمة "الى أن ينفجر النهار ويطلع كوكب الصبح" فى الأفق فى الشرق.

سلم كل طبيعتك للّه، وثق بأنه يستطيع أن يجعل كل

ما فيها مثمرا، بل كل ثانية من سنى العمر مخصبة، فتكون كحديقة غناء عرف صاحبها الماهر كيف يجعل كل شبر فيها مثمرا.

٣ ـ وزار بابل زيارة مزدوجة :

الأرجح أن هذه الفترة من حياة ارميا تشير اليها حادثة المنطقة الكتانية لأن الحديث الذى يدور حولها تم خلال حكم يهوياقيم الذى لم يدم أكثر من ثلاثة شهور، وهذه مدة أقصر من أن تكفى لرحلة طويلة تقتضيها المهمة التى وضعت على كاهله (ص ١٣ وخاصة ١٨).

كان الاسرائيليون حريصين كل الحرص على مراعاة النظافة. خصوصا نظافة الكتان. لذلك كان ملفتا لأنظار الجميع أن يشترى ارميا منطقة جديدة من كتان ويلبسها دون غسلها. وعندما اتسخت أخذها ـ اطاعة لأمر اللّه ـ الى نهر الفرات. وهناك طمرها فى شق صخر.

يظن البعض ان هذا وصف لرؤيا رآها، أو أن المقصود مكان أقرب من نهر الفرات الذى يبعد نحو مائتين وخمسين ميلا. ولكن ليس هنالك ما يبرر مناقشة التفسير الحرفى الذى

فسر به ارميا هذه العبارة، فانه لم يكن هنالك سبب خاص يدعو لوجوده فى أورشليم، بل كان الأمر بالعكس، ثم ان الوقت لم تكن له قيمة بالنسبة للتأثير الذى كان منتظرا. وعلاوة على هذا فقد تمت فوائد جزيلة من المامه بأحوال المسبيين فى بابل، وبسير الحوادث هناك، وفى نبواته التى تنبأ بها فيما بعد عن سقوط بابل نجد وصفا لبعض التفاصيل الدقيقة جدا التى لا يمكن لأى شخص وصفها الا اذا كان قد رآها بنفسه.

وبعد عودته من بابل انقضت "أيام كثيرة" والواقع أن رحلته الثانية لاعادة المنطقة التى فسدت قد رتبتها العناية الالهية فى الوقت الملائم، ليكون متغيبا عن المدينة فى أيام يهوياقيم الأخيرة الأليمة، ثم يعود فى بداية أيام حكم يهوياكين القصيرة.

على أن تلك المنطقة الكتانية التى فسدت والتى رفعها ارميا أمام عيون شعبه. كانت تتحدث عن تاريخها المحزن الأليم. لقد كان يهوذا وأورشليم للرب "اسما وفخرا ومجدا" وكان يريدهم أن يلتصقوا به، "ولكنهم لم يسمعوا" وساروا

وراء آلهة أخرى ليعبدوها ويسجدوا لها (ص ١٣ :١٠و١١) لذلك قضى عليهم أن ينبذوا، لأنهم أصبحوا لا قيمة لهم، عديمى المنفعة كتلك المنطقة.

ان هذه الرحلة المزدوجة التى تقطع فيها نحو ألف ميل سيرا على الأقدام تعلمنا درسا جوهريا هو أن أى مجهود شاق نبذله يجب أن يعتبر بأنه مغالى فيه أو زائد عن الحد المعقول، ان كنا نقضيه فى سبيل اتمام مهمة أرسلنا الله اليها لقد سبق أن دعى ارميا قبل ذلك بوقت طويل، حينما كان ولدا لاتمام رسالة الله (ص١ : ١٧) اذا فلم يكن له أن يشكو ان كانت هنالك رسالة خاصة تطوح به بعيدا، أو تقتضى أن يجوب الصحارى بشمسها المحرقة فى النهار، ولا يجد فى الليل ما يفترشه الا الرمال الباردة، وما يلتحف به الا ندى السماء.

عندما يأمرنا المسيح بأن نذهب الى كل العالم فانه يعنى ما يقول، ويجب أن لا نعتذر قدامه بسبب طول المسافة أو مشقات الطريق ان كان يأمر أى واحد قائلا "قم انطلق الى الفرات" ففى هذا كل الكفاية، وحينما نتأكد من الصوت

يجب أن نقتدى بالنبى الذى قال ببساطة حلوة "فانطلقت الى الفرات".

٤ ـ ثم أعلنت له رؤى عن العهد الجديد :

المرجح جدا أن ارميا فى فترة عزلته هذه انفتحت عيناه ليرى حقا روحيا من أجل حقائق العهد الجديد، وكانت هذه الرؤيا أسمى ما أعلن فى عصره. لم تكن هذه آخر المرات التى فيها أغلقت الأعين الجسدية لكى ترى، والتى فيها حجب عنها نور هذا العالم لكى ترى النور الذى لم تره الأرض أو البحار. ألم يكن ملتون الضرير هو الذى كتب أروع قطعة أدبية عن فقد الفردوس واستعادته؟

والآن لنتأمل فى القصيدة الخالدة التى دونها ارميا فى (ص ٣٠ و ٣١) والتى تتركب من سبعة أبيات. لم يعد تفكيره محصورا فى يهوذا فقط، ولكنه بدأ يفكر أيضا فى اسرائيل، أو "افرايم" الذى سبق أن سبى الى نينوى منذ مائة وسبعين عاما. على أن قلبه اغتبط اذ رأى عن بعد عودة كل الشعب من أرض الشمال بعد أن محصته الآلام فصارت له الحياة الأكثر نقاء ونبلاء.

ما أكثر الدروس التى نستطيع أن نتلقاها من هذه القصيدة الرائعة. ولكن لنقتصر على أن نقتطف منها بعض عبارات بسيطة ونضعها أمام القارئ ليرى بنفسه ما تحمله من معان عميقة :

يا يعقوب عبدى لا تخف

ولا ترتعب يا اسرائيل

لأنى هأنذا أخلصك من بعيد

ونسلك من أرض سبيه

لأنى أرفدك

وأشفيك من جروحك يقول الرب

محبة أبدية أحببتك

سأبنيك بعد فتبنين يا عذراء اسرائيل

تتزينين بعد بدفوفك

وتخرجين فى رقص اللاعبين

ويشبع شعبى من جودى يقول الرب

واذ انتعشت روح ارميا بهذه الكلمات التى نطق بها بروح النبوة فليس عجيبا ان كان قد اختبر لذة الفرح العميق الذى تشعر به النفس اذ تدرك - بين اليقظة والنوم - أن أسمى رغباتها وأبعد آمالها قد تحققت. "على ذلك استيقظت ونظرت ولذ لى النوم" (ص ٣١ : ٢٦).

على أنه كانت هنالك رؤيا أمجد تنتظره. ان وصايا موسى المرعبة، وطقوس الهيكل المختلفة، ونصائح سفر التثنية، التى زادها تأكيدا الكثيرون من الأنبياء المعاصرين - هذه كلها لم تفلح فى صد الشعب عن الارتداد والعصيان، لم يكن هنالك أقل أمل فى أن المستقبل البعيد لا يعيد مآسى الماضى. ولكن الله الذى أمر أن يشرق النور من الظلمة أضاء قلب عبده، وكشف اليه مجد العهد الجديد الذى كان ينبغى أن يختم بدم الصليب "العهد الجديد بدمى" كما عبر عنه المسيح، العهد الذى لا يتوقف بعد على "افعل هذا" أو "لا تفعل هذا". بل الذى يتلألأ بوعد الله "انى سأفعل" الذى يكرره سبع مرات (ص ٣١ : ٣١ - ٣٤، لو ٢٢ : ٢٠، عب ٨ : ٧ - ١٢).

كانت الرؤيا التى سطع نورها فى قلب ارميا، والتى

تتحقق فى المسيح لكل الذين يؤمنون به هى هذه:

١ - أن ناموس الله يجب أن لا يبقى فى الخارج كوصية، بل فى الداخل، كأنه امتزج بنفس القلب والارادة.

٢ - أن الديانة يجب أن تحصر مبدئيا فى علاقة الله بأولاده أكثر مما تحصر فى تصرفات وأقوال أولاده نحوه.

٣ - أن لنا قدوما الى الله مباشرة.

٤ - أن الخطية تغفر مغفرة تامة كأنها لم ترتكب. هذا العهد المبارك سوف يجمع اسرائيل تحت لوائه مهما كانت الظروف والأحوال.

هذا هو السؤال الخطير الذى يجب أن نوجهه لأنفسنا الى أى مدى قد تحقق هذا العهد فى اختباراتنا. ان الحياة التى يقدمها تستهوى قلوبنا. وفى بعض الأحيان يخيل الينا أن أحشاءنا وقلوبنا تحمل نقوشه وأقواله كما كان لوحا الشريعة يحملان الوصايا العشر. ولكننا نرى فجأة أن خطايا الطمع والحسد والكبرياء والغضب داهمتنا. كأن بالوعة قد فتحت فصبت أقذارها على أرض رخامية فى غاية النظافة والجمال.

مثل هذه الاختبارات تربكنا، ولكنها يجب أن لا تيئسنا انها على الأرجح تبين، ليس بأن الله لم يبدأ عمله المبارك، بل بأننا قد تحولنا عنه وقتيا لنجرب مجهودنا الشخصى، أو لنفتخر بما قد تم. كلما منحنا الرب رؤيا سماوية عن بعض الامكانيات ـ التى تلوح لنا من بعيد ـ فى دائرة الحياة الروحية، كما حركت الأحلام عن عالم جديد عبر المحيط البحارة الانكليز للاقلاع بسفنهم أيام الملكة اليصابات. كانت هذه علامة ايجابية أكيدة بأنه قد حان الوقت الذى فيه صار الله مستعدا لتحقيق هذه الرؤيا لنا، لأنه هو الذى أرشدنا بأن نتوق اليها.

وكلما قال المسيح لنا "انى قد ظهرت لك" أردف القول "لكى أجعلك..". ان أبانا السماوى لن يبعث فى نفوسنا اليأس بأى وعد لا يكون هو مستعدا لاتمامه، أو بأى رجاء لا يكون مستعدا لتحقيقه. فلنرجع اليه، لنفتح قلوبنا واثقين وأحشاءنا ليده المقتدرة. لننتظره بتواضع ووداعة حتى يعلن الينا أسراره. لنؤمن بأنه يفعل هذا الآن. لنعتمد عليه واثقين أنه يتمم الرؤيا ويجعلها واضحة جلية.

وهكذا نعرف الله. أما الماضى الميت فانه يدفن موتاه، وستطرح عنا على الشاطئ خطايا وآثام الماضى، كجثث المصريين الذين تخلص منهم اسرائيل، وحينئذ ترقص قلوبنا طربا. ويتحول حزننا الى فرح، وتصير نفوسنا كجنة ريا. ويعزينا الله. ويفرحنا من حزننا ويعيننا على أن نحصد بالفرح ما زرعناه بالدموع (ص ٣١ : ١٠ ـ ١٤).

* * *

_ ١٥ _

«خدمة التخريب»

(ار٢٧ _ ٢٩)

يا للعار حينما ندرك

أن الأرض تفضل الكذب

وتسعى وراء الهلاك

وتختار الموت

رغم أن الدواء فى يدها

يا لأحزان الأرض

التى تماثل أحزان السماء

اذا استيقظ البشر

من سباتهم لحظة

وأحسوا باحساس أهل السماء

(هفتون)

حينما دعى ارميا أولا لخدمة النبوة لخصت خدمته فى ست نواح مختلفة. فانه قد وكل على الشعوب وعلى الممالك ليقلع، ويهدم ويهلك، وينقض، ويبنى، ويغرس (ص١ : ١٠).

اذا فقد كان ثلثا خدمته متجها ناحية التخريب. وهذه خدمة ليست مستساغة ولا هى ميسورة. لا يوجد من يقبل أن يقف وسط الأتربة الخانقة المتناثرة من أنقاض منزل يهدم ليبنى مكانه قصرا فخما. ان الملذات التى وطدت أقدامها واستقرت، والمساوئ التى طال عليها العهد وشاخت، والشرور التى تجر فى أذيالها أرباحا مادية _ هذه كلها ترفع الصوت عاليا ضد أية محاولة تسعى لاستئصالها. على أن ايليا ينبغى أن يمهد الطريق للمسيح. وقبل غرس البذار ينبغى أن يتقدم الشتاء بعوامله القاسية هذه هى الخدمة التى صارت من نصيب ارميا.

١ _ خدمة الهدم :

يهوياقيم : حين مات يوشيا حزنت الأرض كلها. وأحس كل فرد من الشعب بأنه هو شخصيا قد صار يتيما، وصرخ

قائلا "آه يا أخى" وامتلأ الجو بهذه الكلمات "آه يارب" "آه يا مجد اسرائيل". على أن ارميا سبق فأنبأ بأنه عند موت يهوياقيم لا يكون شئ من هذا قط، "يدفن دفن حمار مسحوبا ومطروحا بعيدا عن أبواب أورشليم: ثم انه بعد حين أحرق الملك الدرج قال ارميا "لا يكون له جالس على كرسى داود. وتكون جثته مطروحة للحر نهارا وللبرد ليلا" (ص ٢٢ : ١٣ ـ ١٩، ٣٦ : ٢٩ ـ ٣١).

كانت كلمات النبى تحمل معها مصادقة الرب. وكانت تعلن القضاء المحتم الذى تممه الرب. ولذلك، وان كان التاريخ المقدس لم يدون لنا شيئا عن طبيعة هذا القضاء، فالمرجح جدا أن ارميا لدى عودته من رحلته الثانية الى بابل تلقى نبأ موت عدوه اللدود. وهناك روايات عديدة عن موته. تتضمن احداها بأنه قتل فى شوارع أورشليم. وتتضمن الأخرى بأنه وقع فى مناوشة مع الغزاة الذين دفعهم نبوخذ نصر لتخريب ما جاور أورشليم. وتتضمن رواية ثالثة بأنه قد خدع حتى حمل الى محلة ملك بابل وهنالك غدر به. وعلى أى الحالات فانه مات، كما عاش، بلا كرامة وفى حالة تعسة.

٢ ـ يكنيا (أو يهوياكين):

كانت أيام ملكه مائة يوم كأيام ملك نابليون بعد عودته من جزيرة البا. كان عمره ثمانى عشرة سنة حين ارتقى العرش وملك ثلاثة أشهر وعشرة أيام، (٢مل ٢٤ : ٨، ٢ أى ٣٦ : ٩). ولكنه فى هذه المدة القصيرة تسفلت أخلاقه لأقصى حد "وعمل الشر فى عينى الرب". أما أمه نحو شتا بنت الناثان، التى اشتركت فى جريمة قتل أوريا، واشتركت فى الحزب الوثنى القوى الذى كانت له السيادة فى البلاط الملكى، فانها صاغت ابنها فى الشكل الذى أراده هذا الحزب.

نطق ارميا بكلمات مروعة. فانه اذ جاز الشوارع عرض المنطقة التى فسدت، وتنبأ بالقضاء الذى سيحل بالملك وأمه وصرخ قائلا : "اتضعا واجلسا" (فى الرماد والتراب) لأنه قد هبط من رأسيكما تاج مجدكما. أغلقت مدن الجنوب وليس من يفتح. سبيت يهوذا كلها سبيت بالتمام. ماذا تقولين حين يعاقبك. أما تأخذك الأوجاع كامرأة ماخض. وكل هذا بسبب فسقك وصهيلك ورذالة زناك على الآكام

فى الحقل" بعد ذلك وجه الكلام على وجه التخصيص الى الملك وأمه وقال ان كنيا هو يسلم لايدى طالبى نفسه ولأيدى الذين كان يخشاهم وأن الله سوف يطرحه هو وأمه، كوعاء خزف مهان مكسور، الى أرض غريبة لم يعرفاها، حيث يموتان فيها، حتى لا يكون هنالك أى مجال للعودة للأرض التى أحباها (ص١٣ : ١٨ – ٢٧، ٢٢ : ٢٨ – ٣٠).

وهذا ما تم فعلا.. هكذا كانت وحشية الكلدانيين الذين حاصروا المدينة ثانية لينتقموا لأنفسهم بسبب خيانة يهوياقيم، حتى أنهم لم يرضهم الا تسليم الملك وأمه اليهم. لم يكن هنالك بديل لهذا. وهكذا يخبرنا يوسيفوس أن موكبا تألف من الملك وأمه والأشراف والموظفين، وسار الجميع فى أسف وحزن الى محلة الكلدانيين وجلسوا على الأرض، متشحين بملابس سوداء، ووجوههم مقنعة، وكان دخولهم من بوابة أطلق عليها اسم الملك فيما بعد، ثم سدت باكمال بنائها بالطوب حتى لا يجتاز أى شخص هذا الطريق الذى شهد تلك المأساة.

فى ذلك الوقت كان نبوخذنصر عائدا من الحرب ضد فرعون نحو الذى كان قد قدم لمعاونة حليفه، ولكنه فشل نهائيا، وخضع أعضاء الأسرة الملكية لنبوخذ نصر (٢مل ٢٤ :٧).

بعد ذلك نهبت المدينة وجرد الهيكل من كل ما يحمله من ذهب وما يحتويه من كنوز. "وكل الرؤساء، وجميع جبابرة البأس.. وجميع الصناع والأقيان.. ونساء الملك وخصيانه وأقوياء الأرض" هؤلاء جميعا انتزعوا من بلادهم المحبوبة، التى لم يرها بعد أغلبيتهم الساحقة.

كان حزقيال أحد هؤلاء المسبيين ويبدو أن كل البلاد، من لبنان وباشان وعباريم، ارتفع منها بكاء وعويل ونحيب، اذ كان المسبيون يجتازون فى الطريق الى منفاهم السحيق. وبكى النبى بكاء حارا، وهطلت الدموع من عينيه مدرارا، "لأنه قد سبى قطيع الرب" (ار ١٣ : ١٧).

٣ – الأنبياء : كان للأنبياء نفوذ واسع المدى عميق الأثر. وكان عددهم عظيما. فانه منذ صموئيل أخرجت مدارس الأنبياء عددا وافرا من الرجال الذين شغلوا مراكز

فريدة فى الأرض كممثلين لله.

على أنه فى الأيام المظلمة التى نتحدث عنها الآن حين كانت مملكة يهوذا مسرعة الى خرابها، يبدو أنهم سرت اليهم ـ الى حد كبير جدا ـ عدوى رذائل عصرهم. قال عنهم اشعياء انهم "كلاب بكم لا تقدر أن تنبح". كانوا نهمين. سكيرين، بليدين، دنسين، حالمين، مضطجعين، محبى النوم. "جحدوا الرب وقالوا ليس هو" حين تكلم ارميا. "صاروا ريحا والكلمة (كلمة الرب) ليست فيهم" (اش ٥٦ : ٩ ـ ١٢، ار ٥ : ١٢ و ١٣).

لابد أنه كان أليما جدا على نفس ارميا أن يقاومهم، أو يحرر الشعب من نفوذهم وسلطانهم، ولكنه لم يجد بدا من هذا فقد كان قلبه كسيرا، وارتخت كل عظامه، وصار كانسان سكران، ومثل رجل غلبته الخمر، لأن الأنبياء والكهنة تنجسوا جميعا، بل فى بيت الرب وجد شرهم. اصغ الى هذه الكلمات المرعبة التى تحدث بها ارميا عن لسان الرب "فى أنبياء أورشليم رأيت ما يقشعر منه. يفسقون ويسلكون بالكذب ويشددون أيادى فاعلى الشر حتى لا

يرجع الواحد عن شره. صاروا لى كلهم كسدوم وسكانها كعمورة" (ص ٢٣ : ٩ ـ ١٤).

نصح ارميا شعبه أن لا يصغوا لهؤلاء الرجال. الذين تكلموا حسب شهوات قلوبهم، ولم يتكلموا من فم الرب كانت جريمتهم الشنيعة تمسكهم بتقاليد أسلافهم، وتشجيعهم حتى الذين يسلكون فى عناد قلوبهم، بأن يؤكدوا لهم أنهم لن يصيبهم شر. وقد أقاموا أنفسهم للاضعاف من قوة نصائح ارميا واحتجاجاته، وذلك باذاعة أحلامهم الكاذبة، كأنهم هم الذين أعلنت اليهم أسرار الله دون ارميا.

تطورت الأمور عقب أبعاد يكنيا مباشرة. فان "حننيا بن عزور النبى الذى من جبعة"، والذى كان من رجال الكهنوت نهض واعترض على كلام ارميا علنا حين كان يتكلم فى الهيكل فى حضرة الكهنة وكل الشعب. وتكلم باسم الرب قائلا أنه أعلن اليه فى رؤيا سماوية أنه فى سنتين من الزمان يعود يكنيا وكل الأسرى وكل آنية بيت الرب التى أخذها نبوخذ نصر وللحال قال ارميا من وسط الجميع

آمين، ليت الرب يصنع هكذا، ليته يرد المسبيين ثانية، ولكن هذا لن يكون، ولا يمكن أن يكون دون الغاء الكلمات التى نطق بها الرب على لسان الأنبياء الذين كانوا قبلى منذ القديم (ص ٢٨ : ١ ـ ٩).

لم يكتب هذا النبى الكاذب بما قال. ولكنه نزع عن عنق ارميا النير الخشبى الذى حمله كمذكر دائم لشعبه وللأمم المجاورة بأنهم يجب أن يخدموا ملك بابل حتى ينتهى الوقت المحدد. ثم كسر هذا النير الى اثنين قائلا ان الرب هكذا يكسر "نير نبوخذنصر ملك بابل فى سنتين من الزمان عن عنق كل الشعوب" لم يطل ارميا المناقشة، بل أخبر حنينا سرا أن النير الخشبى سوف يستبدل بنير حديدى، وأنه "قد جعل هذا الشعب يتكل على الكذب". واذ أدار وجهه لكى يغادره قال له : "هذه السنة تموت" وبعد شهرين كان النبى الكاذب جثة هامدة (ص ٢٨ : ١٠ ـ ١٧).

٤ ـ الأمم المحيطة:

فى مناسبتين احتج ارميا ضد الأمم المجاورة، بسبب اتحادها لمقاومة بابل التى كانت قوتها قد بدأت تتعاظم،

والتى كانت تسندها مصر بلا جدال. فى المناسبة الأولى قال انهم لابد أن يشربوا كأس خمر سخط الرب. وفى الثانية قال انهم لابد أن يحملوا نير بابل. "والآن قد دفعت كل هذه الأراضى ليد نبوخذنصر ملك بابل عبدى. فتخدمه كل الشعوب وابنه وابن ابنه حتى يأتى وقت أرضه أيضا" (ص٢٥ و ٢٧).

لابد أن كل هذا عرض النبى لتهمة عدم محبة الوطن. فكلماته أضعفت الروح المعنوية فى نفوس شعب الأرض، ونفوذه صدهم عن عقد أية محالفة للتحرير. ولكنه على أى حال لم يكن لديه بديل عن أن ينطق بكلمة الرب العظيمة هذه "منقلبا، منقلبا، منقلبا اجعله" أو انى سأقلبه، سأقلبه سأقلبه (حز ٢١ : ٢٧).

٥ ـ المسبيون :

عانى الأنبياء الكذبة نفس المحنة التى حلت بالبلاد وسبوا مع الباقين. وللحال سعوا أن يخلقوا الرجاء فى قلوب المسبيين. وذلك بالتنبؤ لهم بسرعة العودة من السبى وعلى ذلك قالوا لهم لا فائدة من أن تبنوا بيوتا وتغرسوا جنات

وتتزوجوا، فاننا بعد قليل نعود ثانية الى أورشليم. كان رئيسا العصابة صدقا وآخاب، وكانت حياتهما الأدبية متسفلة جدا، فجعلا عبرة اذ أحرقا حيين (ص ٢٩ : ٢١ ـ ٢٣). على أن الخميرة كانت لا تزال باقية، ورفض الشعب أن يرضوا بحالتهم فى السبى.

لذلك كتب ارميا رسالة، وكلف اثنين من الأشراف من أصدقائه بحملها، فأرسلهما صدقيا، وهو عم يكنيا وخلفه، الى بابل مؤكدا صدق ارميا ونزاهته، واخلاصه. كانت خلاصة الرسالة :

اخضعوا لارادة اللّه، "ابنوا بيوتا واسكنوا واغرسوا جنات وكلوا ثمرها. واطلبوا سلامة المدينة التى سبيتكم اليها وصلوا لأجلها الى الرب لأنه بسلامها يكون لكم سلام" (ص ٢٩ : ١ ـ ٧).

وعندما سمع شمعيا (وهو أحد هؤلاء الأنبياء الكذبة) هذه الرسالة احتدم غضبه، وكتب رسالة عاجلة الى صفنيا، الذى كان رئيس كهنة وقتئذ طالبا منه أن يدفع ارميا الى المقطرة والقيود كمجنون. واكتفى رئيس الكهنة بقراءة

الرسالة فى أذنى ارميا، الذى كان رده أن ترسل رسالة ثانية الى المسبيين مؤكدة لهم بأن اللّه لابد أن يعاقب شمعيا ونسله، فلا يكون له ابن يحمل اسمه، أو يرى الخير الذى سيصنعه اللّه لشعبه فى نهاية الوقت المعين (ص٢٩).

كانت هذه الانذارات تحمل فى طياتها رعباً وفزعا، وكانت نهاية هؤلاء الأنبياء الكذبة مروعة بنفس المقياس. قد يقال : "يقينا ان هؤلاء الأنبياء كانوا يحبون وطنهم، ويتوقون لنجاة شعبهم، كان خطأهم فى تطرفهم، وتعصبهم فى غيرتهم، ولم يتعمدوا الاجرام. لقد أخطأوا فى تقدير آمالهم التى حسبوها رؤى الهية".

ولكن يجب ألا يغرب عن البال أن حياتهم الأدبية أيضا كانت متسفلة وأن خطاياهم قد صمت آذانهم عن سماع صوت اللّه، وأن كلماتهم قد حرضت شعبهم على التوغل فى شرورهم، وشجعتهم على التمادى فى نجاسات العبادة الوثنية. لذلك فانهم كأنبياء كذبة، ثم كأشرار ودنسين، قد استحقوا الويلات التى انصبت عليهم من فم النبى ومن يد القدير.

٢ ـ رفيقه ومعينه :

بينما كان ارميا يؤدى خدمة التخريب هذه، فى وحدة كاملة، وعزلة تامة، لابد أن قلبه كانت تخامره الشكوك طويلا يجب أن لا يغرب عن البال أنه كان يحب بلاده محبة حارة ملتهبة. كأقصى ما يستطيعه أى يهودى وطنى. وهذا يتبين لنا تماما فى سفر المراثى. يحدثنا متى هنرى قائلا "ليس هينا أن تكرز بالمسيح مصلوبا فى روح مصلوبة" على أن ارميا تمم ما هو أشق من هذا فرغما عن أنه كان فى نضال مستمر ضد خطايا وشرور شعبه مدة أربعين عاما الا أنه يبدو أن ينبوع دموع نفسه لم يجف قط. لقد كان ينادى بويلات جبل سينا بحنين الجلجثة ومحبتها الملتهبة.

ولاشك فى أن سبب آلامه الشديد هو أنه أحب كثيرا. وفى هذا قد يجد الآخرون تعزية فى أحزانهم ويأسهم من جهة اخوتهم. فانهم يقولون ان طبيعتهم رقيقة جدا، وان احساسهم دقيق جدا. يتألم أشد الألم لأبسط الأمور، كأنهم يتمنون لو أن جلدهم كان حديديا واحساسهم بليدا، ولكن يقينا انها لخسارة فادحة جدا أن يبذل المرء القلب الرقيق الذى له موهبة الألم بقلب بليد انتزعت منه تلك الموهبة.

يقول كارليل Carlyle : "ان أحزاننا تعكس لنا صورة واضحة عن نبل عواطفنا وان عمق يأسنا مقياس لسموه القصد الذى يجب أن نرجوه واذا ملأ الدخان القاتم الكثيف كل كيانك فانه من الميسور أن يتحول الى لهب متأججة وضياء متلألأ متى كان القلب مخلصا أمينا. فتشجع".

قد تخشى أن تحب لئلا تتألم ولكنك لا تدرى أنك بذلك تخسر خسارة جسيمة. قد تحصن نفسك ضد نوع من الألم، ولكنك لاشك تجلب على نفسك آلام محبة الذات. النفس الوضيعة، البخيلة، قد تنجو من وادى الظلال ولكنك أيضا تخسر جبل التجلى. قد تخلص نفسك، ولكنك تهلكها.

هب ان ارميا رفض الدعوة السماوية، وعاش فى عناثوت فى حياة هادئة مستريحة. انه ربما كان قد نعم بحياة موفورة الكرامة والراحة، ولكنه لم يكن قد سعد بأن يتكلم معه الله، ولا أعلن اليه غير المنظور، الأبدى، ولا شعر بالسعادة الكاملة الناشئة عن ادراكه بأنه قد بذل أقصى ما فى جهده، ولا أضاء مثل كوكب ساطع وسط السحب القاتمة التى كان

يتلبد بها جو أورشليم وقت سقوطها ولخسر الجعالة العليا. اكليل البر، ورضى الله.

وأرسل الله اليه رفيقا ومعينا. فانه من بين المسبيين برز حزقيال متحدثا بنفس الرسالة رغم أنه كان يتميز بسمو رؤياه. هو أيضا شهر بخطايا شعبه، نصحهم بالاستقرار فى أرض السبى، وتحدث بالقضاء المحتم الذى سوف يحل بالشعب والمدينة. وعلى فم هذين الشاهدين قامت كل كلمة. واتفق هذا البطلان، كما تتوافق النغمات الموسيقية بروح الاتفاق الذى أمر ربنا يسوع المسيح أن تتحلى به النفوس القريبة من بعضها عندما تطلب أية موهبة سماوية.

لقد كانا كالزيتونتين والمنارتين القائمة أمام سيد الأرض كلها (زك ٤) كانت لهما قدرة مع الله والانسان، استطاعا أن يغلقا السماء، ويحولا الماء الى دم "ويضربا الأرض بلعنة". لذلك أثار عليهما الوحش حربا شعواء، كما هى عادته على الدوام.

لم تكن مهمتهما سهلة، لأنهما كانا مبغضين من أولئك الذين أغاظتهم كلماتهما. ولكن الله منذ ذلك

الوقت دعاهما الى عرشه، حيث يقفان فى مقدمة صفوف الذين اذ تمموا مشيئة الله نالوا رضاه وجزاءه.

٣ ـ الحاجة الى تلك الخدمة :

١ ـ يجب أن تؤدى وسط غير المتجددين : ما أكثر الجهود التبشيرية التى تفشل بسبب عدم توفر هذه الخدمة وما فائدة المساعى التى تبذل لدعوة الخطاة الى المسيح ما لم يبين لهم الخطر المروع الذى جروه على أنفسهم؟ وما فائدة استخدام بلسان جلعاد دون أن تسمع النفس تشخيص حالتها الخطيرة وتقبل هذا التشخيص؟ وما فائدة تقديم مكان فى قارب النجاة للبحار طالما كان واثقا من نجاة سفينته تمام الثقة، غير عالم بخطورة حالتها؟

من ألزم الخدمات المطلوبة من خادم الله أن يزيل كل أثر لروح الثقة الكاذبة روح الغرور، روح الاكتفاء، وأن يبين بأنه من الجهل التام النزول الى بحر الأبدية فى أية سفينة أخرى سوى تلك التى ألقى بها المسيح من صليب الجلجثة.

من الخطأ الفاضح أن تشفى جروح القلب باستخفاف

شديد. ان تعزيات الانجيل نافعة جدا، ولكن يجب أن لا تقدم قبل أن يدرك الخاطئ تماما حالته أمام الله، ويكشف لله عن هاوية خطيته التى لا قرار لها. وان أعظم النهضات تبدأ عادة بالكرازة بالناموس، واظهار ما يتطلبه من الأشرار. ثم يجب أن لا يقتصر الأمر على اظهار التهديدات العامة، بل يجب توجيه الحديث الى الخاطئ بالتخصيص، حتى يصرخ ضميره قائلا "أنت هو الرجل".

٢ ـ ويجب أن تؤدى وسط الذين يحتاجون الى التأكيد :

عندما يقول المرء أنه لا يستطيع أن يؤمن فلعل ذلك لأنه يراعى اثما فى قلبه، أو لأن هنالك خطأ فى حياته لم يصلح بعد. أمثال مثل هذا هم الذين يحتاجون الى العلاج. ينبغى ـ على قدر الامكان ـ تقديم الترضية عن الاساءات السابقة، تعويض الأرباح غير القانونية السالفة، طلب المغفرة، تصحيح الأخطاء حينما تبذل الجهود لاتمام هذه الخدمة فانها تكفى لازالة العثرة من طريق الايمان، وحينئذ تنفجر منه ينابيع المياه الحية. وان العجز عن الاصطلاح مع الله يدل على أن هنالك ما يحزن الروح، وفى هذه الحالة تكون خدمة الفحص والاختبار والهدم لازمة أشد اللزوم.

٣ ـ ويجب أن تؤدى فى أقصى حدود امكانيات الحياة الروحية. كلما ازددنا طاعة ازددنا نورا. واذ يزداد نور الفجر ندرك الشرور التى ارتكبناها ونحن لا ندرى، ويرشدنا الروح للتمييز بين الخير والشر، ويكشف لنا كل العوائق. واذ ينقض كل الحجج الواهية التى كنا نرتكز عليها، ويعمق الحرث فى جوف الأرض، ويكشف الخبايا، ويعلن أنفسنا لأنفسنا، فاننا نقبل بالشكر خدمته التى تهدم لكى تبنى، وتقلع لكى تغرس، وتجيزنا فى القبر لكى تمنح الحياة الأبدية ثم يجب أن لا نتغافل المسئولية الملقاة علينا نحو تصحيح الآخرين وحثهم على التوبة، وبالأكثر على قدر ما نرى اليوم يقرب (عب ١٠ : ٢٥).

* * *

ـ ١٦ ـ

«انشودة ارميا العظمى»

(ار ٥١)

تكلم اللّه وأعطانا كلمته لنحفظها

وأمرنا أن لا نغفل أو ننام

بل نسهر ونتيقظ وسط عالم شرير

حتى يحررنا المسيح أخيرا من هذا السهر

لقد أقيمت الحراسة بواسطة عبده موسى

ولو أننا لازلنا نحتفظ بها حتى صياح الديك

(براوننج)

كانت أورشليم ـ حيث أقام ارميا ـ مقفرة جدا بعد أن غادرها الملك يهوياكين، وبيته وحاشيته، والرؤساء ورجال البأس، اذ حملوا أسرى الى بابل. كان مستحيلا أن يغادر المدينة عشرة آلاف ممن يكونون عظم الدولة وعصبها دون أن تترك ضعيفة هزيله، بل مشلولة، ورغم ذلك فقد كانت

خصوبة الأرض ومصادرها الطبيعية تبشر برجاء عظيم ككرمة مدت فروعها واستندت الى بابل (حز ١٧).

أخذ المغتصب ثالث أبناء يوشيا (ويدعى متنيا)، الذى كان ولدا ابن عشر سنوات حين وصلت أنباء كارثة مجدو المروعة، ولكنه كان وقتئذ فى الحادية والعشرين من عمره، وأجلسه على العرش، ووعده بالبقاء فيه على أن يتعهد بالولاء التام له. تأكد هذا التعهد بأن أقسم باللّه نفسه.

وكأن الملك الوثنى فكر بأن ذلك الملك الشاب يستحيل عليه أن يفكر فى التمرد عليه بعد تأكيد تعهده بذلك القسم الخطير، وفى تلك الأحوال الرهيبة. التى يحسبها الملك ملزمة له لو أنه وجد فى ظروف مماثلة. مما يدعو الى الأسف العميق أن الأشخاص غير المسيحيين كثيرا ما أعطوا أهمية عظمى للتعهدات والالتزامات الدينية التى خجلت المسيحيين. وكم مرة أظهروا دهشتهم اذ رأونا نحن نزدرى بهذه الالتزامات (٢ أى ٣٦ : ١٣، حز ١٧ : ١٣).

وبناء على أمر المغتصب اتخذ الملك الشاب اسم صدقيا (أى عدل أو صدق يهوه). كان هذا فألا حسنا، فقد أعطى

كل تشجيع ليسير فى أثر خطوات أبيه العظيم. وفى مدة حكمه أظهر علامات واضحة بأن له رغبات صالحة وآمالا واسعة المدى، ولكنه كان ضعيفا، كثير التردد، ينقصه الثبات والعزيمة وقوة الشكيمة اللازمة لكى يثبت وسط التيارات المختلفة التى سادت حاشيته. كان يحترم ارميا، ولكنه لم يجرؤ على الدفاع عنه علنا، بل كان يظهر له عطفه خلسة.

وفى نفس الوقت اضطربت كل المملكة بشدة وعنف بسبب الاشاعات التى ترامت اليها من كل ناحية، والتى بعثت الرجاء بأنه بعد قليل تتحطم قوة بابل ويعود المسبيون. كانت هذه الآراء ذائعة بين المسبيين أنفسهم كما رأينا، فان الأنبياء الكذبة أذاعوها بكل قوتهم، اذ وجدوا أنها تتفق مع الرغبة العامة. ويبدو أنه كانت هنالك نزعات سياسية عديدة بعثت الرجاء لتوقع تبدل سريع فى الأحوال يثير حماس اليهود بدرجة عظيمة.

وابان ذلك الوقت قامت ثورة فى عيلام ضد بابل : وكان الكل يتمنى لو أنها انتشرت حتى تضعف الامبراطورية نفسها أما ارميا فانه قال على لسان الله. هذا لن يكون.

"هانذا أحطم قوس عيلام. وأرسل وراءهم السيف حتى أفنيهم. وأبيد من هناك الملك والرؤساء، وأشتت الشعب وأذريهم لرياح السماء الأربعة (ص ٤٩ : ٣٤ ـ ٣٩).

بعد ذلك حدث تذمر شديد من الشعوب المجاورة، التى رغم أنها وافقت المغتصب فى هجومه كحلفاء له، الا أنها كانت تتوق لاستعادة استقلالها، ورغبت فى أن تضم يهوذا الى محالفة متسعة قاعدتها مصر. أما ارميا فقال : هذا يجب أن لا يكون، فان نبوخذنصر انما يتمم ارادة الرب فتخدمه كل الشعوب وابنه وابن ابنه" (ص ٢٧ : ٦ و ٧). ولعل صدقيا فى ذلك الوقت ذهب الى بابل ـ بناء على اقتراح ارميا ـ لزيارة ملكها، ويؤكد له ولاءه التام واخلاصه الكامل.

وفى كل المتاعب التى حصلت بعد ذلك اتبع ارميا نفس السياسة. فانه أكد بأن حالة الأسرى فى بابل بالنسبة للبقية فى أورشليم كنسبة التين الجيد للتين الردئ (ص ٢٤). وحينما أظهر جيش فرعون تجولا وقتيا، وألزم الكلدانيين بالانسحاب، قال انهم لابد أن يعودوا ويشعلوا النيران فى القصر والهيكل ويحرقوا المدينة (ص ٣٧). وكانت سياسته

معروفة تماما بين الكلدانيين حتى أنهم أنقذوا حياته فى الانقلاب الأخير، وسمحوا له باختيار المكان الذى يعيش فيه (ص ٤٠).

ولابد أنه كثيرا ما كان يبدو فى نظر أخلص أصدقائه أن نصيحته كانت مليئة بالجبن وتعوزها شجاعة الايمان. أكان حقا يفضل بابل على أورشليم؟ أكان خائنا لشعبه؟ ان كانوا قد خطر ببالهم أمثال هذين السؤالين فلابد أن تكون هذه الأرقام قد زالت تماما حين دعاهم ليسمعوا الاتهام الخطير الذى وجهه الى بابل فى بدء حكم صدقيا، والوصف المروع لسقوطها. أعطيت نسخة من هذه النبوة الى سرايا رئيس الوزراء الذى رافق صدقيا الى بابل، وأعطيت اليه التعليمات لقراءتها سرا للمسببين وربطها بحجر وطرحها الى وسط الفرات مع ترديد كلمات لابد أنها أزعجت الواقفين "هكذا تغرق بابل ولا تقوم من الشر الذى يجلبه عليها اللّه ويعيون" (ص ٥١ : ٥٩ ـ ٦٤).

١ ـ نبوة سقوط بابل :

١ ـ مجد بابل : يصور لنا ارميا مجدها وجمالها فى

صورة رائعة. لقد كانت كأسا ذهبية فى يد الرب (ص ٥١ : ٧)، كانت فأسا وأدوات حرب فى يده (٥١ : ٢٠). بسطت نفوذها الى مسافات بعيدة. كانت كثيرة المياه، غنية الثورة، عجيبة كل الأرض. كشجرة وارفة الظلال مدت فروعها فوق كل الأراضى المجاورة. وكملكة كل الأمم كانت فى راحة وطمأنينة، وظنت أنها لن ترى تعبا فيما بعد. صرخ مرة أعظم ملوكها قائلا "أليست هذه بابل العظيمة التى بنيتها لبيت الملك بقوة اقتدارى ولجلال مجدى" (دا ٤ : ٣٠).

٢ ـ الخصومة الالهية : لقد استخدمها القدير لمقاصد عظيمة للتخريب والتأديب، لتفعل بين الأمم ما فعلته جبال الثلج الهائلة بين الصخور فى بداية تكوين العالم، أو ما يفعله الصقيع كل عام نحو اكتساح الأتربة من الأرض ولكنها ـ لأغراض شريرة وبدافع روح الاثرة ومحبة الذات ـ أساءت التصرف فى القوة التى ائتمنها اللّه عليها. فانها كانت قاسية لأقصى حد فى تنفيذ المقاصد الالهية واتمام الأوامر الالهية. فقد كانت جيوشها تتلذذ باراقة الدماء الكثيرة. وقد صعدت الى قمة جبل أراراط آخر، على مياه طوفان آخر، طافية على

وجه بحر من الآلام البشرية. لذلك نصب لها الرب شراكا، واصطادها كحيوان برى وفتح كنانته وأخرج منها أسلحة غضبه.

لكن الله غضب على بابل بنوع خاص من أجل معاملتها لشعبه. فقد كان سكان صهيون يصرخون قائلين "أكلنى أفنانى نبوخذ نصر ملك بابل. جعلنى اناء فارغا ابتلعنى كتنين وملأ جوفه من نعمى. طوحنى. ظلمى ولحمى على بابل تقول ساكنة صهيون ودمى على سكان أرض الكلدانيين تقول أورشليم" (ص ٥١ : ٣٤). لذلك تعهد العلى بالدفاع عن قضيتهم والانتقام منها لأجلهم. "كما أسقطت بابل قتلى اسرائيل تسقط أيضا قتلى بابل فى كل الأرض. لأن الرب اله مجازاة يكافئ مكافأة" (ع ٤٩ و ٥٦).

٣ ـ دعوة أعدائها : رفع العلم، فالتفت حوله الأمم عند ضرب البوق. تجمعت قبائل أراراط وأرمينيا وأقبل ملوك مادى وأمراؤها وكل شعوب امبراطوريتها وكان الخيل القوى فى كثرته كالجراد الذى لا عدد له. وقدمت المحرقات لآلهة

الحرب. وبدأ الهجوم بقوة وعنف حول أسوار المدينة الحصينة. وصارت الأرض نفسها ترتج بسبب ثقل المعدات الحربية وسير الجنود. استمع الى ارميا وهو يصرخ قائلا : "هوذا شعب قادم من أرض الشمال وأمة عظيمة تقدم من أقاصى الأرض. تمسك القوس والرمح. هى قاسية لا ترحم صوتها كالحجر كالبحر يعج. وعلى خيل تركب مصطفة كانسان لمحاربتك يا ابنة بابل".

٤ ـ الهجوم : حاصر رماة السهام المدينة من كل ناحية لكى لا يفلت أحد. وأمروا بأن يصوبوا السهام نحوها، ولا يبقوا منها سهما واحدا. والآن هوذا صوت البوق قد أطلق، وبدأ الهجوم ضد أسوارها. انظر كيف تستسلم، كيف ترفع يدها علامة على التسليم، كيف سقطت حصونها،وتحطمت متاريس أبوابها، وأنهارها وأسوارها، كيف اضطر جبابرة بابل للهرب، وخارت قوتهم، وصاروا جبناء كالنساء هوذا النار تشتعل فى مساكنها، وهوذا الرسل يركضون من أنحاء المدينة المختلفة يحملون كلهم رسالة واحدة الى ملك بابل هى أن المدينة قد سقطت فى يد العدو.

٥ ـ انقلاب المدينة : حينئذ استولى الجنود القساة على المدينة فارتكبت فيها ضد الضعفاء اساءات ذكرها أيضا قبيح. وسرت فيها أعمال السلب والنهب بكل شراهة. لقد نهبت مخازن الغلال التى فيها وخطفت ثروتها والتهمت متاجرها وكل الأسرى الذين كانوا مذلين فيها بعبودية مرة تحرروا،وخاصة اليهود، الذين صرخوا قائلين "دعوها (غادروها) ولنذهب كل واحد الى أرضه لأن قضاءها وصل الى السماء وارتفع الى السحاب" (ع ٩).

والآن صارت كل مدنها خرابا، برية مقفرة، أرضا لا يسكنها انسان ولا يمر بها ابن انسان، بل يسكنها ابن آوى؟ وصارت خرابا تاما من جيل الى جيل. كما ردم الله مدينتى سدوم وعمورة والمدن التى حولهما.

هكذا كانت نبوات ارميا عن أكبر مدينة شهدها العالم، والتى كانت وقتئذ فى أوج قوتها ومجدها. كان ينبغى أن تنقضى سبعون سنة قبل أن تتم نبواته. ولكن التاريخ نفسه لن يكون أكثر دقة.

أن الذين يقارنون هذه النبوة برواية سقوط بابل،

وبالأبحاث التى قام بها العالم الأثرى "لايار" يتضح لهم كيف تمت كل التفاصيل حرفيا، حتى حرق أعواد الغاب فى قاع النهر، والتقاء سعاة البريد بأقرانهم ليلة سقوطها، والذهول الشديد الذى استولى على جبابرة بابل، والخراب التام الذى حل بها وساد موقعها أجيالا طويلة.

"كانوا يشربون الخمر ويسبحون آلهة الذهب والفضة والنحاس والحديد والخشب والحجر. فى تلك الساعة ظهرت أصابع يد انسان وكتبت بازاء النبراس على مكلس حائط قصر الملك. فى تلك الليلة قتل بيلشاصر ملك الكلدانيين. فأخذ المملكة داريوس المادى" (دا ٥).

٢ ـ بابل العظيمة :

فى كل عصور التاريخ كان لبابل نظيرها ضد نسل شيث، حيث بلغ الولاء للّه أشده، قام نسل قايين حيث ترعرعت العلوم والفنون. ولقد بسط برج بابل ظلاله فوق أجناس البشر البدائية ضد سام وجدحام ضد ابراهيم قام كدراعومر. ضد اسرائيل قامت نينوى. وضد أورشليم قامت بابل، وضد الكنيسة قامت روما، وضد أورشليم الجديدة تقوم

بابل العظيمة. وضد امرأة الخروف تقوم المرأة الجالسة على وحش قرمزى. وحيث بنى الله ملكوته هاج الشيطان دواما وجهز كل عدته.

كان مما عزى ارميا وسط الخراب الشامل الذى حل ببلاد آبائه أن يتنبأ عن القضاء المحتم الذى سوف يحل بالمظالم المغتصب. ولعل كلماته اذ قرئت فى مسامع المسبيين فى بابل وهم جالسون جانب أنهارها ومعلقين أعوادهم على الأشجار، قد بعثت فيهم قوة الايمان العجيبة، وأنعشت فيهم محبة الوطن، وغرست فى قلوبهم الحقد الذى لا يموت.

يا بنت بابل المخربة (١)

طوبى لمن يجازيك جزاءك الذى جازيتنا

طوبى لمن يمسك أطفالك ويضرب بهم الصخرة.

حين هاجت الوثنية ضد المسيحية، وبذلت جهودها

---

(١) أو "الصائرة الى الدمار" حسب ترجمة اليسوعيين، أو "لأنك لابد سائرة الى الدمار" حسب الترجمة الانكليزية (مز ١٣٧ : ٩،٨).

الجبارة لاطفاء نورها، وفى عصر مظالم ديوان التفتيش حين حاولت بعض السلطات الدينية اطفاء نور الانجيل الحقيقى الذى لم يكن بلا شاهد فى أى وقت، كنت ترى أولاد اللّه المتألمين يلجأون لسفر الرؤيا ليقرأوا القضاء الذى يحل بالقوة العادية للمسيحية، التى سواء استترت وراء الوثنية أو غيرها، تناصب العداء للّه دواما، والتى يثيرها الشيطان بحقده الذى لا يموت وأن الكلمات التى يصف بها الرائى قضاءها تذكرنا تماما بكلمات ارميا. فانها هى أيضا "معها كأس من ذهب.. سكرى من دم القديسين.. ولها ملك على ملوك الأرض". وهى أيضا سوف يكون الباعث على خرابها اتحاد أولئك الذين كانوا سببا فى ارتفاعها ولقد سمع صوت يأمر شعب اللّه بالخروج منها لئلا يأخذوا من ضرباتها. بالدينونة التى دانت بها تدان. بل يعطى لها الكأس مضاعفا.

وكما طوح سرايا بحجر فى الفرات هكذا يطوح ملاك قوى بحجر رحى عظيم فى البحر قائلا "هكذا بدفع سترمى بابل المدينة العظيمة ولن توجد فى معابد. ويصير موقعها مسكنا لشياطين ومحرسا لكل روح نجس ومحرسا لكل طائر نجس وممقوت. وصوت الضاربين بالقيثارة والمغنين والمزمرين

والنافخين بالبوق لن يسمع فيك فيما بعد، وصوت وحى لم يسمع فيك فيما بعد. ونور سراج لن يضئ فيك فيما بعد". (رؤ ١٧ و ١٨).

يظن البعض علماء الكتاب المقدس أن المقصود بهذه القوة المضطهدة هو روما، مدينة الجبال السبعة. وان صح هذا التفسير فلا شك فى أنه سيأتى وقت يكون موقعها خرابا كما بقى موقع بابل مدة أكثر من ألفى سنة. ولكننى أميل الى توسيع مدى النبوة، وأعتقد أن كل شكل من القوات المعادية للمسيحية، سواء أكانت فلسفة كاذبة، أو خرافات مصنعة، أو اساءات بالغة، أو أخطاء فاحشة، كتجارة الخمور، وتجارة المخدرات ـ هذه كلها سوف تتلاشى أمام قوة عمانوئيل المقتدرة الذى "أظهر لكى ينقض أعمال ابليس" (١يو ٣ : ٨)، "انه يجب أن يملك حتى يضع جميع الأعداء تحت قدميه" (١كو ١٥ : ٢٥). وحينئذ يسمع صوت "كصوت جمع كثير وكصوت مياه كثيرة وكصوت رعود شديدة قائلة هللويا فانه قد ملك الرب الاله القادر على كل شئ" (رؤ ١٩ : ٦).

حين نتأمل فى اتمام نبوات ارميا عن سقوط بابل اتماما حرفيا لتكن لنا ثقة كاملة فى انتصار الخير على الشر، وفى انتصار الكنيسة على العالم، وانتصار المسيح على الشيطان "هكذا يبيد جميع أعدائك يارب. وأحباؤه كخروج الشمس فى جبروتها" (قض ٥ : ٢١).

٣ ـ بابلنا :

لكل قلب خطيته الخاصة التى يميل اليها، والذى اذا ما استسلم لها انقلب انقلابا تاما. كم كانت سخينة دموعك التى ذرفتها، وكم كانت قاسية وخزات الضمير. كم كنت ترغى وتزبد تحت سقطاتك. كم كانت فاشلة كل جهودك التى بذلتها لتتخلص من الفخاخ التى سقطت فيها، والتى كلما حاولت التملص منها ازدادت تعقدا.

ولكن هناك رجاء لخلاصك كما وجد رجاء لخلاص اليهود الأذلاء المتألمين، ما أقرب وجه الشبه بين حياتك وحياتهم. لقد كانوا أولا الله وهكذا أنت ابن الله. لقد كان فى استطاعتهم أن يعيشوا فى حصن الله الحصين المنيع، هكذا كان فى استطاعتك أنت أيضا. ولكنهم خسروا هذا

الامتياز بتمردهم وعدم طاعتهم وعدم ايمانهم، هكذا أنت أيضا. لقد حاولوا أن يستعيضوا عن خسارتهم لقوة الله الحافظة بجهود جبارة وأنظمة سياسية وتحالفهم مع الشعوب المجاورة هكذا فعلت أنت أيضا. لقد فشلوا تاما وانسحقوا كالغبار، هكذا أنت أيضا. لقد كادوا يفقدون كل رجاء فى الخلاص، هكذا الحال معك أنت أيضا، فانك كدت تفقد كل رجاء فى الخلاص. وكن كما خلصهم الرب بذراعه القوية، هكذا يخلصك أنت أيضا. وكما أذلت بابل نهائيا لكى لا تكون سبب رعب أو فزع، هكذا يستطيع الله أن يخلصك الى التمام فلا تخاف أبدا، بل ترى جثث أعدائك ومسخريك على شاطئ البحر.

ان كنت تتوق الى هذا الخلاص المبارك فاقبل هذه النصائح :

١ ـ انزع عن حياتك كل خطية معروفة. هل هنالك التزامات ما كان ينبغى أن ترتبط بها؟ اذكرها. هل هنالك أخطاء جائمة فى ماضى حياتك يمكن أن تصحح؟ صححها. هل هنالك عادات سرية وأمور تمارسها فى الخفاء

وهى تنخر فى قلبك؟ ارتض بأن تتحرر منها، واذكر ذلك بكل صراحة لله. أعزل كل الآلهة الغريبة التى أغاظت الله. هذا ما يجب فعله من جانبك.

٢ ـ دع الله يحفظ نفسك. انك لا تستطيع ضبطتها بل الله. فانه هو الذى خلقك، وهو الذى يستطيع أن يحفظك. يستطيع أحد ملائكته أن يربط الشيطان. اذن فمن المؤكد أن رب كل الملائكة يستطيع أن ينقذك من الشياطين الملاعين التى تعبث بك. وان كان المسيح فى الجسد قد طهر الهيكل فانه يستطيع أن ينظف قلبك من كل الأرواح الشريرة، ومتى خرجت فانه من الميسور أن يحفظها بعيدة عنك. حين صعد الى السماء ارتفع "فوق كل رياسة" وكل سلطات الظلمة (اف ١ : ٢٠ ـ ٢٢) وارتفعت أنت أيضا معه اذا أيقنت هذا.

يقينا ان المسيح الحى يستطيع أن يدوس تحت قدميه الصل والأسد الذين يعذبانك. أنت لا تستطيع هذا بل هو الذى يستطيع. سلم له الأمر بكل ترو، وامعان، وهدوء. لا تقل "سأحاول" بل "انى واثق". لا تنظر لايمانك بل انظر

للمسيح. لا تقل "أعنى" لأن هذه تتضمن بأنك سوف تتمم جزءا وتترك له الجزء الآخر، ومن المؤكد أن تعهدك باتمام الجزء سوف يخسرك كل شئ، بل قل "احفظنى" يارب وبذلك تطرح كل المسئولية عليه.

٣ ـ تيقن بأن المخلص القدير يقبل وديعتك حالما تسلمها اليه. حالما تغادر هذه الوديعة يديك يتلقاها هو بيده الكريمة تيقن بأنه قد تسلمها كلها نيابة عنك. لاتحاول أن "تحس" بأنه قد استلمها، بل "تيقن" بأنه قد استلمها. لا تحاول أن تعرف بأن تسليمك قد تم بالكيفية المطلوبة سلمه بالكيفية التى تستطيعها، أو اطلب منه أن يستلم ما تعجز عن تسليمه له. لا تشك قط فى أنه يقرأ عواطفك ورغباتك، حتى ان عجزت عن أن تفعل ما تريده. ولا تشك بأنه يقبل رغبتك الصادقة بدلا من عملك الكامل. وعندئذ قاوم عوامل الشك بكل ثبات. ردد هذا القول كل يوم مئة مرة "يستطيع يسوع أن يحفظ وديعتى. أنا دودة صغيرة، أنا ضعيف، غبى، لا قيمة لى. ولكن ابن اللّه قد استلمنى ليحفظنى. انه قد أنقذ وهو الآن ينقذ، وأنا واثق من أنه سوف ينقذنى أيضا".

قد لا تحس بالشعور بالسرور أو نشوة النصر. فلاتبال، بل أبق ثابتا، وثق فيه، قد يزأر الأسد حول الحظيرة، لكن الخروف المتعب الضعيف راقد بداخلها مطمئن كل الاطمئنان لأن "الراعى" يحفظه من كل ضرر.

* * *

- ١٧ -

«كيف وقفت القصبة كعمود»

(ارميا ٢٤ ، ٣٤، ٣٧)

لقد كنت وحدك ليلة آلامك

اذ هرب كل أصدقائك

وتباعد عنك الملاك فى البستان

وصرت وحيدا

وكان هذا أمر على نفسك من الجلد والصلب

يا رقيق القلب

وأخيرا أحنيت رأسك لأكليل الشوك

أما أنا فاننى وسط الآلام والتعييرات

أراك بجانبى

أجد يدك تمسك بيدى بكل عزم

واسمع صوتك قريبا منى

وأصغى اليك وأنت تقول

اتبعنى ابتسم كما ابتسم لأرى أمانتك

(مدام هاملتون كنج)

من المؤلم جدا أن تقف النفس الرقيقة الاحساس وحيدة. ان نفسا كهذه تستطيع بغريزتها التى لا تخطئ أن تكتشف سريعا ما فى قلوب الآخرين، وحين تدرك أن العطف الذى تتوق اليه قد أصبح معدوما، وان شغف الآخرين بها قد تحول الى جفاف، وأن محبتهم الملتهبة قد تحولت الى برودة الثلج، بل الى الازدراء والاحتقار سواء أكان ذلك فى دائرة المجتمع الصغيرة أو فى دائرة العالم المتسعة. فان نشاطها يضعف، بل تخمد جذوة عزيمتها. ان شعور النفس بتقدير الآخرين لجهودها وبمحبتهم لها هو باعث النشاط والعزيمة فى حياة الكثيرين. صحيح أنهم يحتقرون التملق والمداهنة ولا يلتفتون لاغراءات الثروة أو المدنية، ويقنعون بأن يعيشوا فى مستوى رفاقهم، ولكن طبيعة تكوينهم تتطلب جوا من العطف لكى يكونوا فى ملء الغيرة والنشاط.

على أن هنالك أشخاصا كثيرين قد صيغوا فى قالب

البطولة فلا يحسون بهذا الاحساس الرقيق وجميل أن يكونوا هكذا. فانهم قد ولدوا لكى يكونوا هم المكتشفين والقادة والأبطال، ضلوعهم من حديد، وأعصابهم من صلب، شجاعتهم تتخطى كل الحواجز، وتتغلب على كل الصعاب. لا يعرفون شيئا من تلك التضحيات التى يكابدها فى الخدمة أولئك الذين لهم الطبيعة الرقيقة التى تتميز ببعد النظر، وحدة الطبع، ورقة الاحساس نحو المدح أو البغض، بحنينها الى عطف الآخرين، وتلذذها بسمع كلمة الاستحسان والترحب والتشجيع.

كان ارميا من العينة الأخيرة. كان رقيق الاحساس، حاد الطبع، سريع التغيظ، شديد البغض، وبطبيعة الحال شديد المحبة، لا تمكنه طبيعة تكوينه من احتمال الوحدة.

ولكننا هنا لا يسعنا الا تمجيد تلك النعمة التى دبت فى حياته فخلقت منه مدة أربعين عاما، مدينة حصينة، عمود حديد، أسوار نحاس ضد كل الأرض، ضد الرؤساء، والكهنة والشعب. صحيح انهم حاربوه، ولكنهم لم يقووا عليه، لأن الله كان معه. لقد جاهد وثبت أمام كل أعدائه، واحتفظ بالراية الى نهاية الحياة.

وهذا الاحتمال العجيب. وثبات الروح المنقطع النظير، لم يظهروا بوضوح فى أية فترة أكثر من الشهور الأخيرة لاستقلال أمته. وليكن هذا موضوع تأملنا فى هذا الفصل لكى نجد فيه بعض التعاليم النافعة لأنفسنا لأنه ان كانت رفقة الله قد استطاعت أن تفعل معه هكذا. وتستطيع أن تفعل الى نهاية الأجيال، فان فيها كل الكفاية لأضعف أولاد الله الذين يقرأون هذه السطور.

١ ـ وجهة نظر ارميا نحو الملك :

لدى تصفح نبوة حزقيال نقف على كثير من المعلومات عن الموقف فى أورشليم مدة حكم صدقيا. لأن (حزقيال) رغم اقامته فى أرض السبى، كان قلبه متعلقا دواما بالمدينة المحبوبة، وبروح النبوة كان يرى ما يحدث فيها، ويردد ذلك بكل أمانة. وحين نقرأ نبواته على ضوء هذه الحقيقة نجدها ثمينة جدا ولذيذة حقا.

سبق أن رأينا بأن صدقيا حين ارتقى العرش ارتبط بأوثق العهود بأن يكون أمينا للسيادة البابلية. ولا شك فى أنه فى ذلك الوقت قصد بأن يكون أمينا لعهده، خصوصا حين

دعمه بقسم الرب كأمر نبوخذ نصر.ولكنه كان ضعيفا، صغير السن وكان مستحوذا عليه تماما ذلك الحزب القوى الكون من رجال البلاط الملكى، والذى كان يميل الى التحالف مع مصر، وكان يتوق الى تحطيم النير الكلدانى.

وقبل حلول الكارثة بسنتين تنبأ حزقيال بكل وضوح بما كان مزمعا أن يتم. فقد رأى مقدما أولئك الرسل الذين سوف يوفدون الى فرعون طالبين نجدة من الخيل والرجال ومتسائلين بلهفة "هل ينجح. هل يفلت فاعل هذا أو ينقض عهدا ويفلت" ثم تابع توبيخاته القاسية، ونطق بهذه الكلمات الرهيبة "حى أنا يقول السيد الرب ان فى موضع الملك الذى ملكه الذى ازدرى قسمه ونقض عهده فعنده فى وسط بابل يموت، ولا بجيش عظيم وجمع غفير يعينه فرعون فى الحرب" (حز ١٧ : ١١ ـ ٢١).

نحن نعلم ان ارميا حذر الملك والرؤساء، بكل ما فيه من قوة، من الدخول فى تلك المعاهدة التى كانت مقترحة بين يهوذا والممالك المجاورة وأكد لهم فى مواجهة الأنبياء الكذبة، بأنه اذا تم هذا المشروع الجنونى فان بقية الآنية التى

تركها نبوخذ نصر فى الهيكل لابد أن تحمل الى بابل كما حملت سابقتها (ار ٢٧) ورغم كل هذه التحذيرات فان المعاهدة عقدت، وفى لحظة جنونية أعلن صدقيا تمرده على ملك بابل.

حينئذ تم ما سبق أن رآه حرفيا واذ تضايق نبوخذ نصر جدا بسبب خيانة وجحود اليهود الذين أصروا بعناد على أن يغيظوه جمع جيشا قويا، وعزم على الانتقام منهم سريعا بلا رحمة، فيجعلهم مثلا لكل الشعوب المجاورة "سيف سيف حدد وصقل أيضا. قد حدد ليذبح ذبحا، قد صقل لكى يبرق... اصرخ وولول يا ابن آدم، لأنه يكون على شعبى وعلى كل رؤساء اسرائيل، أهوال بسبب السيف تكون على شعبى. لذلك صفق على فخذك" (حز ٢١ : ٨ ـ ١٧).

وصل ملك بابل الى مفترق الطرق، وهنالك وجد طريقا يؤدى الى أورشليم، والآخر الى ربة، عاصمة بلاد بنى عمون. وعندئذ التجأ الى السحرة والمنجمين الذين أشاروا عليه بالهجوم على أورشليم، مع وضع مجانق على الأبواب، واقامة مترسة وبناء برج. واذ انعطف نحو طريق المدينة المقدسة

كان صوت الرب الى ملك اسرائيل، الذى جاء يومه، لينزع العمامة، ويرفع التاج، لأن الرب قضى بأن يكون "منقلبا، منقلبا، منقلبا" وكأنه أراد أن يقدم مبررات هذا القضاء المروع فذكر الجرائم التى خضبت شوارع أورشليم بالدماء ولوثتها بالنجاسة، انه لوصف مروع ذلك الذى يقدمه لنا النبى عن حالة المدينة خلال السنوات الأخيرة من حكم صدقيا. كان اختيارا أليما اذ كان يعذب نفسه البارة يوما فيوما، عند رؤية وسمع أعمالهم الشريرة (حز ٢١ : ١٨ ـ ٢٧، ٢٢ : ١ ـ ١٦).

وأخيرا فى ديسمبر عام ٥٩١ ق.م، بدأ الحصار وعند اقتراب نبوخذ نصر لم يبق أى أثر للمحالفة، وتركت أورشليم وحدها، كجزيرة صغيرة وسط أمواج متلاطمة من جيوش الكلدانيين، على أن سكان المدينة كانوا قد اختزنوا كمية كبيرة من المؤونة، وكانوا يتوقعون كل يوم مجئ "خفرع" فرعون مصر بجيشه لرفع الحصار.

فى وقت الشدة هذا أرسل صدقيا لارميا رجلين معروفين ليسأله عما اذا كان الرب سيتدخل من أجل شعبه، كما فعل فى الأيام الخطيرة فى الماضى، كما حصل مثلا عندما

أباد جيش سنحاريب فى ليلة واحدة لابد أن هذه كانت ساعة حرجة جدا للنبى، لأنه اذا ما نطق بكلمة طيبة أزال كل أثر للحقد والبغض من قلوب الولاة والشعب، وعظم فى عيونهم، ونفى عنه تهمة الفتور نحو شعبه وعدم محبة وطنه، التى طالما وجهت نحوه، لماذا لا يكون كاشعياء ازاء هذا الحصار الجديد؟ لماذا لا يشجع شعبه لمقاومة العدو بكل بطولة؟ لماذا لا يضم صوته لأصوات الأنبياء الذين سبقوا أن تنبأوا لهم بالخلاص، وبذلك يكسب نفوذا عليهم يمكن أن يستخدمه لخيرهم الجزيل ؟.

ليس مستحيلا أن تكون هذه الأفكار قد خطرت بباله. ولكن لو أن ذلك حصل فلابد أن يكون قد انتزعها فى الحال. "فقال لهما ارميا هكذا تقولان لصدقيا. هكذا قال الرب اله اسرائيل هأنذا أرد أدوات الحرب التى بيدكم التى أنتم محاربون بها ملك بابل والكلدانيين الذين يحاصرونكم خارج السور وأجمعهم فى وسط هذه المدينة، وأنا أحاربكم بيد ممدودة وبذراع شديدة وبغضب وحمو وغيظ عظيم. وأضرب سكان هذه المدينة الناس والبهائم معا. بوبأ عظيم يموتون. ثم بعد ذلك قال الرب ادفع صدقيا ملك يهوذا

وعبيده والشعب الباقين فى هذه المدينة من البوبأ والسيف والجوع ليد نبوخذ نصر ملك بابل فيضربهم بحد السيف لا يترأف عليهم ولا يشفق ولا يرحم.

ثم أعقب هذه الكلمات المروعة بالقول ان الطريقة الوحيدة للنجاة هى الخروج للكلدانيين الذين كانوا يحاصرون المدينة وقتئذ من كل ناحية، لأن كل الذين يظلون فى المدينة يموتون بالسيف أو الوبا أو الجوع. اذ يحسبون كالتبن الذى لا يصلح للأكل والمقضى عليه بالطرح خارجا كنفاية. أما الذين يرجون ويسلمون أنفسهم لملك بابل فانهم ينجون بأنفسهم (ص ٢١، ص٢٢ : ١ ـ ٩، ص ٢٤).

وحين كان يشتد حصار أورشليم، وكانت أصوات المتحاربين تشق عنان السماء كل يوم. وأصوات المعاول فى الأسوار تتعالى، وأصوات الجرحى تتزايد، ذهب ارميا مرة أخرى ـ غير هياب ولا وجل ـ الى صدقيا حاملا اليه الأنباء الأليمة بأنه لن يستطيع أحد أن ينجى المدينة من تدميرها وحرقها طالما كان الله قد سلمها ليد ملك بابل، وأنه لابد

أن يسلم هو شخصيا ويراه وجها لوجه "وتكلمه فما لفم وتذهب الى بابل" (ص ٣٤ : ١ ـ ٧).

وفى نفس الوقت رن صوت حزقيال المروع مخترقا الصحراء الفسيحة "ويل لمدينة الدماء. كثر الحطب. أضرم النار. ثم ضعها فارغة على الجمر ليحمى نحاسها ويحرق فيذوب قذرها. أنا الرب تكلمت. لا أشفق ولا أندم" (حز ٢٤ : ٩ ـ ١٤).

٢ ـ وجهة نظره نحو اليهود الذين كان لهم العبيد :

ليس مستحيلا أن تكون كلمات التوبيخ القاسية التى نطق بها ارميا قد حركت ضمائر شعبه البليدة. لهذا نجدهم يعتزمون، بناء على اقتراح صدقيا، التفكير فى خطاياهم، وتدعيم قواتهم الحربية، باطلاق عبيدهم أحرارا. تم هذا بعد أن قطعوا على أنفسهم عهدا قويا فى الهيكل. وتأيد هذا العهد الذى التزم به كل الشعب ـ بأقدس الطقوس. اذ قطع عجل الى نصفين، جاز وسطهما رؤساء يهوذا ورؤساء أورشليم، والكهنة وجميع المعتبرين فى الشعب، كأنهم يقولون: ليقطعنا الله الى نصفين، كهذا العجل، ان كنا

ننكث هذا العهد لاطلاق اخوتنا وأخواتنا العبرانيين والعبرانيات المستعبدين لنا الآن.

عم الفرح مئات القلوب، فقد انضم للمدافعين عن المدينة المحاصرة عدد وفير من الرجال الأقوياء. وأفضل من كل هذا فقد أحسنت الأمة الصنيع فى عينى الرب. وبعد انقضاء فترة نحو شهرين اغتبط سكان المدينة حين أدركوا أن قوة هجوم نبوخذ نصر قد ضعفت، وأن الجيش المحاصر قد بدأ فى الانسحاب. وسرعان ما فك الحصار، فتنسم سكان المدينة المحاصرين زمنا طويلا رائحة الحرية، واستطاعوا الخروج.

كان سبب هذا التحول اقتراب جيش فرعون. وظن اليهود بأنهم لن يروا وجه أعدائهم ثانية، ولابد أنهم ازدروا بارميا ايما ازدراء. ثم انهم نكثوا بعهد التحرير، الذى سبق أن قطعوه على أنفسهم، وألزموا العبيد والاماء الذين سبق أن حرروهم بالرجوع الى حالتهم الأولى.

فى تلك الفترة التى شمل فيها الفرح قلوب الأمة حين بدت كلمات النبى بأنها كاذبة وحين تحول الخوف الذى كانت تبعثه كلماته الى بغض الشخص الذى نطق بها وحين بدا كأنه قد أصبح منبوذا من الرب نفسه، فلابد أنه

كان يتطلب ايمانا غير عادى، وشجاعة نادرة لكى يتجاسر ويرفع احتجاجا قويا.

على أنه لم ينحرف قيد شعرة عن طريق الواجب، فان حماقة شعبه. وخيانتهم للعهد الذى قطعوه على أنفسهم وخيبة آمال العبيد والاماء وآلامهم وكرامة الرب التى قد ديست، هذه كلها ألزمته لرفع الصوت عاليا. لذلك هكذا قال الرب : "أنتم لم تسمعوا لى لتنادوا بالعتق كل واحد الى أخيه وكل واحد الى صاحبه. هأنذا أنادى لكم بالعتق للسيف والوبأ والجوع. وأدفع الناس الذين تعدوا عهدى ليد أعدائهم. فتكون جثثهم أكلا لطيور السماء ووحوش الأرض. وأدفع صدقيا ملك يهوذا ورؤساءه ليد جيش ملك بابل الذين صعدوا عنكم. هأنذا آمر يقول الرب وأردهم الى هذه المدينة. فيحاربونها ويأخذونها ويحرقونها بالنار. وأجعل مدن يهوذا خربة بلا ساكن" (ص ٣٤).

كان الأمر يتطلب شجاعة أدبية غير عادية، وشعورا برفقة اللّه لكى يتجاسر على النطق بمثل هذه الكلمات. ولاشك فى أنهم رجموا رأسه ـ وهو وحيد أعزل ـ بأحجار من الاساءات لا عدد لها. كان ميسورا لهم جدا أن يهزأوا به اذ بدا فى

أعينهم أن الأنبياء الكذبة صادقين وأنه هو الكاذب. ولابد أن يكون أعداؤه أيضا قد تألموا لأن صوت الضمير فى داخلهم ـ ولم يكن قد مات بعد ـ احتج عليهم شاهدا بأنه انما تكلم بكلمة الرب.

٣ ـ وجهة نظره فى فترة السكون :

كانت المدينة فى نشرة الفرح. فالكلدانيون انسحبوا، وفرعون فيه أكثر من الكفاية للوقوف مقابلهم ان عادوا، وهم لن يعودوا. لقد انقشعت السحابة، فليس ما يدعو للخوف. أما ارميا فانه لم يغير لهجته. وبدا كلامه كنعيق الغراب وسط تغريد عصافير الربيع. كان مليئا بالحزن، غير محبوب، يدعو الى امتلاء القلوب هلعا وشكوكا. لقد كان يسيرا، بل مريحا له، أن يسير مع التيار الجارف حوله. ولكنه لم يتجاسر على أن يقف هذا الموقف. وعندما أوفد اليه الملك رسلاً آخرين ليسأل له الرب، بعث اليه هذا الجواب المروع "لا تخدعوا أنفسكم قائلين ان الكلدانيين سيذهبون عنا لأنهم لا يذهبون. لأنكم وان ضربتم كل جيش الكلدانيين الذين يحاربونكم وبقى منهم رجال قد طعنوا فانهم يقومون كل واحد فى خيمته ويحرقون هذه المدينة بالنار" (ص٣٧ : ١ ـ ١٠).

ان لأنبياء الله بصيره حادة يستطيعون بها أن يروا نتيجة الصراع بين الكلدانيين والمصريين، وذلك لكى يتمكنوا من أن يملأوا قلوب شعبهم بالرجاء فى الخلاص. فان ارميا سبق فرأى ابنة مصر تخزى وتدفع ليد شعب الشمال، بل طلب أن تذاع أنباء الهجوم فى مدنها الرئيسية (ص ٤٦ : ١٣ـ٢٨) أما حزقيال فان كلماته لا تقل وضوحا هكذا قال السيد الرب "أشدد ذراعى ملك بابل واجعل سيفى فى يده. واكسر ذراعى فرعون فيئن قدامه أنين الجريح" (حز ٣٠).

بعد ذلك بقليل انتهز النبى فرصة انسحاب الكلدانيين لزيادة ميراثه فى عناثوت يقصد تحصيل نصيبه هناك، ربما نصيبه من الايجار، أو نصيبه من العشور بين عائلات الكهنة التى كان عضوا فيها. واذ كان يجتاز باب بنيامين عرفه أحد الرؤساء (يرئيا) كانت بينه وبين عشيرته عداوة طويلة الأمد فانتهز هذه الفرصة للانتقام منه (ص ٣٧ : ١٣) وقبض على النبى، قائلا "انك تقع للكلدانيين".

كانت هذه تهمة سخيفة، لأن الكلدانيين رفعوا الحصار، وكان مرفوضا أن لا يعودوا. كانت الحجة على أى حال كافية فى نظر يرئيا لالقاء القبض على ارميا. ورغم أن ارميا

أنكرها كل الانكار فانه قد أخذ بعنف الى الرؤساء الذين اغتبطوا لوقوع عدوهم الألد تحت رحمتهم، كما اغتبط الكهنة الذين عرض عليهم يهوذا تسليم المسيح.

فى حادثة مماثلة، فى حكم ملك سابق، أنقذه اخيقام بن شاقان. أما الآن فاما أنه كان قد مات، أو كان فى السبى. ثم ان صدقيا كان ضعيفا عن أن يتدخل لانقاذ النبى من غضب سادته، حتى ولو علم بالخطر المحدق به. وأخيرا حكموا عليه بالجلد، فهوت على ظهره العارى أربعون جلدة الا جلدة ثم "جعلوه فى بيت السجن"، فى جب سفلى حالك الظلام، لا تتوفر فيه أبسط الوسائل الصحية، حيث قضى هنالك بضعة أيام تعرضت فيه صحته بل حياته كلها للخطر المحقق.

وبعد فترة وجيزة استدعاه صدقيا من سجنه، كما استدعى هيرودس يوحنا المعمدان، ليتحدث اليه فى شئون "بيته سرا" وسأله فى لهفة "هل توجد كلمة من قبل الرب". ولعل الباعث على استدعائه توبيخات الضمير القاسية، أو انزعاجه من الأخبار التى أتته من حدود البلاد.

ويا لها من فرصة تلك التى سنحت لارميا لتهذيب

حديثه والتكلم بكلمات ناعمة، والتخفيف من حدة الحق الأليم. بذلك كان ممكنا أن يكسب رضى الملك، ويضمن لنفسه خلاصا من آلامه التى لا تحتمل. ولكنه فى هذه المرة أيضا أبى الا أن يكون أمينا للحق فقال ارميا : "توجد، فقال انك تدفع ليدك ملك بابل".

بعد ذلك تضرع ارميا الى الملك للتخفيف من قسوة الحكم الصادرة ضده، فأجاب الملك ملتمسه "وأمر أن يضعوا ارميا فى دار السجن (المجاور لقصره) وأن يعطى رغيف خبز كل يوم من سوق الخبازين حتى ينفد كل الخبز من المدينة" وفى نفس الوقت رجع جيش الكلدانيين بعد أن هزم فرعون، ثم ضيق الحصار على أورشليم، حتى سقطت فى أيديهم كسقوط العصفور فى الفخ.

من المستحيل أن نقرأ هذه الرواية دون أن نعجب بذلك الرجل الذى استطاع أن يقف وحيدا مع الله ضد أمة مسلحة انه ليذكرنا يزيجنبلج Ziegenbalg أول مرسل فى جزائر الهند الشرقية، الذى وقف وحيدا فى وجه كل السلطات الرسمية التى اعتزمت أن تقضى على ارساليته فى مهدها ويذكرنا بجدسن Judson الذى ظل يتابع خدمته لخلاص

بورمـــا وسط خيانـــات وعداوة الملك، وموفات Moffat الذى ذهب وحيدا غير مسلح الى جنوب أفريقيا للخدمة بين شعبها المتوحشين، وجون هنت John Hunt الذى كرز بين آكلى لحوم البشر فى جزائر فيجى، وجون باتون John G. paton الذى نجا من خمسين مؤامرة لقتله.

بل يذكرنا بالبطل العظيم اثناسيوس الرسولى الذى وقف وحيدا فى نضاله لما قيل له "أما تبالى بأن العالم كله قد صار ضدك" قال قولته المأثورة "وأنا صرت ضد كل العالم".

ان واجبنا الوحيد هو أن نحرص على أن نكون سائرين حسب الخطة التى رسمها الله ومتممين عمله، أن نشدد أنفسنا بالتأكد من رفقة الله لنا، أن نتطلع دواما للوعد الأكيد "أنا معاك لأنقذك" وحينئذ نتخطى كل الحواجز ونجتاز وسط جيوش من الأعداء دون أن نمس بأذى، ونقف كأعمدة فى هيكله لا نتزعزع.

* * *

- ١٨ -

«يقع فى الأرض ليموت»

(ار ٣٢)

كل رغباتنا وآمالنا وأحلامنا سوف تتحقق
ليس أشباهها بل هى نفسها
فى الأبدية حينما يجلو كل غامض
فالنور الذى كان يبدو أعلى من أن نصل اليه .
وأعمال البطولة التى كان يبدو مستحيلا اتمامها
والموسيقى التى صعدت لله
من قلوب المحبين والمرنمين
يكفى أن يكون الله قد سمعها مرة أما نحن فاننا سنسمعها قليلا فقليلا

(براوننج)

حينما كان ارميا محفوظا فى دار السجن، ولعله كان مقيدا بلسلسلة لتحد من حريته، تلقى اعلانا الهيا بأن عمه سوف يأتى اليه قريبا طالبا اليه شراء عقار العائلة فى عناثوت أذهله هذا جدا، لأنه كان مقتنعا اقتناعا يعتقد أنه الهى، من انقلاب المملكة قريبا، وخراب الأرض بالتالى. كانت رسالته

الدائمة لشعبه مدة أربعين سنة تقريبا أن الأرض يجب أن تستوفى سبوتها اقتصاصا من خطية الشعب ولذلك كان غريبا جدا أن يطلب منه شراء الحقل فى عناثوث كأنها تحتاج الى التفليح سبب له الأمر الالهى بعض الارتباك، ولعله جعله الى لحظة يتساءل عما اذا كان هنالك خطأ فى الرسالة التى نادى بها باستمرار فى آذان شعبه.

وعلى أى حال فانه لم يبد على وجهه أى شئ من علامات الارتباك. ولكن عندما تقدم اليه عمه بالطلب قبل النبى ما عرضه عليه، واشترى الحقل بسبعة عشر شاقلا (نحو جنيهين).

يدون لنا التاريخ الرومانى حادثة مماثلة : فانه عندما كان هانيبال يحاصر روما طرحت نفس الأرض التى كان يعسكر فيها فى المزاد وبيعت، دليلا على الهدوء التام الذى كان سائدا على الرومانيين، وثقتهم الكاملة فى نتيجة الحرب.

وعلاوة على هذا فان ارميا حرص على أن يكون الشراء بموجب وثيقة مكتوبة، يوقع عليها الشهود، واتخذ جميع الاحتياطات اللازمة كأنه سوف يضع يده على الأرض فورا. لم يغفل أى اجراء قط، بل كتب صكا الشراء اللازمين،

الأول مختوم، يحوى جميع التفاصيل الخاصة بالثمن، والآخر مفتوح يحمل امضاءات الشهود. وأودع كلاهما فى عهدة باروخ، وأوصى بحفظهما فى اناء خزفى وابقائهما أياما كثيرة، ولعلهما لم يفتحا ثانية قبل الرجوع من السبى، ويمكننا أن نتخيل كيف وجد الذين قرأوهما فيما بعد الكثير من الانفعال والثقة.

على أن ارميا لم يشترك فى هذا المنظر المفرح. فانه انما فعل كما أمره الله، رغم أن نفسه كانت تجتاز ظلمة كثيفة لم يجد راحة خلالها الا بالالتجاء الى الآب كما فعل الرب فوق الصليب. والواقع أنه فى هذه الناحية من حياته يشبه الاناء المخبأ الذى كان يحوى وثيقة خلاص الأمة، لقد كان اناء خزفيا ولكنه كان يحمل كنزا سماويا. لقد وقع فى الأرض ليموت، كما تقع حبة الحنطة، التى تحمل جرثومة الحياة، والتى لا تستطيع أن تظهر الحياة الا عن طريق الموت، ولا تستطيع اشباع الناس الا اذا زرعت وتوارت وتعفنت.

١ ـ ساعات الظلمة الحالكة :

لا يستطيع أى شئ أن يظهر فى أكمل مظاهر الحياة الا عن طريق الخدمة. فقطعة الحديد تبقى وحدها، عديمة

الجدوى، حتى تصير جزءا من آلة ميكانيكية عظيمة.

وحبة الحنطة اذا اختبأت ثلاث آلاف سنة فى قبر أحد الفراعنة تبقى وحدها ولن تستطيع، أن تتعلم مجرد الوجود الا اذا تعلمت ـ عن طريق الموت ـ كيف تحلل تحليلا كيماويا عصارة الأرض والندى. وأشعة الشمس والهواء، وتخرجها الى نبات القمح الجميل.

والرجل الذى يعيش لذاته، ولا يبتغى سوى اشباع رغباته الخاصة، لن يدرك لذة الوجود، ولن يصل الى الحياة الناضجة.

اننا حين نعيش لله، وبالتالى حين نعيش للآخرين، فحينئذ فقط نجد الطريق الى أسمى البركات التى تستطيع الوصول اليها طبيعتنا البشرية، ونصل الى ملء قامة المسيح.

لذلك فان ارميا لا يمكن مطلقا أن يكون قد أسف لأنه كرس كل مواهبه وكل حياته لخدمة الآخرين. لأنه لم يكن قد فعل هذا، بل أحجم عن تلبية الدعوة العليا التى دعى اليها فى فجر حياته، لحل به البؤس والشقاء والتعاسة بنسبة سمو طبيعته وبنسبة قدرته على اسعاد الآخرين.

على أنه لا يستطيع أحد أن يكرس نفسه لخدمة الآخرين الا بتضحية أعز شئ فى نظر هذا العالم. وحسب تعبير المسيح ان حبة الحنطة ينبغى أن تقع فى الأرض وتموت لكى تأتى بثمر كبير ـ الموت فى حالة حبة الحنطة ـ لازم لكى يحطم الغلاف الخارجى الذى حبست بداخله جرثومة الحياة. وفى حالة كل شخص أمين لابد من الموت عن اغراءات وملذات حياة الذات حتى اذا ما تحررت النفس من ذاتها خرجت لكى تستمد الغذاء من الله، فتحلله وتقدمه لاشباع الآخرين. وهذا يفسر لنا الفقر المادى والأحزان التى انتابت ارميا: فالموت عمل فيه لكى تعمل الحياة فى اسرائيل، وفى كل من يقرأ سفر نبوته.

١ ـ لقد مات عن ربط المحبة البشرية القوية:

"لا تتخذ لنفسك امرأة ولا يكون لك بنون ولا بنات فى هذا الموضع" (ص ١٦ : ٢) هذا ما أمر به فى بدء حياته. لقد تآمر عليه رجال عناثوث، مدينة آبائه. ولقد غدر به الأصدقاء الذين كانت تحلو معهم العشرة، والذين كانوا يرافقونه الى بيت الرب. وان ما كان يحمله فى قلبه من

حب وعطف وغيرة كان يمتد الى كل البشرية، ولم يشأ أن يحصره فى دائرة وطنه الضيقة أو دائرة الكهنوت الأضيق، أو دائرة قرية عناثوث الأضيق.

٢ ـ ومات عن أن يكون فى وئام مع رفاقه :

لا يستطيع أحد أن يستغنى عن عطف الأصدقاء. من الميسور أن تتمم أى عمل أو تتحمل أية تضحية حينما تجد الجو الذى يحيط بك مليئاً بالمشجعات، والقلوب التى حولك تتدفق محبة وعطفاً. حينئذ تجد نفسك وثابة تحاول أن تبذل أقصى ما فى وسعها، ولقد كانت طبيعة ارميا الرقيقة الاحساس خاضعة لنفس هذه المؤثرات. ولكنه لسوء حظه قوبل من بداية حياته بعاصفة من الاساءات والضغائن والأحقاد. وأنك لن تعثر فى الكتاب المقدس على أى أثر لأى صوت أرتفع بشكره أو تشجيعه. استمع اليه وهو يصرخ بمرارة "ويل لى يا أمى لأنك ولدتنى انسان خصام وأنسان نزاع لكل الأرض: لم أقرض ولا أقرضونى وكل واحد يلعننى" (أر ١٥ : ١٠).

٣ ـ ومات عن كبرياء محبة الوطن :

كان شخص يحب وطنه لا يسمح لعوامل اليأس بأن تدب فى نفسه من جهة بلاده. ومهما كانت السحب قاتمة والتيار المضاد شديداً فانه يثق بأن سفينة الدولة لابد أن تصمد أمام العواصف. ولا يسمح لأذنيه بأن يسمع كلمات اليأس أو الكآبة لئلا تولد فى نفسه التورط وقطع الرجاء، ولا يسمح لقلبه باطالة التأمل فى عوامل اليأس التى تطرق على بابه بل يطردها فى الحال ويمنعها من الدخول، وينظر اليها كأكبر خائن غادر. أما أرميا فكان على العكس من ذلك تماماً. صحيح أن أمانة قلبه لم توجد فى أى قلب بشرى نظيره، ومحبته لوطنه كانت منقطعة النظير. وايمانه باسرائيل كان جزءاً من أيمانه بالله، لكنه وجد نفسه مضطراً أن ينطق بكلمات اعتزم الرؤساء من أجلها الحكم عليه بالموت، بدون مبرر، لأنهم رأوا بأنها أضعفت أيدى رجال الحرب.

٤ ـ ومات عن لذة الحرية الشخصية :

لقد أدى جزءاً كبيراً من خدمته فى أعماق السجون، وكم من مرة نقرأ بأنه وضع فى بيت السجن لا يستطيع الخروج، وكان صديقه ماروخ يعمل كوسيط له بصفة مستمرة ويتحدث بلسانه. ولا شك فى أن هذا أيضاً كان يحز

فى نفسه جداً. وأنك لتجد كتاباته مليئة بالاشارات الى الطبيعة والى مظاهر الطبيعة، ولابد أن القيود الحديدية التى كانت تحد من نشاطه كانت تحز فى قلبه الرقيق.

٥ ـ ومات أيضا عن المعنى الذى تعود أن يفسر به نبواته: الى اللحظة التى أمره فيها الرب أن يشترى حقل حنمئيل لم يتساءل قط عن مصير أورشليم الذى كان وشيكا أن يحى بها، كان مقضيا عليها حتما أن تهلك بالسيف والجوع والوبأ والنار وكل ما نطق به الى ذلك الوقت فى السر أو العلن لم يكن الا تأييدا جديدا لذلك القضاء الأليم مع بعض التعبيرات الجديدة من العطف أو مع أدلة جديدة من التأكيد. أما الآن فان كلمة الرب الواجبة الطاعة، تشير بأن الأرض ستبقى فى يد العشائر التى تمتلكها لكى تفلحها.

٢ ـ تصرف ارميا :

لم يعط الا لأفراد قليلين جدا أن يقتفوا نفس الخطوات التى سار فيها الفادى أيام حياته على الأرض. فان ارميا جرد تقريبا من كل ما يعتبره البشر من أنفس البركات الزمنية. ولكنه وسط كل هذا الحرمان يجد تعزية فى ثلاث نواح رئيسية :

١ ـ انه صلى :

استمع الى هذه الكلمات التى يدونها فى مذكراته الشخصية "ثم صليت الى الرب بعد تسليم صك الشراء لباروخ بن نيريا قائلا "آه أيها السيد الرب" وفى ذلك وجد معونة كبرى وتشجيعا عظيما. لأنه بعد هذا الحادث بقليل حينما أتته الأنباء بأن بيوت ملوك يهوذا تهدم لاعداد العدة، لبناء خط داخلى للدفاع خلف السور الذى كاد يخترقه العدو، وحينما سادت نفسه كآبة خانقة صارت كلمة الرب اليه قائلة "ادعنى فأجيبك وأخبرك بعظائم وعوائص لا تعرفها" (ص ٣٣ : ١ ـ ٥).

لن تجد النفس المتعبة معونة وتعزية كما تجد عن طريق الصلاة. قد لا ترى الله رؤية واضحة. وقد لا تستطيع الا أن تتحسس الطريق حيث يجلس الله، لأن ظلمة كثيفة حجبت أنظارك. قد لا تستطيع أكثر من أن تردد بعض أمور لا يعرفها الا الله وأنت، وتختم صلاتك بهاتين الكلمتين اللتين ختم بهما ارميا صلاته قائلا "أما ترى" (ع ٢٤). ورغم ذلك صل، أجث على ركبتيك وصل "لا تهتموا بشئ بل فى كل شئ بالصلاة والدعاء مع الشكر لتعلم طلباتكم لدى

الله" (فى ٤ : ٦) وحينئذ يستقر سلام الله الكامل على نفسك المتعبة.

ب ـ واتكل على كلمة الله:

كانت نفس النبى تتغذى على كلمة الله. استمع اليه وهو يصرخ قائلا "وجد كلامك فأكلته، فكان كلامك لى للفرح ولبهجة قلبى". قد تكون نصيحة جافة أو قاسية أو ثقيلة أن تأمر شخصا حزينا بقراءة الكتاب المقدس. ولكنك لن تجد نصيحة أثمن منها. لأن الله "الكلمة" وراء كلماته المكتوبة. فى هذه الحديقة يتمشى ابن الانسان وفى هذا المسكن تشرق شمس البر، والشفاء والصحة والتعزية فى أجنحتها.

ما أكثر المرات التى لجأ فيها شعب الله الى الكتاب المقدس كما كان يفعل المسيح فى أحلك الساعات، فوجدوا فى أحد المزامير أو أحد الاصحاحات بلسان جلعاد، وشجرة الحياة بأوراقها الشافية.

جـ ـ وظل أمينا فى تأدية الواجب :

"فاشتريت الحقل" ليس من المحتم أن تقابل خدمتنا للناس

دواما بالرفض والمقاومة والاضطهاد. ولكن حيثما كان هذا هو الحال فيجب أن لا يكون هنالك أى تردد أو رجوع الى الوراء. فشمس الله تشرق على الأشرار كما على الصالحين، والأمطار تتساقط على حقول الجاحدين والشاكرين، والرياح اللافحة المحملة بالثلوج التى تهب فى وجهك ليست محبوبة كنسيم الصيف العليل، ولكنك ان كنت تستطيع أن تبصر الطريق وجب عليك اتباعه، لأنك ان انحرفت عنه يمينا أو شمالا عرضت نفسك للخطر الشديد. حينما لا يحصد المرء، الذى يجاهد وحيدا، سوى التعيير والمقاومة، حينما يرفع فوق الصليب كفاعل شر، فانه فى غالب الأحيان يجد تعزية فيما يؤمله من البركات التى سوف تنحدر على من رفضوا ايحاءات الذات، كما حل الروح القدس على قاتلى المسيح.

هذه هى تعزيات النفس فى أوقات الحزن. انها تنطرح على الأرض صارخة "يا أبا الآب" وترتكز على كلمة الوعد التى تحملها اليها ملائكة الله، وتخرج لكى تقدم نفسها للموت، واثقة أن الحياة تنتظرها.

٣ ـ الجزاء :

لكل الأودية جبال، ولكل عمق علو، وساعات نصف

الليل الحالكة الظلام لابد أن تعقبها ساعات شروق الشمس، ولكل جثسيمانى جبل الزيتون. اننا لا يمكن أن نضحى شيئا من اجل الله أو الانسان دون أن نكتشف بأننا فى اللحظة التى نقدم فيها التضحية يبدأ باعطائنا الجزاء، كما سبق أن قال للنبى "عوضا عن النحاس آتى بالذهب، وعوضا عن الحديد آتى بالفضة، وعوضا عن الخشب بالنحاس، وعوضا عن الحجارة بالحديد". نحن لا نقدم التضحية بفكرة رد الجميل الينا على اننا عندما نقدمها خالين من الأغراض الشخصية فاننا ندرك أن المسيح اذا استعار سفينة ردها محملة بالسمك الكثير.

على أن الله لا يحفظ الجزاء للعالم الجديد، عالم الأبدية، لأنه ان كان هذا هو الحال لطال الانتظار. ولكننا نعلم أن الجزاء هنا، الآن. قد يبدو للانسان الذى احتبس طويلا فى صومعته خوفا من النور، وخوفا من نظرات الآخرين اليه، وهربا من الجهاد والنضال ـ قد يبدو اليه أنه عسير عليه تركها. ولكنه ينال جزاءه حينما يزول عنه تصلب المفاصل وتزول عنه دهشته لمجرد النظرة الأولى لما يحيط به؟ قد يكون عسير علينا التخلص من حياة الاثرة والأنانية فى

بداية الأمر، وتحمل أغضاء الآخرين. ولكن الله لديه أمور كثيرة ليعلنها الينا، وبركات غزيرة ليحملها الينا، كما يزيل عن النفس كل أثر لمحبة الذات.

هذا ما وجده ارميا. فانه نال جزاءه، اذ صار الله عزاءه ومسح دموعه وكشف أمامه لوحة المستقبل، التى رأى فيها أن شعبه قد استقروا ثانية فى أرضهم، رأى الناس يشترون الحقول بالثمن، ويكتبون الصكوك ويختمونها كما فعل هو.

سمع "صوت الطرب وصوت الفرح، صوت العريس وصوت العروس، صوت الذين يأتون بذبيحة الشكر الى بيت الرب". كان واثقا من مجئ ابن الانسان، أصل وغصن داود، الذى يجلس على كرسيه (ص ٣٢ و ٣٣).

ثم نال جزاءه أيضا فى المعاملة الحسنة التى عامله بها نبوخذ نصر، وفى الثقة الكاملة التى وضعها شعبه الكسير فى صلواته، كما سنرى. ولو أنه أدرك فقط عشرات الملايين الذين وجدوا عزاءهم فى أخبار آلامه، وتأكيدات نبواته، لأدرك يقينا أن آلامه خفيفة لا تقاس بثقل المجد الأبدى الذى كانت تنشئه.

هذا ما يحصل لكل الذين يقعون فى الأرض ليموتوا. فان

الله لا ينساهم ولا يتغافل عنهم. ان كان القبر حالك الظلام، والشتاء طويلا، والصقيع قاسيا، فان الربيع لابد آت، والحجر سوف يدحرج، والنبات الذهبى الجميل سوف يخرج من الأرض، ويتمايل فى نور الشمس حاملا أثماره. سوف ينتفع الناس من خبز اختباراتنا، ومن محصول دموعنا وآلامنا وصلواتنا.

* * *

ـ ١٩ ـ

«سقوط أورشليم»

(ار ٣٨ و ٣٩)

بين كل البشر غير الأمناء
لم يوجد أمينا سواه
ووسط كل الكذبة الأردياء
قد احتفظ بمحبته وغيرته وتقواه
لم تزعزعه عن ثباته أو عن الحق أية قوة
رغم أنه وقف وحيدا
بل جاز وسط كل أعدائه
غير هياب ما فيهم من بطش أو سلطان أو دهاء
وولى ظهره لأولئك الشامخين بأنوفهم
الذين قضوا على أنفسهم بالخراب والدمار

(ملتون)

لعله لم توجد نفس آمنة مطمئنة فى سلام تام فى تلك المدينة المزدحمة الا ارميا خلال فترة الحصار الطويلة التى فى حائط دار السجن اخترق بنظره الثاقب الدائرة الضيقة التى كان محصورا فيها الى العصر المزدهر الذى سوف يخلص فيه يهوذا وتسكن أورشليم آمنة وتعرف الذى سوف يخلص فيه وسط صراخ المهاجمين، وعويل المدافعين، وأصوات المتاريس امتلأ قلبه بسلام الله الذى فاق عقل أولئك الذين غصت بهم المدينة من الداخل وناءت بهم من الخارج، والذين اكتظت بهم الطرقات من المدينة الى القصر الملكى.

١ ـ أهوال الحصار :

لقد استمر فى جملته نحو ثمانية عشر شهرا، بما فى ذلك الفترة القصيرة التى استراحت فيها المدينة من الحصار بسبب اقتراب جيش فرعون ومن المستحيل أن نتصور مقدار الآلام البشرية التى حدثت وقتئذاك. ولعلنا نستطيع أن نكّون فكرة بسيطة عنها من الرجوع الى كلمات حزقيال التى فيها يصف هذه الأهوال، اذ سبق فرآها كما فى مرآة. فانه رأى القدر مملوءة لحوم خيرة الناس، وموضوعة فوق النار حتى تلاشت اللحوم (حز ١١). ورأى الوعاء الحديدى

يحيط به اللبن كما تحيط جيوش الكلدانيين بالمدينة المحاصرة ورأى المكيال الشحيح للقمح والشعير والفول والعدس والدخن والكرسنة الذى تكال به يوما فيوما، الذى يكاد يكفى لغذاء النبى. ورأى كعك الشعير المختلط بخثى البقر، والذى ولو كان كريه المذاق ال أنه يلتهم التهاما. ورأى تهيئة أهبة جلاء لنفسه، وارتحاله قدام عيونهم، وخروجه من ثقب فى الحائط مساء بوجه مغطى وكتف محمل (حز ٤ ,١٢ : ١ ـ ٦) كل هذه تبين بوضوح كامل أهوال ذلك الحصار.

تصور المدينة المكتظة، التى اجتمع اليها من كل البلاد الفلاحون والقرويون الذين التجأوا اليها حاملين معهم ما استطاعوا جمعه وحمله من نفائسهم، طالبين الاحتماء داخل أسوار صهيون القديمة من بطش الجيوش المغيرة التى لا تعرف الرحمة الى قلوبهم سبيلا. ان كانت القبائل الرحل، كأبناء ركاب، قد اضطروا الى تحطيم قيود تقاليدهم التى التزموا بها أن يعيشوا حياة البدو، وذلك لكى يحتموا داخل مدينة محصنة، أليس بالأحرى أن يلجأ الى نفس السياسة هؤلاء السكان الذين هلعت قلوبهم من شدة الخوف والمبعثرين على الجبال؟ ولاشك أن هذه الجماهير اللاجئة

الى المدينة قد أضعفت كثيرا من قوة الدفاع بسبب ما كانت تستنفده من المؤونة التى كانت محفوظة لمدة الحصار، وبسبب شل حركة الجنود.

أما الحادثة المشار اليها فى الفصل السابق عن هدم جزء من بيت الملك لاعداد المواد اللازمة لخط الدفاع الداخلى فهى عينة من الجهود الجبارة التى بذلها صدقيا وشعبه لصد هجوم تلك الجيوش الوحشية المتعطشة الى الدماء كما يرفع البحر أمواجه لتتصادم مع الصخور الراسية فتتناثر عالية فى الهواء هنا جماعة من المتسلقين يجب أن يطوح بهم مع سلمهم الذى يتسلقون عليه. هنالك محاولة لحفر خندق يجب صدها. والآن تأتى أنباء بأن جزءا من السور الذى تعرض لمقاومة المتاريس الخارجية، وفعل المعاول القوية، قد ضعف، ويجب تدعيمه من الداخل، ثم يجب اتخاذ الاحتياطات لدرء أخطار النيران أو السهام أو الحجارة التى قد يقذفهم بها العدو. لم يتغافل القوم عن دفاعهم لحظة واحدة، ولم يذوقوا طعم الراحة برهة. ولابد أن المجلس الحربى كان دائم الانعقاد للاستعداد لحيل العدو. وعلى مر الأيام كانت المؤونة تتناقص، والمياه المختزنة تقل فلا تترك الا

الوحل كما كان الحال فى جب ملكيا (ار ٣٨ : ٦).

دام الحال على هذا المنوال فى الشهور الأولى من الحصار ولكن لما طال الأمد ازدادت الحالة سوءا. وكأن طاقات جهنم قد انفتحت فقذفت بآخر ما عندها من أهوال. فقد كنت ترى أبناء صهيون الأعزاء، الذين كانوا يشبهون بالذهب النقى، منطرحين بالعشرات فى أفنية بيوتهم، متحطمين كآنية خزفية والنساء تقست قلوبهن كأنها قد قدت من صخر، فعز عليهن تغذية فلذات أكبادهن بألبانهن التى رأين أنهن فى أشد الحاجة اليها شخصيا. وجفت ألسنة الرضعان حتى عجزوا عن البكاء. أما الأطفال وقد نحلت أجسامهم، وكان حريا العناية بهم قبل كل شيء، فكانوا يولولون فى طلب الخبز، وعبثا كانوا يطلبون. وكرائم السيدات كن يفتشن فى أكوام الزبالة لعلهن يجدن ما يخفف آلام الجوع. والأشراف فقدوا حسن طلعتهم وجمال منظرهم وطافوا فى الشوارع كجثث متحركة. وكان قتلى السيف فى الخارج أقل من قتلى الجوع فى الداخل.

واذ وصلت الأهوال الى منتهاها ذبحت النساء الرقيقات القلب فلذات أكبادهن ليهيئن لأنفسهن طعاما.

وأخيرا بدأ الوباء يحصد النفوس حصدا، فان الروائح النتنة تصاعدت من الجثث التى كانت تتناثر كل يوم كأوراق الخريف وتتكدس فى الشوارع ولا تجد من يدفنها. وكانت هذه الروائح الكريهة هى المنجل الأخير الذى حصد كل الذين نجوا من العدو ومن المجاعة.

آه يا أورشليم، يا راجمة الأنبياء، وسافكة دم الأبرياء هذا هو يوم غضب الرب الذى حل لانقلابك. لم تشعل يد بشرية تلك النيران، ولم يكن أى غضب بشرى هو السبب فى تلك الآلام والأهوال. بل أنت يا اللّه هو الذى قتلت الكاهن والنبى فى مقدسك، الصبيان والشيوخ فى الشوارع "قد قتلت فى يوم غضبك. ذبحت ولم تشفق. (مراثى ٢: ٢٠و٢١).

واذ كان ارميا ينتظر يوما فيوما، لا قدرة له على أن يعمل شيئا سوى الاصغاء لأخبار تلك الأهوال التى كانت تحمل اليه من كل جانب، فانه كان يشبه الطبيب الذى عجز عن صد التقدم البطئ لمرض الفالج فى جسم شخص عزيز يحبه أكثر من نفسه، وكان مضطرا أن يستمع كل يوم الى الأخبار التى تنبئ عن تفاقم الخطر موقنا أن هذه ما هى الا درجات فى تقدم الخطر والقضاء على الحياة نهائيا، وواثقا من عجزه التام عن صد هذا الخطر.

٢ ـ أحزان النبى المضاعفة :

علاوة على الآلام التى اشترك فيها ارميا مع بقية الجماهير المزدحمة فى المدينة، فانه تعرض لآلام أشد. فيبدو أنه كان يتحدث باستمرار على مسامع كل الذين كانوا يجوزون بجوار دار السجن بنفس الرسالة التى سبق أن ألقاها الى الملك، وهى أن البقاء فى المدينة عاقبته الموت بالسيف أو المجاعة أو الوباء أما الخروج الى صفوف الكلدانيين فهو الوسيلة الوحيدة للنجاة ولم يضيع فرصة واحدة دون أن يؤكد فيها بأن أورشليم سوف تسلم لأيدى ملك بابل، وأنه سوف يستولى عليها.

واذ تناقلت هذه الكلمات من فم الى فم فانها كانت تحمل معها الرعب والفزع واليأس فى كل أرجاء المدينة. كان الجميع يرددونها وهم يؤدون واجبهم على السور، أو يتجمعون حول النار للاستراحة، أو يتحدثون عن نتائج الحصار المنتظرة. وكان مما يزيد فى قيمة كلمات ارميا أنه يتكلم دواما بكلمة الرب بالصدق واليقين.

اذا فقد كان طبيعيا جدا للرؤساء، الذين يقدرون تمام التقدير أهمية الاحتفاظ بالشجاعة والروح المعنوية القوية بين

الشعب، أن يطلبوا قتل ذاك الذى لم يكن سببا فى ارتخاء أيدى الشعب بوجه عام فحسب، بل رجال الحرب بوجه خاص، ألست ترى أن النائم الذى يغظ فى نومه، ولا يريد أن يوقظه نباح الكلب الحارس، يصوب عليه مسدسه لكى يقتله؟ والملاحون الذين يتمادون فى الملذات والشهوات يقتلون الحارس الذى يقطع عليهم تلذذهم لكى يحذرهم من الخطر المحدق بالسفينة. كان الملك الشاب ضعيفا أكثر من أن يكون شريرا، وكان ألعوبة فى أيدى الرؤساء ورجال الحاشية. لذلك رضخ لطلبهم، فقال الملك صدقيا ها هو بيدكم لأن الملك لا يقدر عليكم فى شئ".

وعلى الفور ألقى ارميا فى احدى الآبار المنحوتة فى الصخر والتى كانت تكثر فى أورشليم. "ولم يكن فى الجب ماء" بسبب اشتداد الحصار، بل كان قاعه مليئا بالوحل "فغاص ارميا فى الوحل". على أن العناية لم تشأ أن تنتهى حياة هذا الخادم الأمين فى رطوبة ذلك القبر الكريه. الذى لم يكن ممكنا أن يسمع منه صراخه، بل دبرت لانقاذه فورا وسيلة غير منتظرة فان خصيا كوشيا - والأرجح أنه غير معروف الاسم لأن "عبد ملك" ليس اسما بل صفة - أسرع الى الملك الذى كان جالسا فى أحد أبواب المدينة للقضاء،

وترافع أمامه، وتوسل اليه أن تتخذ الاجراءات السريعة لانقاذ النبى من موت محقق عاجل. كان هذا الخصى مدفوعا فى عمله بالدفاع عن حق الله. ولقد كان يرمز الى الطريقة التى سوف تنفتح بها قلوب الأمم للترحيب بحق الله، ونشره فى كل أرجاء العالم، والدفاع عنه.

كان الملك يتأثر دواما بآخر مؤثر قوى يعمل فيه. ولذلك رضخ بسهولة لطلب عبده الأمين، ولعله كان خصيا لحريمه، كما كان يرضخ بنفس السهولة للرؤساء. وأمر الملك خصيه بأن يأخذ معه ثلاثين رجلا (ليضمنوا له عدم تدخل أحد فى مهمته) لاخراج ارميا من الجب فورا قبل أن يموت. كان هذا الخصى النبيل رقيق القلب دقيق الاحساس فى الطريقة التى اتبعها لاتمام هذه الخدمة. فانه لم يكتف بمجرد سحب ارميا من قاع الجب، بل وضع فوق الجبال "ثيابا رثة وملابس بالية" أحضرها بأقصى سرعة من بيت الملك، وذلك لكى يضمن عدم ايذاء لحم النبى الغض، كانت هذه رقة كرقة احساس النساء، ومنها انبعثت رائحة زكية كرائحة قارورة الطيب التى سكبت على جسد السيد المسيح.

انه لا يكفى أن نقدم المعونة لمن يحتاجونها، بل يجب أن نقدمها برقة ولطف المسيح. ليست أعمالنا فقط هى التى تنم عن حقيقة شخصياتنا، بل الطريقة التى نؤدى بها هذه الأعمال.

كان ممكنا لأشخاص كثيرين أن يسرعوا بالحبال الى الجب، ولكن شخصا واحدا من أولاد الله الرقيقى الاحساس هو الذى خطر بباله وضع الملابس البالية فوق الحبال.

جميل أن نرى عدم تدوين بعض الحقائق فى الكتاب المقدس فان هذا يعطى المجال للتعليق ببعض السطور على هذه الحادثة البسيطة والفكرة العاجلة التى خطرت ببال ذلك المنقذ الرقيق القلب فبددت ظلمة ذلك النبى الكسير القلب. "فجذبوا ارميا بالحبال. وأخرجوه من الجب، فأقام ارميا فى دار السجن".

من تلك اللحظة حتى سقوط المدينة ظل النبى فى حراسة أمينة. وفى مناسبة خطيرة طلب الملك مشورته ولكن فى سرية تامة. مرة أرى وأخيرة وقف هذان الرجلان قبالة بعضهما: الملك والنبى، الضعف والقوة ممثل مجد داود المنحدر الى الزوال وممثل مجد الحق والبر الذى لا يزول. مرة أخرى سأل صدقيا عن النتيجة، ومرة أخرى تلقى تلك

النصيحة التى بدت حمقاء للعين البشرية وهى أن يختار أحد هذين الموقفين : الهزيمة والموت فى البقاء بالمدينة، والحرية والحياة فى الخروج منها.

فقال صدقيا على الفور : أيليق بى أن أخرج؟ كلا. هذا لا يليق بمن تجرى فى عروقه دماء الملوك. ان فعلت هكذا فاننى أعرض نفسى لهزء كل الذين هربوا الى صفوف الكلدانيين وفضلا عن هذا فان الكلدانيين يدفعوننى الى أيديهم".

فأجابه ارميا "لا يدفعونك". وعندئذ بدأ يتحاجج أمامه كما يتحاجج الانسان عن نفسه. "اسمع لصوت الرب فى ما أكلمك أنا به فيحسن اليك وتحيا نفسك". وأخيرا قدم له - فى كلمات واضحة - صورة عن القضاء المحتم الذى سوف يلقاه الملك ان هو بقى فى المدينة حتى تقع فى أيدى الغزاة. وعوضا عن استهزاء العدد القليل من اليهود القليلين الذين سقطوا فى أيدى الكلدانيين فانه يعرض لهزء نسائه وبنيه الذين يكونون وقتئذ فى أيدى الغزاة، فيسعون نحو ارضاء أسيادهم الجدد بالاستهزاء بالملك المنهزم الذى كانوا يبذلون قصارى جهدهم نحو ارضائه قبلا.

وتذكر نصيحة ارميا هذه بكلمات الرب يسوع التى رددها فى خمس مناسبات مختلفة، والتى يخبرنا فيها أن من أراد أن يخلص نفسه ويهلكها ومن أهلك نفسه يجدها ويحفظها. اننا لا نجد الطريق الأمين المبارك فى اقتصاد قوتنا بل فى بذلها للخدمة، لا فى دفن مواهبنا بل فى استعمالها، ولا فى اختزان القمح بل فى بذره، ولا فى اتباع سياسة أرضية بشرية بل فى اخضاع أنفسنا لارادة الله، ورجل الايمان لا يقضى بحسب نظر عينيه (اش١١ :٣) ، ولا بحسب احساسه، ولكنه يسلك حسب تيار لا يراه العالم، ويعمل تحت ارشاد يستمده مباشرة من روح الله، وذلك الارشاد يكون دواما عن طريق كلمة الله، ومتفقا مع أسمى ايحاءات المنطق البشرى المقدس.

ان ضعف صدقيا الذى تسبب فى هلاكه ظهر فى الطلب الذى طلبه من ارميا بأن لا يخبر الرؤساء عن موضوع حديثهما وأن يخفى الحق تحت ستار يشبه الحق. ليس من الهين أن ندرك الطريقة التى بها أخفى ارميا موضوع حديثه مع صدقيا عن الرؤساء الذين كانوا متلهفين لمعرفته. يبدو فى اجابته شئ من المراوغة، الأمر الذى لا يتفق مع صفات نبى الرب. وفى نفس الوقت لم يكن الرؤساء

الحق فى استجوابه، ثم انه لم يكن ملزما ـ بحكم صلته بهم ـ أن يخبرهم كل الحق.

نحن لسنا ملزمين أن نجيب عن كل الأسئلة الوقحة، على أننا ملزمون بأن نكون واضحين فى أقوالنا وفى أعمالنا وأن نكون صادقين صدقا مطلقا حينما نعترف بأننا نقول كل الحق لأولئك الذين يحق لهم أن يعرفوه.

وفى هذا الموقف الذى نحن بصدده نرى ارميا يحمى الملك بتصرفه النبيل الذى يدل على البطولة الفائقة والولاء التام، ولعل هذا كان آخر مظاهر الولاء للبيت الملكى الذى سكب فى سبيل انقاذه حشاشة قلبه، وذرف الدموع السخينة، وقدم الصلوات الحارة والذبائح الكثيرة زهاء أربعين عاما.

٣ ـ القضاء الذى حل بالمدينة :

وأخيرا فتحت ثغرة فى الحصون القديمة، وبدأ الجنود يتدفقون منها كالبحر الهائج الذى يشق لنفسه منفذا من الحواجز الجانبية، بعد صده طويلا، فتتدفق منه المياه ويحمل الخراب فى طريقه. لم يكن يخطر ببال ملوك الأرض وكل سكان العالم أن العدو يستطيع اجتياز أبواب أورشليم. ولكن

هذا ما حدث وعندئذ هرب الشعب المرتعد من المدينة السفلية الى المدينة العلوية، واذ كانوا يفعلون هذا كان الجنود القساة القلوب يرتكبون أشد الجرائم والأهوال.

غصت تلك المدينة المقدسة بمئات ألوان الأهوال. وويل للرجال الذين كانوا يحاولون أن ينجوا بأنفسهم. والويل أشد الويل للنساء والاماء، للأطفال والرضعان. صحيح ان كل الحروب مليئة بالأهوال، ولكن لعل التاريخ لم يصف للعالم أهوالا أشد من تلك التى سببها نبوخذنصر وقواده وجنوده، فان وحشيتهم دونها وحشية ذئاب غابات سيبيريا. "ودخل كل رؤساء ملك بابل وجلسوا فى الباب الأوسط" الذى أصدروا منه الأوامر لسرعة متابعة الشعب المنزعج الذين اكتظت بهم المدينة العلوية، والذين كانوا مستعدين أن يبذلوا آخر مجهود مستميت.

وفى المساء امتلأ قصر داود القديم بالمشاورات الخطيرة، التى دارت حول اتخاذ كل الاحتياطات اللازمة نحو انقاذ البيت الملكى، فقد كانوا يحسبون الملك "نفس أنوفهم، مسيح الرب" (مراثى ٤ : ٢٠). لذلك رتبوا أنه متى أرخى الليل سدوله يخرج صدقيا وحريمه، تحت عناية كل رجال الحرب، من ثغرة يفتحونها فى السور نحو الجنوب وهكذا

حدث ما سبق أن تنبأ به حزقيال تماما، "والرئيس الذى فى وسطهم يحمل على الكتف فى العتمة ويخرج. ينقبون فى الحائط ليخرجوا منه، يغطى وجهه لكيلا ينظر الأرض بعينيه" (حز ١٢ : ١٢).

وفى جنح الليل تسلل عدد عظيم من الهاربين، كل حامل ما استطاع حمله من أمتعته الضرورية، وجاوزا بهدوء حديقة الملك الخاصة متجهين نحو الثغرة الجديدة، وساروا بين صفين من الرجال المسلحين. لو أنهم فقط استطاعوا الوصول الى سهول اريحا حتى طلوع الفجر لوجدوا الأمل فى النجاة من غضب مقتفى أثرهم. ولكن لابد أن صدقيا كان طول الليل يذكر كلمات ارميا الأخيرة "أنت لا تفلت من يدهم، لأنك أنت تمسك بيد ملك بابل" "ويل لمن يخاصم جابله. خزف بين أخزاف الأرض. هل يقول الطين لجابله ماذا تصنع (اش ٤٥ : ٩). لم تكن هذه أول وآخر مرة حاول فيها الانسان أن ينجو من قضاء كلمة الله المحتم.

وعلى أى حال فان أخبار الهروب وصلت الكلدانيين وتحرك كل الجيش لاقتفاء أثر الهاربين. "صار طاردونا أخف من نسور السماء. على الجبال جدوا فى أثرنا. فى البرية كمنوا لنا. مسيح الرب أخذ فى حفرهم" (مراثى

٤ :١٩و٢٠) ، هذه مرثاة ارميا. أما حزقيال فانه يعطينا صورة أدق لما حل بشعب الله من أهوال فى تلك الليلة الليلاء "وأبسط شبكتى عليه فيؤخذ فى شركى وآتى به الى بابل وهناك يموت وأذرى فى كل ريح جميع الذين جوله لنصره وكل جيوشه وأستل السيف وراءهم" (حز ١٢ :١٣ ,١٤).

يحدثنا سفر المراثى عما حدث فى أورشليم صباح اليوم التالى، وعما أصابها فى الشهر التالى حينما سقطت المدينة العليا أيضا فى أيدى الغزاة. فالشوارع والبيوت اكتظت بجثث القتلى بعد أن ارتكبت معهم أقبح الجرائم. ولكنهم على أى حال كانوا أسعد حظا من ألوف الناجين الذين اقتيدوا الى السبى، أو بيعوا الى العبودية، ليروا أهوال الموت وهم أحياء حينئذ التهمت النيران الهيكل والقصر، البيوت الرئيسية والمساكن العادية، وامتلأت بالخرائب تلك المدينة المقدسة الجميلة التى كانت بهجة كل الأرض، وسمعت أذن النبى روح المدينة العاثرة تولول قائلة :

أما اليكم يا جميع عابرى الطريق

تطلعوا وانظروا ان كان حزن مثل حزنى الذى صنع بى الذى أذلنى به الرب يوم حمو غضبه (مراثى ١ : ١٢).

يصفق عليك بالأيادى كل عابرى الطريق. يصفرون وينغضون رؤوسهم على بنت أورشليم قائلين : أهذه هى المدينة التى يقولون انها كمال الجمال، بهجة كل الأرض. يفتح عليك أفواههم كل أعدائك. يصفرون ويحرقون الأسنان يقولون قد أهلكناها. حقا ان هذا اليوم الذى رجوناه. قد وجدناه. قد رأيناه. فعل الرب ما قصد. تمم قوله الذى أوعد به منذ القدم. قد هدم ولم يشفق. وأشمت بك العدو. من أجل هذا حزن قلبنا، من أجل جبل صهيون الخرب، الثعالب ماشية فيه" (مراثى ٢ :١٥ ـ ١٧ ، ٥ : ١٧ ,١٨).

أما صدقيا فقد أخذ الى ربلة حيث كان يقيم بها وقتئذ نبوخذنصر، الذى كان لا يتوقع سقوط المدينة بهذه السرعة. وبقسوة وحشية قتل بنى صدقيا أمام عينيه لكى يكون آخر مشهد ينظره آلام الموت التى يتجرعها فلذة كبده. ثم أرغم على أن يشهد ذبح كل أشرافه. أما الضربة القاضية فان نبوخذنصر قلع عينى صدقيا برمحه، وربما بيده.

كان مشهد مسير المسبيين الى مقامهم البعيد يحتاج الى ريشة المصور. شبهه البعض بمنظر صفوف المسبيين الطويلة الذين يجتازون بصفة مستمرة من روسيا الى مرتفعات آسيا الوسطى ثم الى فيافى سيبريا. لقد اضطر النساء الرقيقات والأطفال الصغار أن يرتحلوا يوما بعد يوم دون مبالاة بالتعب

والاعياء، واشترك الأنبياء والكهنة فى البلية التى عجلوا بها، وسار الأغنياء والفقراء جنبا الى جنب مكبلين بالأغلال، والسادة من خلفهم يحثونهم، بالرماح أو الكرباج على سرعة المسير. اجتازوا وادى الأردن الطويل. ثم الى دمشق، ثم قضوا ثلاثين يوما فى عبور البرية القاحلة التى سبق أن عبرها فى فجر التاريخ ابراهيم، جدهم الأكبر، خليل الله. وكانت كل الأمم التى تراهم تصفق بالأيدى. كانت أمر الذكريات التى مرت بمخيلتهم فيما بعد شماتة الأدوميين فى سقوط مدينتهم، "اذكر يا رب لبنى أدوم يوم أورشليم القائلين : هدوا هدوا حتى الى أساسها" (مز ١٢٧ : ٧). وكان رجاء النبى الانجيلى أن يأتى القوى الجبار القهار، الرب الاله، بثياب حمر من أدوم، ملطخة بدماء أدوم (اش ٦٣:١ ـ ٦).

وهكذا أصعد الله على شعبه "ملك الكلدانيين فقتل مختاريهم بالسيف فى بيت مقدسهم، ولم يشفق على فتى أو عذراء ولا على شيخ أو أشيب بل دفع الجميع ليده وجميع آنية بيت الله الكبيرة والصغيرة، وخزائن بيت الرب، وخزائن الملك ورؤسائه أتى بها جميعا الى بابل. وأحرقوا بيت الله، وهدموا سور أورشليم، وأحرقوا قصورها بالنار. وأهلكوا جميع آنيتها الثمينة. وسبى الذين بقوا من السيف الى بابل. فكانوا له ولبنيه عبيدا" (٢ أى ٣٦ : ١٧ ـ ٢٠).

وقبل ذلك ببضع سنوات، فى السنة الرابعة لملك يهوياقيم، بينما كان باروخ، صديق ارميا وتلميذه، يشكو مر الشكوى بسبب البلية التى حلت به على أثر اتمامه رسالة الرب، أكد له ارميا بأنه سوف ينجو على الأقل من البلية الأخيرة "هكذا قال الرب اله اسرائيل لك يا باروخ. قد قلت ويل لى لأن الرب قد زاد حزنا على ألمى.. هكذا تقول له هكذا قال الرب : هأنذا أهدم ما بنيته واقتلع ما غرسته وكل هذه الأرض. وأنت فهل تطلب لنفسك أمورا عظيمة. لا تطلب.

لأنى هأنذا جالب شرا على كل ذى جسد يقول الرب وأعطيك نفسك غنيمة فى كل المواضع التى تسير اليها". (ار ٤٥ : ٢ ـ ٥).

وكما نجا نوح من مياه الطوفان، ولوط من انقلاب سدوم، والمسيحيون الأولون من أهوال سقوط أورشليم الأخير بهروبهم والتجائهم الى بلا Pella، هكذا جاز باروخ وسط هذه المناظر المروعة دون أن يمسه أذى. فان الرجل اللابس الكتان الذى له دواة الكاتب على جانبه وسمه سمة، والست الرجال الحاملين بأيديهم أسلحة ساحقة لم يمسوه (حز٩).

* * *

- ٢٠ -

«غروب تتخلله السحب»

(ار ٤٠ ـ ٤٤)

الى من أذهب الا اليك أيها السرمدى الأبدى

أنت الذى تهيئ بيوتا أبدية غير مصنوعة بالأيدى

هل أخشى تغييرا وأنت هو هو لن تتغير

وهل أشك فى أن قوتك تستطيع أن تملأ القلب ان عملا واحدا من أعمال الخير لن يضيع أبدا

ان ما كان سوف يكون

أما الشر فانه لا شئ، بل هو العدم

وما كان خيرا سوف يبقى خيرا

وكلما كثر الشر ازدادت قيمة الخير

وما الخير على الأرض الا جزء من الدائرة

أما فى السماء فهو الدائرة الكاملة

(براوننج)

اذا كان ارميا هو الذى كتب الآيات الأخيرة من سفره فلابد أن يكون قد عاش عشرين عاما بعد سقوط أورشليم.

ولقد كان نصيبه من الآلام والأحزان فى هذه الفترة هو نفس ما عاناه مدة خدمته العلنية التى بلغت أربعين عاما. ويبدو أن النبى ـ من جهة النصيب الخارجى ـ عانى حياة مريرة مليئة بالأحزان المتواصلة التى لم يشهدها غيره قط عدا الرب يسوع المسيح، كان هذا واضحا لمفسرى اليهود عند تفسير نبوة أشعياء حتى أنهم طبقوا عليه الأصحاح الثالث والخمسين الذى يتحدث عن رجل الأوجاع، مختبر الحزن، الذى وقف صامتا كنعجة أمام جازيها، طبيعى أننا فى نور الجلجثة نرى عمق الآلام الكفارية فى هذه الكلمات الخالدة التى فاقت كل العقول البشرية. ولكنها رغم ذلك كانت لاتطبق الا على أرميا.

أن آلامه يمكن تنظيمها تحت ثلاث أبواب:

١- تلك المدرجة فى سفر المراثى والمتصلة بسقوط أورشليم.

٢ ـ وتلك المتصلة بقتل جدليا والهروب الى مصر.

٣- وتلك المتصلة بالسبى هناك.

على أنه وسط كل هذه الآلام كان قلبه على الدوام مليئا بالرجاء والسلام. كان مكتئبا فى كل شئ لكن غير متضايق، متحيرا لكى غير يائس، مضطهدا لكن غير متروك، مطروحا لكن غير هالك (٢كو ٤) مسلما للموت دواما

لكنه كان يجتاز من الموت الى الحياة الحقيقية، واثقا أن الرب لن يرفض الى الأبد، وأنه ولو أحزن فانه يرحم حسب كثرة مراحمه (مراثى ٣ : ٣١ و ٣٢).

١ ـ المدينة الخربة :

لم يقم أى تساؤل عن كاتب سفر المراثى الا أخيرا. فانه لا يحمل اسم كاتبه، بل وصلت الينا هذه المراثى العميقة غفلا من التوقيع. على أن التقاليد القديمة تنسبها الى نبينا هذا : فى الترجمة السبعينية التى تمت عام ٢٨٠ ق.م نجد هذه المقدمة فى السفر "وحدث بعد أن سبى اسرائيل، وخربت أورشليم أن ارميا جلس لينوح ويرثى أورشليم بهذه المرثاه" وتضيف الترجمة اللاتينية (الفولجاتا) لهذه المقدمة هذه العبارة : "وهو يتنهد ويصرخ بمرارة القلب".

أما المغارة التى يقال ان ارميا كتب المراثى فيها لا تزال بالجهة الغربية من المدينة. حيث يجتمع اليهود كل أسبوع يوم الجمعة ليرددوا هذه الكلمات الرائعة (على أساس أنها كلمات ارميا) عند المبكى فى أورشليم حيث لا تزال بعض الأحجار القديمة باقية، لذلك فلا مبرر للتشكك فى نسبة سفر المراثى الى ارميا.

فى ضوء هذه الحقيقة يا له من نور قوى يسطع على ذلك المنظر المروع حين أتم نبوزردان عمل التخريب. وسارت

الصفوف الطويلة من الأسرى فى طريقهم الى بابل. ليست لنا مصادر نستقى منها المعلومات عن عدد الأسرى، ولكنه على الأرجح يصل الى بضعة آلاف، معظمهم من طبقة الأغنياء. لأنه لم يترك الا فقراء الشعب ليزرعوا الأرض، لكى لا تتحول الى برية مقفرة تماما. على أن السكان كانوا أقلية ضئيلة جدا، بضع فلاحين مبعثرين فى المواضع التى كانت غاصة بالسكان.

جلست وحدها المدينة الكثيرة الشعب. صارت كأرملة نهارا وليلا بدت فى أعين كل محبيها كأنها تبكى بحرقة. ودموعها على خديها. انطفأت النار المقدسة على مذابحها، طرق صهيون نائحة لعدم الآتين الى العيد، كل أبوابها خربة. وسكانها أبيدوا بالنيران بلا رحمة. كم من المرات سار ارميا حزينا وسط خرائبها. هنا يجد مكان المذبح. وهناك كان قدس الأقداس هنالك كان قصر داود، وهنا كان القصر الجديد الذى شيده يهوياقيم لنفسه بنوافذه المتسعة ونقوشه البديعة، هنالك دار السجن التى عانى فيها مرارة الحبس بضعة شهور، وهنالك أيضا المكان الذى طالما وقف فيه محذرا شعبه من خطاياهم.

احتفظت الطبيعة فوقها وحولها بنفس دورة الفصول والشهور ودورة الليل والنهار. فالجبال القديمة التى كانت تتاخم المدينة أيام داود وحزقيا كانت لا تزال تسطع فى نور

الصباح وتعتم فى ظلمة الليل. والشمس كانت لا تزال تشرق على جبل الزيتون وتغرب فى البحر الغربى، ومنظر الجبال والأودية التى تحيط بها كبحر صخرى انبسط فى قوته وجماله لأن صهيون كانت على الدوام جميلة بموقعها لكن رهبة الموت حلت فوق العذراء ابنة صهيون، لا يقطع حبل الصمت الا عويل ابن آوى والكلاب الوحشية.

ان لغة البشر لتعجز عن أن تصف نفسية ارميا وسط هذه المناظر الأليمة، فانه لم يمتلئ أى قلب بمحبة بلاده أكثر من قلبه، لم تكن عواطف فوشيون Phocion نحو أثينا وسافونارولا Savonarola نحو البندقية وبيت الكبير The Elder Pitt نحو انكلترا وسط البلايا التى نغصت حياته فى أيامه الأخيرة ـ لم تكن هذه أكثر رقة من عواطف ارميا نحو بلاده وقت بليتها، فان محبته لها امتزجت بحياته الدينية.

ولو أنه أتيح له أن يستمع مقدما الى كلمات ذاك الذى كان سوف يجلس على نفس الجبل، ويتطلع الى المدينة عبرالوادى لردد نفس هذه الكلمات قائلا "يا أورشليم يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين اليها كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا، هوذا بيتكم يترك لكم خرابا".

٢ ـ قتل جدليا :

كانت أنباء حصار أورشليم تصل تباعا بالتفصيل الى نبوخذنصر ورؤسائه. وقد أعطى الملك تعليمات صريحة الى قادته لاتخاذ كل الاحتياطات اللازمة نحو نجاة ارميا. وعندما سقطت المدينة العليا فى أيديهم أرسلوا وأخذوه من السجن، وأخذ فى سلاسل مع باقى المسبيين الى الرامة، وهى تبعد شمالا عن أورشليم نحو خمسة أميال.

ضمن خطاب رائع ألقاه رئيس الشرطة الى ارميا اعترف هذا الرئيس باقتصاص الرب من شعبه. وفى هذا الخطاب تجد دليلا ـ ضمن الأدلة الكثيرة ـ على حياة التقوى الحقيقية التى شهدت لهؤلاء القوم بأنهم لم يكونوا ضمن الوثنيين العاديين. استمع الى نبوزارادان رئيس الشرطة حين يقول لارميا "ان الرب الهك قد تكلم بهذا الشر على هذا الموضع. فجلب الرب وفعل كما تكلم. لأنكم قد أخطأتم ولم تسمعوا لصوته فحدث لكم هذا الأمر" (ار ٤٠ : ١ ـ ٣).

من ثم انتزعت السلاسل من يديه وأعطيت له الحرية اما أن يرافق بقية الشعب الى بابل، أو يذهب الى أى مكان يختاره فى حدود البلاد. واذ أخذ يفكر فى الاتجاه الذى يتخذه نصح اليه القائد الكلدانى أن يعود الى بلاده، ويبقى مع جدليا ليشد يده، ويكون مشيرا له فى المهمة الشاقة التى

كلف بها. وهكذا نراه مرة أخرى يعود من الراحة الى طريق الواجب الشائك.

كان جدليا حفيدا لشافان كاتم أسرار يوشيا الملك، وكان أبوه هو أخيقام. الذى كان قد أوفد للاستعلام من خلدة النبية عن سفر الشريعة الذى اكتشف حديثا. فى مناسبة سابقة كانت يد أخيقام هى التى أنقذت ارميا من أيدى الأشراف. لذلك كانت كل العائلة مرتبطة مع خادم اللّه بأوثق الصلات وأدقها، اذا كانت قد تشبعت بالروح التى نفثها فيهم. وسلكت الطريق الذى رسمه، وحسب المبادئ التى نادى بها سلك جدليا حسب هذه المبادئ دواما، وهى التى جعلته فى نظر نبوخذنصر خير من يؤتمن على زمام الحكم، والاشراف على البقية الباقية من شعب اسرائيل. من أجل هذا اتجه ارميا اليه، مزودا من قبل الغزاة بما يلزمه من طعام، وبما يليق به من مظاهر التقدير والاحترام.

سارت الأمور حسنا فترة قصيرة. اتخذ الحاكم الجديد مقره فى المصفاة وهى حصن قديم كان قد بناها آسا منذ ثلاثمائة سنة أمام بعشا (١مل ١٥ : ٢٢) كانت المدينة قائمة على مرتفع صخرى، ولكن القصر كان يزود بالماء من بئر عميقة، وكان جنود الكلدانيين قد أعطوا لجدليا مظهر السلطة فى حكمه، والثبات فى كرسيه. فاتجهت اليه أنظار بقية اليهود المبعثرين فى الأرض وخرج اليه كل رؤساء

الجيوش الذين كانوا لا يزالون متحصنين فى الحقول هم ورجالهم كعصابات ثائرة ضد الغزاة، وأسرعوا فى تقديم الولاء للوالى الجديد. واليهود الذين سبق أن التجأوا الى موآب وأدوم وباقى الشعوب المجاورة "رجعوا من كل المواضع التى طوحوا اليها وأتوا الى أرض يهوذا الى جدليا الى المصفاة".

لابد أن ارميا قد اغتبط قلبه اذ رأى هذه النواه الصغيرة من النظام تنتشر فى أرجاء الفوضى والاضطراب المحيطة، ولابد أنه بذل أقصى جهد للمساعدة فى توطيد حكم جدليا، ولكن هذا الحلم الجميل سرعان ما تبدد بقتل جدليا، الذى يبدو أنه كان خير من يضطلع بمهام منصبه، بيد اسماعيل بن نثنيا الذى غدر به. فان الوالى (جدليا) صنع وليمة دون أن تخامره أية شكوك من جهة أى انسان. وفى أثناء الوليمة قتله اسماعيل بالسيف كما قتل "كل اليهود الذين كانوا معه أى من جدليا فى المصفاة" والحامية الكلدانية.

وفى اليوم التالى امتدت يد المجرم، التى كانت لا تزال ملطخة بالدماء، ولا تزال متعطشة الى سفك الدماء، الى سبعين حاجا كانوا فى طريقهم الى أورشليم ليكونوا وسط خرائبها، ويقدموا تقدمات فوق موضع المذبح المتهدم، فقتلهم، اكتظ الجب بجثثهم، وبعد ذلك بفترة وجيزة حمل

اسماعيل بنات الملك "وكل بقية الشعب الذين فى المصفاة" الذين التفوا حول جدليا وارتحل معهم الى قصر "بعليس" ملك بنى عمون الذى كان شريكا فى هذه المؤامرة.

كان هذا فشلا ذريعا وخيبة أمل مرة. ولم يبلغ الحزن الى قلب أى شخص آخر أشد مما وصل الى قلب ارميا، الذى فى أثناء محاولته القضاء على هذه المحاولة الأخيرة لاستتباب الهدوء واستقرار الحالة فى البلاد رأى العداوة المستحكمة بين شعبه وملك بابل، ورأى أن هذه الحالة تدوم على الأقل سبعين عاما.

ويبدو أن الشعب أنفسهم قد دبت فى قلوبهم عوامل اليأس، لأنه رغما عن أن يوحانان وغيره من قادة العصابات الثائرة اقتفوا أثر اسماعيل وأنقذوا من يده كل الأسرى الذين حملهم، واستردوا النساء والأطفال، فانه لم يجسر أحد على الرجوع الى المصفاة، بل كانوا كخراف منزعجة بسبب الكلاب النابحة وراءها، فاعتزموا هجر بلادهم، واتجهوا نحو الجنوب بقصد الالتجاء الى أرض مصر، التى كانوا فى علاقات طيبة معها فى السنوات الأخيرة.

وحملوا معهم ارميا. فانهم كانوا يثقون فى صلواته، وفى صدقه واخلاصه، لأن كل نبواته قد تحققت، وكانوا يعلمون أنه محبوب فى عينى ملك بابل، وأن صلواته مقبولة لدى الله، ولذلك اعتبروه درعا وترسا، ممثلا أمينا لأسمى

آمال شعبهم وتقاليدهم، ووجدوا فيه رجلا اجتمعت فيه بنسب متساوية مؤهلات السياسى، والحكيم، والنبى.

واذ وصلوا الى "جيروت (منازل أو استراحة) كمهام"، الذى يذكرنا اسمه بهرب داود من أورشليم وعودته اليها (وهذا المكان قائم على الحدود بين فلسطين ومصر) فكر الشعب طويلا، وتساءلوا عما اذا كانوا يتقدمون فى مسيرهم (الى مصر) أو يعودون لبلادهم، ثم تقدموا أيضا الى ارميا وطلبوا منه أن يصلى فيخبرهم الرب الهه عن الطريق الذى يسيرون فيه والأمر الذى يفعلونه. لقد أظهروا رغبتهم بأن لا يسيروا مطلقا الا بارشاد الله، ولو أنهم كانوا غير مخلصين فى هذه الرغبة على الأرجح. لقد كانوا يخدعون أنفسهم باظهار هذه الرغبة نحو عدم التصرف الا بارشاد الله، لأنهم كانوا فى الواقع مصممين على الدخول الى أرض مصر.

قضى ارميا عشرة أيام فى الصلاة، وأخيرا كانت كلمة الرب اليه، فدعا الشعب الذين حوله ليسمعوها، ثم قال لهم، متكلما باسم العلى "ان كنتم تسكنون هذه الأرض فانى أبنيكم ولا أنقضكم، وأغرسكم ولا أقتلعكم. لا تخافوا ملك بابل. لا تخافوه يقول الرب لأنى أنا معكم لأخلصكم وأنقذكم من يده". أما اذا أصريتم على الذهاب الى أرض مصر "قائلين لا بل الى أرض مصر نذهب حيث لا نرى حربا ولا نسمع صوت بوق ولا نجوع للخبز وهناك نسكن..

يحدث أن السيف الذى أنتم خائفون منه يدرككم فى أرض مصر. والجوع الذى أنتم خائفون منه يلحقكم وتموتون بالسيف والجوع والوباء. فتصيرون حلفا ودهشا ولعنة وعارا ولا ترون بعد هذا الموضع" ويبدو أنه أثناء الكلام كان قلبه كسيرا من الحزن لأنه أدرك أن الرغبة فى النزول الى مصر ازدادت قوة مدة الأيام العشرة التى قضاها فى الصلاة، وأن كلماته لم تفلح فى صد التيار الشديد الذى كان يدفعهم اليها.

وهكذا حدث أنه عندما أتم الكلمات التى أرسلها الرب اليهم عن يده أن الرؤساء اتهموه بالتكلم بالكذب وتحريف كلمة الرب، واذا لم يشاءوا اتهامه بالخيانة صراحة ذكروا له أن باروخ، صديقه الأمين الذى كان لا يزال مرافقا له، أوعز اليه أن يحثهم على الرجوع الى كنعان بقصد تسليمهم غدرا لأيدى الكلدانيين لقتلهم أو أسرهم : وهكذا تابع الشعب المنزعجون طريقهم الى مصر، واستقروا فى تحفنحيس التى كانت تبعد عن الحدود بعشرة أميال.

لعل آخر ما بقى من مرارة الكأس التى تجرعها ارميا كان بسبب هذا العناد الشديد، الذى لم تستطع كلماته أن تلينه، والذى قاوم توسلاته وادعى بأن نصائحه انما كانت غاشة ولا تتفق مع مصلحتهم الحقيقية. كم كان مروعا أن يسيئوا الظن فى ذلك الرجل الذى قضى أربعين عاما فى خدمة

مستمرة باذلا أقصى الجهد لانقاذهم من نتائج المشورة الشريرة ودعوتهم الى الايمان البسيط الكامل فى اله آبائهم.

٣ ـ مصر :

لم تكن حياة جهاده قد كملت بعد، فانه لم يكد الشعب يستقرون فى موطنهم الجديد حتى أمره اللّه بأن يأخذ حجارة كبيرة بيده ويطمرها فى الملاط فى الملبن الذى عند باب بيت فرعون فى تحفنحيس، ثم قال لشعبه : "هكذا قال رب الجنود اله اسرائيل، هأنذا أرسل وآخذ نبوخذنصر ملك بابل عبدى وأضع كرسيه فوق هذه الحجارة التى طمرتها فيبسطوا ديباجة عليها، ويأتى ويضرب أرض مصر الذى للموت فللموت والذى للسبى فللسبى والذى للسيف فللسيف، وأوقد نارا فى بيوت آلهة مصر فيحرقها ويسبيها ويلبس أرض مصر كما يلبس الراعى رداءه ويكسر نصاب بيت شمس (مسلات عين شمس) ويحرق بيوت آلهة مصر بالنار" اذا فحضوركم الى هنا لا ينقذكم من يد العدو الذى ترهبونه، بل يدفعكم ليده.

لابد أنه قد تعاقبت بعد هذا بضع سنوات لم يدون لنا الكتاب عنها شيئا، كان الملك العظيم خلالها منشغلا فى حصار مدينة صور، ولذلك فلم يتمكن من متابعة برنامجه نحو الهجوم على فرعون. خلال هذه الفترة تبعثر اليهود فى

منطقة واسعة وأسسوا المقاطعات فى الوجه البحرى كما فى الوجه القبلى، ووصلت اليهم جميعا عدوى العبادة الوثنية والعادات الوثنية. ورغم المصائب الأليمة التى حلت بهم نتيجة العبادة الوثنية فقد كانوا لا يزالون "يبخرون لآلهة أخرى فى أرض مصر، ويكررون نفس الرجاسات التى جلبت كل تلك الويلات والآلام على أمتهم.

لذلك انتهز ارميا فرصة اجتماعهم فى أحد الأعياد الوثنية العظيمة وحذرهم من المصائب المحققة التى لابد أن تحل بهم فى مصر كما حدث لهم فى أورشليم قال لهم النبى الأمين "هأنذا أعاقب الذين يسكنون فى أرض مصر كما عاقبت أورشليم بالسيف والجوع والوباء. ولا يكون ناج ولا باق لبقية يهوذا الآتين ليغتربوا هناك فى أرض مصر ليرجعوا الى أرض يهوذا التى يشتاقون الى الرجوع لأجل السكن فيها".

وهنا حدثت منازعة حادة. فان الشعب احتجوا بغضب على هذه الكلمات، وصرحوا بأنهم سوف يظلون يبخرون "لملكه السموات" كما فعلوا فى شوارع أورشليم من قبل. ثم صرحوا بأن المصائب التى حلت بهم تعزى لعدم استمرارهم على هذه العادة. أما ارميا فانه، برغم تقدمه فى السن ووهن قوته، لم يتردد عن أن يبين لهم، باسم الرب

الاله الذى عبده بأمانة، أن الأهوال التى حلت بهم ولم تكن نتيجة عدم استمرارهم فى العبادة الوثنية بل نتيجة اصرارهم على التمسك برجاساتها. "من أجل أنكم بخرتم وأخطأتم الى الرب ولم تسمعوا لصوت الرب ولم تسلكوا فى شريعته وفرائضه وشهاداته من أجل ذلك قد أصابكم هذا الشهر كهذا اليوم". ثم استمر فى حديثه فتنبأ عن غزو نبوخذ نصر لمصر، الأمر الذى تم عام ٥٦٨ ق.م. والذى كانت نتيجته، كما يخبرنا يوسيفوس، نقل بقية اليهود الى بابل الذى سبق أن التجأوا الى مصر للاحتماء بها ولم يصغوا لنصيحة ارميا. وهكذا تحققوا من أن كلمة الرب هى التى تثبت دون كلمتهم.

خلال كل هذه الاختبارات الأليمة المروعة كان ارميا يسكت نفسه كفطيم. وحينما قال : "بادت ثقتى" كان لا يزال قلبه يردد هذا القول "رجائى من الرب" (مراثى ٣ : ١٨).

وعندما ذكرت نفسه (الافسنتين والعلقم) استعاد فى ذاكرته ذلك العهد الأبدى المتقن فى كل شئ والمحفوظ (٢صمم ٢٣ : ٥) وردد هذا فى نفسه فامتلأ قلبه رجاء (مراثى ٣ : ٢١).

لقد كان الرب نصيبه، من أجل ذلك كان ينتظر ويتوقع بسكوت خلاص الرب (مراثى ٣ : ٢٤ و ٢٦). وكان متيقنا أن "السيد لا يرفض الى الأبد. فانه ولو أحزن يرحم حسب كثرة مراحمه" (ع ٣١ و ٣٢).

وكان يعلم أن وليه حى (أى ١٩ : ٢٥) ولذلك سيقوم ويدافع عن حقه وينتقم من أعدائه.

لقد تطلع من وراء السنين فرأى نهاية السبى، وعودة شعبه الى بلادهم، واعادة بناء المدينة. والحياة المقدسة المباركة التى يحياها سكانها، والحكم المجيد لغصن بل أصل داود، والعهد الجديد الذى يتلاشى أمامه العهد العتيق.

لذلك فالمرجح أن كل أيامه لم تكن مظلمة، كانت تضئ عليها الأشعة الأولى لشمس البر. كان قلبه عامرا بتعزيات الروح القدس. لابد أن يكون الله "الذى يعزى المنسحقين المنضمين" (٢كو ٧ : ٦) قد تكلم بالسلام فى قلبه. لم يحصل فى تاريخ البشرية أنه سمح بأن يغرق أحد خدامه فى بالوعة اليأس. فالنور يشرق فى الظلمة على الدوام للمستقيمين (مز ١١٢ : ٤) وفى أحلك الساعات التى عاناها ابن الانسان استطاع أن يقول "يا أبتاه فى يديك استودع روحى".

ان كان بعض الذين يقرأون هذه السطور يجوزون ظلمة حالكة كارميا، يسلكون فى طريق الآلام فى وادى الظلام، فليتيقنوا أن هذا هو السبيل لاتصال النفس بروح الله صلة وثيقة، وأن الرب لا يقترب الى أشخاص أكثر من أولئك الذين انسحقوا تحت الآلام. اننا عندما نقع فى الأرض ونموت فحينئذ فقط لا نبقى وحدنا بل نبتدئ بأن نعطى ثمرا كثيرا. لا تحاول بأن تشعر بأنك خاضع بل ارد الخضوع، اخضع تحت يد الله القوية. ان كنت لا تستطيع أن تقول شيئا فردد هذه الكلمة نهارا وليلا "يا أبتاه ليكن لا ما أريد أنا بل ما تريد أنت". لا تشك قط فى محبة الله. لا تتوهم لحظة بأنه قد نسيك أو تركك. لا تصغ لايحاءات الشيطان بأن المحصول الذى سوف تجمعه كان ممكنا الوصول اليه بنفقة أقل. ان طريق الله كامل، وهو يجعل طريقنا كاملا.

لا يتحدث الينا الكتاب المقدس بشئ عن موت ارميا ونحن لا ندرى ان كان قد تم فى مصر رجما كما تخبرنا التقاليد المسيحية، أو مات موتا طبيعيا فى غرفة هادئة تحت عناية صديقه الأمين باروخ. والكتاب المقدس لا يتحدث كثيرا عن مناظر الموت لكى يتحدث طويلا عن منظر موت ذاك الذى أبطل الموت بموته. لأن اهتمام الله الأول مركّز فى حياة وأعمال خدامه. هو يعنى بما فعلوا وقالوا وتأملوا

أكثر مما يعنى بكيفية انهاء حياتهم عندما يأمر، والواقع أن معرفتنا بنوع الحياة التى عاشها انسان ما تجعلنا لا نبالى كثيرا بالسؤال عن ساعاته الأخيرة.

ولكن يا له من فرح عظيم ملأ قلب النبى حين أغمض عينيه عن الخراب الذى جلبته الخطية على الشعب المختار، وفتحهما على الأرض التى لا توجد فيها خطية أو موت، ولا مناظر أو أصوات حروب، ولا ما يعيق الراحة الكاملة. يا لها من نظرة مليئة بالتعجب والسرور والغبطة انطبعت على ذلك الوجه المضئ، تلك التى تعبر عن الرؤيا المجيدة الأخيرة للنفس وهو تنتقل من الفساد الذى قد أضناه الصراع العنيف الطويل لكى تسمع كلمة الترحيب والمديح من فم الله. لقد انتعشت ذاكرته. وحين عاد الشعب من السبى كان يبدو لهم أن روحه الطاهرة ترفرف عليهم.

كان مما عضد يهوذا المكابى ثقته بأن ارميا قد أتى لمعونته وكان اليهود يعتقدون أنه فى السماء مستمر على تقديم صلواته الشفاعية التى اشتهر بها على الأرض. وفى الأيام التى سبقت حصار أورشليم الثانى كان المعتقد أنه ظهر ثانية فى شخص ابن الانسان.

* * *

فهرس الكتاب

كتب للمعرب

حياة يوسف	دكتور ف.ب. ماير
حياة ابراهيم	.
حياة ايليا	.
حياة ارميا	.
حياة يشوع	.
حياة داود	.
حياة زكريا (نبى الرجاء)	.
حياة بطرس	.
حياة بولس	.
حياة يوحنا المعمدان	.
حياة موسى	.
المسيح فى اشعياء	.
تفسير رسالة فيلبى	.
تفسير رسالة رومية	متى هنرى
تفسير نشيد الانشاد	.
تفسير سفر الجامعة	.
تفسير هوشع	.
تفسير نحميا	.

تفسير انجيل متى	متى هنرى
تفسيرالمزامير	للقديس أوغسطينوس
شهادة علم الآثار للكتاب المقدس	دكتور ف.ب. ماير
مزمور الراعى	.
أسرار الحياة المسيحية	.
مخلصون ومحفوظون	.
أضواء على الحياة اليومية	.
تجسد الكلمة	لاثناسيوس الرسولى
رسالة الى الوثنيين	.
رسالة عن الروح القدس	.
حياة أنبا أنطونيوس	.
تاريخ الكنيسة	ليوسابيوس القيصرى
كيف تدرس الكتاب المقدس	.
القراءات اليومية فى الكتب السماوية	.
تفسير قداس الكنيسة القبطية	(انكليزى وعربى)
قداسات الكنيسة الأثيوبية	(جيز وامهرى)
أمثلة المسيح	حسب انجيل مرقس
حياة المسيح	.
الكهنوت	.
الذبائح	هودجكن